روايـــة:

الفينيق وبيت العنكبوت

حكاية رجل أريد له أن يموت

د.خير سليمان شواهين

عالم الكتب الحديث

Modern Books' World

إربد- الأردن

2016

شخص قصير القامة، ضئيل الحجم، مريض الجسم، عاش في بيئة عدائية جدا، وضع أهدافا طموحة، وعمل بجدّ لتحقيقها، مخترقا كلّ الصّعاب، حتى وصل إلى أعلى درجات النجاح والإنجاز.

يعيش حياة مليئة بالتحدّيات والمغامرات والمآسي والنجاحات والمفارقات، والقفزات.

حياته كلّها مواقف استثنائية:

منها ما هو في غاية البساطة والجمال، وضحك يخرج من القلب.

ومنها ما هو كوميديا سوداء، وضحك يقطر دمعا وأسى يدمي القلب.

حياة لم تخطر على بال أحد، لشخص أراد له بعض الناس أن يموت، ولكن مشيئة اللّٰه أقوى.

وإرادة العزم والتصميم منحته قلبا مليئا بالحب لكلّ من حوله، فامتلأ عقله بالعلم الذي أضاء الطريق لكثير من الناجحين.

قالوا عن الحكاية:

ربّما أسدلت بكلماتك ستائر الرواية، معلنا نهايتها، لكنّك في حقيقة الامر، تعلن بدء مشاهد جديدة أخرى، لحياة أخريين، في مكان آخر، سيملؤها نجاحا وإرادة، وستسير الأجيال على طريقك لتكون رمزا حيا، ودائما للنجاح.

ولا تنسى أنني نتاج كلماتك وعلمك، وكل ما أقوله هو ما تعلّمته برفقتك الرائعة، وكلّ ما أقوله هو ملكك.

ابنك المحب، أوس تيسير الغول

" كل من يعرف خير شواهين يشعر بأنه قصير جدا أمام علمه وكرم أخلاقه"

الصديق: صالح القاسم

"كروموسوم من أحد أولئك العلماء العرب القدماء الموسوعيين انتقل عبر التاريخ ليظهر في شخص اسمه خير شواهين "

الصديق:د.درويش الشافعي

شكر وتقدير

لم يكن بإمكاني إصدار هذه الحكاية دون مساعدة ومشاركة عدد من الخبراء والمختصّين وأهمّهم:

صالح محمود القاسم

نزيه محمود شواهين

مصطفى صالح السعيد

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الفهرس	
المقدمة	1
الفرحة الكبرى	3
المرض وفقدان الذاكرة	5
ومضات ذاكرة!	8
مملكة أبي!	12
بركة الحجب والتمائم!	13
الختان، مشاعر مختلطة	14
أول يوم في المدرسة	15
عرس خالتي	18
حياتي الجديدة خارج المزرعة	19
سقوط القدس وحرب الاستنزاف	20
الخروج من الجنّة!	22
بعد الهجرة	23
جراح مؤلمة في انتظاري!	24
المشعوذ والأمل الكاذب!	25
سهرات مخيفة!	26
أنا وزينة!	27
أيلول الأسود في بيتنا!	27
بداية التحدّي	29
حرب الدرجات!	30
تجربة مؤلمة عند الحلاّق	32

الموضوع	الصفحة
أطباء زمان	33
أنا والكتب عشق أبديّ!	34
اللعب مدخل إلى الاكتشاف!	35
إلى بيروت	37
قانون العقوبات العائلي!	38
سارق اللوز	39
القوة المفرطة، والضعف المفرط!	40
شامبو أم زيت شعر؟	42
إلى ثانوية اربد	43
حياتي الجامعية	45
قُبلة في المحاضرة	47
أولّ اكتشاف!	48
مشكلتي مع الرياضيات!	49
عملي الأول	49
ثلاثة في ثلاثة!	50
موت أبي	51
العودة للثانوية	52
عندما صرت موظفا في وزارة التربية	53
أول مبلغ كبير أحصل عليه	54
أنا مسؤول!	55
خبير تشغيل فيديو !	56
فشل أليم وراءه خير عظيم!	57
تأديب المزعجين	58
دخولي للإسلام مرّة أخرى	59
زواج زاهي	61

الموضوع	الصفحة
عمّتي ونيران صديقة!	62
عوالم متوازية!	62
مرحلة وظيفية جديدة	63
جنّتي الصغيرة التي أهرب إليها!	64
إلى المكان الذي أحبّه	65
أول كتاب وورم في الدماغ!	66
فترة العلاج ثم الزواج	67
بداية الإبداع والاختراع	70
التصنيع والثقة بالنفس!	71
مشكلتي مع الرسم!	72
رحلة الإقناع	74
وأخيرا وجدت أميرة!	75
ترتيبات الزواج الحزين!	76
ليلة العرس الأليمة!	77
في بيتنا غوانتانامو!	79
عام الحزن والفشل	81
رخصة قيادة السيارة	81
كتابي الأول والأمل الجديد	82
الخروج من شبكة العنكبوت	84
الحياة في الغربة	85
العمرة ولحظات من الضيق	86
الرجوع إلى بيت العنكبوت	87
صدمات متكررة	88
نهاية مشكلة!	89
بيت جديد ومشاكل جديدة!	89

الموضوع	الصفحة
الانتقال بسرعة الضوء!	90
الهاتف المخيف!	90
طيف من الذكريات	91
العمل في تلفزيون الأطفال	91
حبس اختياري!	92
حلم السيارة ما زال يراودني، فهل سيتحقق يوما؟	93
هجرس يردّ المعروف!	94
مفارقات في الزنزانة الانفرادية	96
تصنيع الأجهزة والاستنساخ!	100
انتقام الفئران!	101
قسوتي في انتمائي لعملي!	102
حكايات مشحونة	103
الرحيل وجلطة المدير!	106
قرد وخبير يونسكو!	107
أنا وعبد الرحمن الداخل!	108
فرص مغرية وعالِم مجنون!	110
لقاء الفجر في صلالة!	112
قواسم مشتركة	115
طبيب الأعصاب المعتوه	116
نابلس Heat Sink !	117
أنا وحزب (PKK)!	118
أختي لها تسع وتسعون حذاء ولي حذاء واحد!	120
تقاعد من أجل العمل!	121
جلسة بين العلماء!	121

الموضوع	الصفحة
زوجتي أميرة المبدعة ومحكمة الجنايات الكبرى!	123
تهيئة (Format) الذاكرة	124
أنا وأمّي في المطعم	125
النوايا الحسنة أبكتني!	128
البحث عن ذخيرة!	129
سخرية وسخرية!	130
الأفراح والأتراح، بالنسبة لي كلّها أتراح	132
السرقة ضريبة الإبداع	134
تقنيات القطيعة عند العناكب!	135
زمهرير، من زنقة لزنقة!	136
الأخت الكبرى تراقبك!	137
باب الترجمة الفسيح!	138
نقلة أخرى إلى الأمام	138
حرب جديدة وردّ مزلزل	139
فوبيا الصيدلية	140
آلام حتى البكاء	141
أنا وغزل وحب من نوع نادر!	142
أخي وطبيبي حكيم	144
حفلة ابني!	146
الذبح بدم بارد!	147
فرصة للضّحك!	148
صعود ذرى النجاح والمجد!	149
انتقام النجاح!	151
أنا وعائلتي الجديدة!	152
ويستمر الصراع والأمل!	154

المقدمة

هذه الحكاية تحكي قصّة شخص يختلف عن الآخرين، حياته مليئة بكل أنواع المفارقات، وضعها لتكون حافزا لكل محبط، ولمسة حنان لكلّ حزين مبتلى، وخريطة طريق لكل طموح، وهي تلخّص ملحمة نجاح رجل حكم عليه كثير من الناس بالموت.في هذه الرواية حاولت أن أضع الكثير من خبراتي، وتجاربي، وإبداعاتي، ومغامراتي، وعثراتي، ومداعباتي، ونجاحاتي، وآلامي، وطموحاتي، وحسراتي، وإنجازاتي، وقفزاتي، وأسرار نجاحي، وعنادي، وشدّة مِراسي، وسأعرض علاقة شخص قصير مع أهله، الذي بذل جهده خلال نصف قرن ليقنعهم أنه إنسان يستحق أن يعيش، ويحلم، وقدّم كلّ ما توفّر بين يديّه من إمكانيات لكي يكسبهم، ولكنّه رفضوا الاعتراف بكل ما حقق وما وصل إليه، وفي داخله أعتبر أن ذلك هو الفشل الوحيد في حياته، ويسبب له ألما وحسرة، ويا ليتهم يشعرون كم يحبّهم.

في هذه الحكاية سلّطت الضوء على حياة فئة لم يكتب عنها، ولم يشعر بها أحد، هم فئة قصار القامة، وهذه الرواية وضعتها ليس فقط للتسلية بل لأخذ العبرة، وتحفيز المحبطين نحو النجاح، وللأسباب التي ذكرت سابقا.

لقد كتبت في مجال تنمية الإنسان، وزيادة دافعيته، والتعامل مع لحظات ضعفه، ولكنّني أقول وبكلّ ثقة، أن هذه الرواية أكثر تأثيرا من تلك الكتب كلّها، لأنّها تصدر من القلب، وتصبّ في القلب.

وأتمنّى أن يتعرّف الناس على هذه الفئة التي تعرّضت أكثر من غيرها للسخرية للتهميش والأذى، وسوء الفهم، وهضم الحقوق، فهي

فرصة للتعريف بفئة يعتبرها الناس عالم مجهول، وصيغت عنها الكثير من الخرافات والحكايات، والسخريات.

لقد كنت وأنا أكتب هذه الحكاية، وكأنّي نسر يطرح عنه الريش القديم ليخلي طريقه لريش جديد أجمل، وأقوى، أو مريض يتعافى من مرضه المزمن، ويبدأ الحياة بجسم جديد، وأتمنّى أن تكون هذه الحكاية بداية جديدة لي في مجال آخر من مجالات الإبداع، وأن تصنّف ضمن كتب التنمية البشرية.

وقد سمعت بعض الاقتراحات لتحويل هذه الحكاية لعمل سينمائي أو تلفزيوني، وأنا أرفض هذا الاقتراح رفضا قاطعا، لما في هذا المجال من معاصي ومنكرات، ولأن معظم أهل الفنّ في بلادنا لا يمكن إلاّ أن يتلاعبوا بالنصوص والشخصيات، ويبقى الكتاب هو المصدر الأهم للمعرفة، ولا تنسونا من صالح دعائكم.

المؤلف

الفرحة الكبرى

لقد كان ذلك اليوم من أجمل أيّام حياتي، حيث حصلت على اعتراف رسمي من أعلى هيئة علمية في الأردن بتميّزي العلمي، وتسلّمت أكبر جائزة علمية في البلد، وهي جائزة الحسن بن طلال للتميّز العلمي.

في ذلك اليوم ذهبت إلى عمّان بناء على دعوة من مدرسة اليوبيل للمتفوّقين، وعند العودة توقّفت عند كابينة الهاتف العمومي، واتصلت مع مديرة المناهج لأسأل عن الجائزة فقالت لي: ألا تعلم؟

قلت لها: لا.

فقالت: لقد فزت يا سعد بالجائزة الأولى.

وهذه الجائزة، أي المرتبة الأولى لم تعط لأحد قبلك.

لقد سالت دموعي وملأت وجهي، فقد حصلت على اعتراف رسمّي من أعلى جهة علمية في البلد بتميّزي العلمي، وإذا كانت العائلة لا تعترف بي فهنالك من هو أهمّ منها يفعل ذلك.

عدت للبيت وكانت زوجتي قد علمت من الجريدة بالخبر ومن فرحتها عانقتني وقبّلتني على جبيني على مرأى الجميع.

وبعد أيّام دعينا لحفل ضخم في المركز الثقافي الملكي في عمّان حضره كثير من الأمراء والوزراء وكبار المسؤولين وتم تكريمي في ذلك الحفل.

ولكن، وكما هي عادته دائما، أصرّ أخي على مضايقتي في صباح ذلك اليوم، ولم يجد شيئا يتحدّث عنه فنظر إلى فمي، وقال: أسنانك صفراء!

ورغم أن سعادتي وقتها لم تكن تتّسع لها الـدنيا، إلاّ أنّـه أسـتطاع أن يغيظني، ويحرق قلبي، ولكنّه لا يعرف أن طائر الفينيق كلّما حرق يقـوم من الرماد بقوة وعنفوان أكثر من السابق.

وفي صباح ذلك اليوم الجميـل وقفـت علـى المنـصّة، أمـام كبـار شخـصيات البلـد، مـن أمـراء ووزراء وسـفراء وغيرهـم مـن كبـار الشخصيات، واستلمت الكأس والشهادة، ومعها شيك بمبلغ الجائزة.

بعد حفل تسليم الجـائزة كـان هنـاك حفـل شـاي، وقـدّم الأمـير التهنئة الحارّة لوالدتي الـتي كانـت فخـورة بـي، وتـشعر أنهـا تطـير فـوق السّحاب، وتذكّرت كم كانت ستخسر لو أنهـا أسـقطتني عنـدما حاولـت ذلك وهي حامل بي لأنها أُجبرت على الزواج من أبي.

نظرت إلى زوجتي وعيوني تقول لها: وكم كنّا سنخـسر أيـضا لـو أنّنا استسلمنا ولم نصمد أمام التيّار ولم نتزوّج؟

وتذكّرت الطبيب الذي قرر إيقاف علاجي في المستـشفى، وحـدد موعد إعلان موتي رسميا بعد بضعة ساعات.

وتذكّرت بعض أهلي الذين أقنعوا أنفسهم أنـني ميّـت افتراضـيا، ولن أكون إلا مخلوق فاشل مُلقى في الزاوية.

وكم كنّا سنخسر، ويخسر كثير من الناس لو لم نتمكّن من تقطيـع خيوط العنكبوت التي كانت تقيّد حركتنا ونبدأ في مسيرة النجاح؟

وكم كنت سأخسر لو لم أنفض الرماد عن نفسي، وأنطلـق فينيقـا في سماء الإنجاز والإبداع؟

ونظـرت مـرّة أخـرى إلى زوجـتي الـتي رافقـتني في هـذا الطريـق الشائك، وكم كنت سعيدا وأنا أرى الفرح ينطلق من عينيهـا، وكـم كنـت أتمنّى أن تعانقني فرحا كما عانقتني عندما وصلها خبر فوزي بالجائزة.

انشغل الناس بتناول الحلوى والمشروبات، وانسحبت جانبا وبدأت أتذكّر الوضع البائس الذي عايشته طويلا، وأخطر مرحلة مررت في حياتي، والتي بدأت قبل أقل من ثمانية أعوام حيث فقدت الذاكرة، وكنت على شفير الموت، واحتجت لرحلة طويلة من العلاج استمرّت لثلاثة أعوام، وها أنا بفضل الله تمكّنت وفي أقل من خمسة أعوام إلى الانتقال من مجرّد كتلة لحم محطّمة، وذاكرة مشطوبة للوصول إلى هذا المكان والاعتراف بي كأحد العلماء الذين يُحتفى بهم، وبدأت دموعي تنزل على وجهي كحبّات لؤلؤ صغيرة وأنا أتذكّر تلك الأحداث الصعبة، عندما فقدت ذاكرتي، وحياتي قبل ذلك الحدث الذي غيّر حياتي.

لقد عشت ثلاثة عقود بجسم صغير، فقد توقّف نموّ جسمي عند سنّ خمسة أعوام، وتمكّنت بهذا الجسم الصغير من تجاوز كثير من التحديّات، ولكن خياراتي كانت محدودة، حتى جاء اليوم الذي غيّر حياتي، عندما تحوّلت أكبر محنة مررت بها، إلى منحة ربّانية غيّرت كلّ شيء، ومنحتني جسما آخر مثل كلّ الناس، ساعدني في رفع مستوى طموحاتي إلى ما فوق ما الخيال، وعندها بدأت خطواتي الأولى نحو النّجاح.

المرض وفقدان الذاكرة

في طريق العودة تذكّرت ذلك اليوم الذي كان يوما مفصليّا في حياتي، إذ كنت عائدا إلى البيت بعد أن جهّزت لإحدى دوراتي العلمية التي سيتم افتتاحها صباح الغد، وهنا توقّف الزمن عندي، وما سأخبركم به الآن لم أتذكّره، بل أخبرني به أهلي وأصدقائي.

يقولون أنني شعرت بألم في خاصرتي، وأنّهم أخذوني للطبيب، فقال عندي حصى بالكلى، وأعطاني مدرّ بول، وهذا أدى إلى تشنّج وغيبوبة، والطبيب في المستشفى، وهو أستاذ دكتور في الطب ويدرس في الجامعة قال للأطباء: "He is a dead man"، أي سوف يموت، وأغلقوا ملفي، ووجهوني نحو القبلة بانتظار الإعلان الرسمي لوفاتي.

بعد ساعات أرسلوا طبيبا مبتدئا من أجل إعلان الوفاة، ولكنّه عرف أن مشكلتي هرمونية، وحدد الهرمون الذي ينقصني وأعطاني إياه، ودون علم الطبيب الذي يشرف على علاجي، وقال لأهلي خلال ساعتين سوف يصحو بإذن الله، وقبل أن تنتهي الساعتين بدأ بضربي على وجهي فأفقت.

بعد سنوات التقيت بذلك الطبيب، وحدّثني عن تلك الأيام وقلت له: يا دكتور لقد أتعبتني، الموت لا بد منه، وكانت ذنوبي قليلة، وكما كان يقول دكتورنا الباكستاني في الجامعة عن الأعمار "The sooner, the better".

فقال لي: لك عمر، ولك دور في هذه الحياة.

المهم أنني أفقت فاقدا للذاكرة بسبب نقص الأملاح، ثم أخذوني لمستشفى الجامعة الأردنية، عند طبيب إنسان، ألباني الأصل، واستمرت هذه المحنة لمدة شهر، وهذا الشهر مسح من ذاكرتي إلى الأبد.

بعد شهر بدأت الذاكرة بالعمل، نظرت حولي فإذا أنا في المستشفى وعليّ الكثير من الأجهزة والأكياس، وبجانبي عجوزان مريضان، وكنت أسألهم: فيقولون في مستشفى الجامعة، وأقول وما دخل الجامعة بالمستشفيات؟

وماذا حدث للدورة؟

ويبدو أنني كنت أكرر هذه الأسئلة كثيرا على المرضى والممرضين والأطباء، ثم أنسى كل شيء وأعيد طرح الأسئلة، وعندما بدأت ذاكرتي بالتسجيل كان قد ملّوا من أسئلتي.

بحثت حولي مثل طفل يريد أن يستكشف العالم، فوجدت خزانة صغيرة وبها بنطلون وبه محفظة، فتحت المحفظة وبدأت أقرأ في أرقام الهواتف، لقد نسيت كلّ الناس إلا بعض أهلي واثنين من زملائي في التربية، واتصلت على البيت، محاولا أن أعرف كلّ شيء، فأعطوني معلومات قليلة، وقالوا أن الطرق مغلقة بسبب الثلوج، ولن يأتوا قبل ثلاثة أيام.

لقد كانت أياما صعبة، وأخيرا أخذوني للبيت، وبدأت قصة مضحكة مبكية أخرى.

في البداية كانوا يخشون أن أفعل شيئا خطأ إن عرفت عن مشكلتي، خاصة وأني لا أملك إلا عقلي، وكيف سأفعل أن عرفت أنني فقدته، لكنّي سلّمت أمري لله، وعرفت أنه لا يختار لي إلا الأفضل.

في البيت بدأت أحاول أن أتذكّر الأشياء والناس، طلبت ألبومات الصور، وبدأت أنظر فيها وأسأل عنها، وأحاول أن أتذكّر، وكعادتي كنت مستعجلا في الخروج من هذه المرحلة، خرجت من البيت لزيارة بيت أختي زمهرير حيث سبق لها أن تزوّجت أحد أقاربنا، ذهبت إلى بيت زمهرير، ولكنّي ذهبت للبيت القديم الذي كانت تستأجره، وقد رحلت لبيت آخر، ثم لبيتهم الذي أكملوا بناءه.

مرّة أخرى ذهبت لجارنا أطلب منه أن يشتري لي زبيب؟!! طبعا هذا كان يمكن أن يجعلني مثار سخرية، لولا أن جارنا يعرف ما حدث معي.

وقد شعرت يوما بألم في رأسي، فقلت لهم: أريد شجرة أسبرين، لقد اختلطت الأمور في رأسي.

بعد إقامة شهر في البيت، كنت خلالها أشعر بفراغ شديد، ولكن مع نهاية الشهر بدأت أتذكّر بعض الأشياء المهمّة في حياتي، وطبعا أتذكّر الطبيب الذي عالجني.

وذهبت مرّة للمدينة أنا وعابد، وكنت وكأنني أستكشفها لأول مرّة، كان يقول لي: هذا شارع كذا، وهذا شارع كذا.

من المعلومات التي لم أنساها بتاتا تلك التي تخص صديقي مهندس الكهرباء، لقد تذكرّت أنه معتقل لسبب سياسي، وحزنت لأجله، وفي أحد الأيام، وقبيل الغروب، رأيته من بعيد هو وبعض إخوانه قادمين لزيارتي، لقد شعرت بفرح غامر، حتى أنني نسيت مشاكلي.

وجاء موعدي لمراجعة طبيبي في عمّان، ولأن الجو كان يوحي بأن هناك منخفض قوي، ولكنّي لا أستطيع أن أفوّت هذا الموعد، ولكن مرّت لحظات سكون وإذا بالثلج ينهمر بشدّة، لقد كان أقوى منخفض منذ سنوات، وانقطعت الكهرباء لعدّة أيام.

مللت من الجلوس في البيت فقطعت إجازتي وعدت للمركز الذي أعمل به، رغم أن الثلج ما زال يملأ الشوارع، فركبت في الحافلة وذهبت للمدينة، ثم ركبت في الحافلة التي تذهب لمجمّع عمّان القريب من المركز، وإذا بالحافلة تأخذ طريقا آخر، فسألت السائق، قال لي إن المجمّع انتقل إلى مكان جديد، أقصى جنوب المدينة، قلت له متى؟ فقال منذ عامين!

لقد بدأت بتذكّر المعلومات القديمة قبل الجديدة، كما ذهبت لبيت أختي القديم، وهكذا.

دخلت المركز، ورحّب بي الزملاء، وأخذوني إلى مختبري، المختبر الذي استلمته قاعات فارغة، وتابعت تأسيسه خطوة، خطوة، ولكنّي كنت أشعر وكّأني أراه لأول مرّة، وسألوني عن مجسّم الحمض النووي DNA، وأنا تخصصي أحياء، حيث قالوا لي هل تعرف هذا؟ فقلت، ربّما شاهدته سابقا، ولكنّي لا أعرفه!

وخلال هذه الفترة وقعت أحداث كثيرة، لقد كنت نشيطا، وعندي شبكة علاقات واسعة، ومن هذه المشاكل أنه جاءني أمين مستودع التربية، وقال لي: لقد بقي عندك بعض الأجهزة، فقلت له: لم أرك في حياتي، انتظر.

وجاءت قيّمة مختبر، تقول لي أنت استعرت من عندي جهازا مخبريا لدورة الأحياء، فقلت لها انتظري.

بعد فترة عادت لي كل ذكرياتي ما عدا الشهر الذي أخبرتكم عنه، وهنا بدأ الخير العميم، ولكن هذه العودة كانت على مراحل، حيث أتذكّر مشهدا هنا ومشهدا هناك، وهذا يعتمد على الصور التي كنت أراها، والحكايات التي أسمعها، والأشخاص الذين أخالطهم، حتى إذا وصلت لمرحلة مرضي لم أتذكّرها أبدا.

ومضات ذاكرة!

عندما أستقر وضعي الصحّي وبدأت بالتذكّر صارت الصور تتوارد إلى ذهني مبتدئة بالقديم، وتذكّرت أبي، وتاريخه الصعب، وحكاياته لي، وقد كان أهم حدث في حياته قبل ولادتي هو نجاح ابنه الذكر الوحيد يحيى، وبدأت الأحداث تمر في ذهني كشريط سينمائي.

"لقد نجحت يا أبي"

هذه الجملة انتظرها أبي كثيرا من ابنه يحيى، وبذل من أجل تحقيقها جهودا جبّارة، ومرّ بظروف صعبة، وهنا انهمرت دموعه، كيف ويحيى ابنه ينجح في المدرسة وسيذهب للجامعة.

لقد ولد أبي مع إطلالة القرن العشرين، ومات أبوه وهو شاب صغير وعنده زوجة، وإخوته ما زالوا أطفالا، وكان لأمّه الحازمة والقويّة الكثير من الفضل في صمودهم في ذلك الظرف الصعب، في ظل الاستعمار البريطاني لفلسطين وشرق الأردن.

لقد كبر إخوانه وتزوّجوا، وساعدهم في بناء بيوت لهم، ثم ترك كلّ شيء وأخذ زوجته ومعهم القليل من المتاع على بعير، وذهب لأرضهم شرق النهر، وبنى بيتا جميلا على شاطئ نهر اليرموك، حيث الخير العميم، فماء النهر عذب، والسمك متوفّر في كل وقت، والطيور كثيرة، وهو صيّاد ماهر، وبدأ يعتني بقطعة أرض وزرعها بالأشجار ثم انتقل وسكن بها، وحفر بئر نبع تشرب منه الكثير من التجمّعات القريبة من مزرعته.

لقد أنجب أبي عدّة أبناء وماتوا، ربّما لأن العناية الصحيّة كانت قليلة، والأوبئة منتشرة، ولم يبقى حيّا إلا يحيى، لقد اقترحت الممرضات في مستشفى الولادة هذا الاسم، لأنهن يعرفن كم مات له من أبناء، ولأنهن يعرفن كم صبر هو وزوجته، وقد حصل يحيى على حبّ ودلال لم يحصل عليه أحد من أبناء جيله، وهذا الدلال أتعبه، فهو لم يكن يريد أن يدرس، ولكن أبي أراد له أن يتعلّم ويحصل على شهادة من الجامعة.

لقد زار أبي يوما المدرسة الابتدائية ووجده وثلاثة من الطلاّب واقفين أمام المدير ينتظرون العقاب، وكان العقاب في المدارس في تلك

الأيام قاسيا، وعندما رآه المدير عفا عنهم لأجله، وسأل المدير عن السبب فقال له:

يحيى وثلاثة من الطلاّب كانوا دورهم في كنس وتنظيف الصف يوم الخميس، فبالوا في المحابر التي كانت موضوعة على مقاعد الطلاب، حيث كانوا ما زالوا يستخدمون أقلام القصب ويغطّون رأس القلم في المحبرة، لقد ملؤوا المحابر بولا بدل الحبر!

وكبر يحيى وأرسله للمدينة ليدرس المرحلة الثانوية، وكان فيها مدير معروف بقسوته وشدّته، وعلم مرّة أنه لم يذهب للمدرسة منذ أسبوعين، فأسرع للمدينة، ودخل إلى المدير، فرفض بشدّة أن يعيده للمدرسة، وهنا استخدم ذكاءه، وأثار عواطفه على أب لا يريد أن يخسر وحيده، وكل الأمنيات التي رسمها له، فقال له: أحضر لي تقريرا طبيا لأعيده.

مع شروق الشمس كان أبي يتمشّى في مزرعته، ثم عاد ليفطر مع عائلته، وهنا سأل يحيى: أين ستدرس الآن؟

فقال يحيى: في مصر، وسأدرس اللغة العربية.

فأجاب أبي: على بركة الله، ولكن يا يحيى، هذه جامعة وليست مدرسة، لن أكون قريبا منك لأشفع لك.

طأطأ يحيى رأسه وسكت، وكانت هذه طريقته عندما يعجز عن الجواب.

ذهب أبي لجمع بعض العشب لحيواناته وبدأ يفكّر، ابنتي زعيلة تزوّجت منذ زمن وقد سميتها زعيلة تعبيرا عن مشاعر "الزّعل" أو الغضب التي كنت أعاني منها عند ولادتها، ويحيى سيسافر لمصر، وسأبقى في هذه المزرعة الواسعة أنا وزوجتي، لقد أرهقها تعب الأيام، وموت الأبناء،

وفقدانها لأهلها، الذين هاجروا إلى لبنان وانقطعت أخبارهم، فماذا علّي أن أفعل؟

لقد فكّر كثيرا، ووجد الحلّ في زوجة جديدة، شابّة، تساعده في تحمّل أعباء الحياة، وتنجب له بعض الأطفال، فأوضاعه الآن جيدة، والظروف الصحيّة ممتازة، والوضع السياسي أفضل، وبحث في من حوله البنات حوله فتذكّر تلك البدوية الجميلة، من بدو فلسطين، وأبوها شيخ عائلته، وهم يسكنون في حيّ قريب، وكثيرا ما كانوا يترددون على بئره للحصول على الماء.

فقال في نفسه، فضة، شابة جميلة، وابنه شيخ كريم، وإخوانها معروفين بطيب أخلاقهم، فذهب ليخطبها، ولكن هي في العشرين، وهو على أبواب الستّين، رفض بعض إخوتها، ورفضت هي بشدّة، إلا أن أبوها، وبعض إخوتها، وافقوا على زواجه من ابنتهم.

لقد فكّروا بعقل: لا يوجد في عائلتهم من يصلح لأن يتزوّج فضة، وهذا رجل محترم، ومن وجهاء المنطقة، ومعروف بالكرم والجود، فأجبروها على الزواج.

ولكنّها لم تستسلم، لقد كان يذبح لها أفضل ما عنده من حيوانات، ويقدّم لها أطيب الصيد، وأطيب الثمار، فترفض الأكل، ولكنّها حملت، فصارت تصعد على شيء مرتفع وتقفز عنه لتسقط جنينها!

مسكين هذا الجنين الذي لا ترغب أمّه بقدومه، وما ذنبه؟

قديما كانت عندهم عادة وأد البنات، ولكن هي تريد إنزال جنينها مهما كان جنسه، لأنها لا تريد شيئا يربطها بزوجها، وكانت ما زالت تحلم أنه قد يطلّقها إن غضب عليها.

ولكن هذا الجنين هل سيعيش أم يموت قبل أن يكتمل؟

نسمع قصصا عن نساء حملن سفاحا وأسقطن أجنّتهن، ولكن فضّة حملت من زوجها، الذي يعتبر من وجهاء المنطقة كلّها، ولم يوصله إلى هذه المنزلة إلا سخاءه وشجاعته، ومن لا تحب أن يكون لها ولد من هذا الرجل الكريم؟

ولكن محاولات فضّة لإسقاط جنينها أو قتله باءت بالفشل،لأن له دور مهم في الحياة، فأنجبت طفلا ذكرا وسعدت به، وبدأت تنظر للحياة بنظرة جديدة، خاصة وهي ترى هذا الرجل الطيّب وقد تحمّلها كثيرا، وتلك الضرّة التي كانت مثل أمّها التي ماتت قبل أن تراها، وأطلق عليه اسم "محمد سعد" ، والاسم الأول محمّد من أجل أن يعيش، وهذا ما كان يفعله كثير من الناس حتى النصارى، وسعد لأنه مصدر السعد، ولد جديد، وكان سعدا على أمّه التي لم تقتله أو حتى تقتل نفسها بتلك التصرّفات الهوجاء، وسعد على أبيه الذي فرح به، وسعد على زوجة أبيه التي أحبّته مثل ابنها يحيى الذي تفتقده كثيرا.

وكان رأس سعد كبيرا وطريا، فكانت أمّه عندما تحمله تضع تحت رأسه قطعة قماش ليّنه، حتى صار بعض الناس يتندّرون بها، وانطلق لسان سعد سريعا، وهذا جعل الكلّ يحبّه، ورغم أنه لم يسمع كلمة ماما في حياته، ولكن يبدو أنه مبدع منذ الطفولة، حيث صار ينادي أمّه فضة بكلمة "يمّا" كما يفعل الآخرون، وينادي زوجه أبيه بكلمة "ماما"، وهذا جعلها تحبّه أكثر وأكثر، ولكن كان القدر يخفي الكثير لسعد، وربّما محاولات إسقاطه كانت السبب الرئيس الذي أدّى لفتق في الغدّة النخامية، وهو الذي تسبب بكلّ المشاكل الجسمية والصحيّة لسعد.

ثم أنجبت فضة طفلا آخر، أسموه زاهي، كان طفلا وسيما، ثم أنجبت بنتا أطلق عليها اسم زمهرير، لأنها ولدت في منتصف الشتاء حيث كان الجو قارصا.

والبنت الثانية ولدت في حرب الاستنزاف، واقترح أحد الرجال اسم "حربية"، ولكنّ رفض هذا الاسم لأنه ثقيل، فأطلق عليها اسما أقل ثقلا هو "نارة" والتي تم اشتقاقّها من إطلاق النار.

مملكة أبي!

عندما وعيت على الحياة، كانت مزرعة أبي تحوي كثيرا من الثمار، حمضيات، تفاح، رمّان، موز، وكان يزرع القمح والخضار، وكانت الشاحنات تمتلئ من مزرعته وتذهب لدمشق وبيروت، أما التين، وأنا أعشق التين، فكانت أشجاره ذات الأصناف المتنوعة مزروعة على ضفاف القناة المائية التي تجري بجانب المزرعة، هذا إضافة إلى مختلف الحيوانات، أبقار، قطيع من الغنم له راعي مخصص له، دجاج، أرانب، حمام، وكان أبي صيادا ماهرا، والطبيعة ما زالت غزيرة، وكنّا نتغذّى كثير من الأحيان على ما يصيده أبي، لقد كنت أعيش في مملكة واسعة، مزرعة كبيرة، كل شيء فيها لأبي، وكل من يتردد عليها يكنّ كل حب واحترام له،وبالتالي لأبنائه، لأنه كان كريما على الجميع، طيبا ودودا، يجيد المزاح ولو في أصعب الأوقات، وما بين يديه فليس له بل للجميع، كان يوضع غداءه فيرى من بعيد أثنين من تجار الأغنام يقصدون المزرعة المجاورة، فيمتنع عن الطعام في انتظارهم، مبررا الأمر لزوجته: فلان بخيل وسيخرجون من عنده جائعين، وينتظرهم حتى يخرجوا من عنده ويدعوهم للغداء معه، ويكون أمرهم كما توقّع.

أما البئر، فهي قصّة أخرى، لقد كانت بئر نبع يغذيها المجرى المائي القريب، وكان هناك عدة تجمّعات سكانية قريبة، ولم تكن شبكات الماء متوفرة، وكانوا في السابق يذهبون إلى وادي العرب على بعد بضع كيلومترات لإحضار ماء الشرب، ولهذا تحوّل كثير منهم لبئر أبي، ورغم وجود آبار كثيرة في المزارع المجاورة لم يكن أصحابها يسمحون للناس بدخولها، أما أبي فالأمر مختلف.

لقد كانت المنطقة المحيطة بالبئر مغطاّة بطبقة إسمنتية للحفاظ على النظافة، وكان هناك حوض إسمنتي واسع يورد الرعاة أغنامهم ليشربوا منهم، حيث كانوا يخرجون الماء من البئر بالدلاء ويصبّونها في مجرى مرتفع لتصب في الحوض، وكان البئر منطقة تجمّع دائم، يرتاده الكثير من الناس يوميا، وكان حديث الناس في الغالب عن آخر خطاب للرئيس المصري والذي كان يعتبر قائدا وزعيما لكل العرب في ذلك الوقت، وعندما يعلنون في الراديو أنه سيبث اليوم خطاب جديد له، كان الوضع وكأنه حظر تجوّل، كان أبي ينهي أعماله سريعا ويجلس أمام الراديو، ويغادر العمّال مبكّرا، ويتوقف كل شيء، لقد وعد عبد الناصر برمي اليهود في البحر، وقد اشترى أحد الميسورين جهاز تلفزيون، وكان أول تلفزيون في البلدة، وعندما أخبرني أبي عن التلفزيون قال لي: فلان الفلاني اشترى جهازاً يجعلك ترى جمال عبد الناصر وهو يخطب، لقد كان هذا أهم شيء يمكن أن يشترى التلفزيون لأجله!

صحيح أن أبي سخّر كل إمكانياته لتدريس يحيى، ولكن لم يسمح لزعيلة بالذهاب للمدرسة، رغم استطاعته المادية، ووجود مدرسة بنات قريبة، ولديه أسبابه التي قد لا نجدها مقنعة، ولكن بالنسبة له كانت

مهمة جدا، لأنه كان يخشى إن تعلّمت البنت القراءة والكتابة أن يرسل لها شاب رسالة والمصيبة الأكبر أن تردّ هي على رسالته برسالة أخرى.

كما أنه لم يسمح لها بتعلّم الخياطة في مشغل قريب للبنات، والسبب أن الخياطات كنّ يخطن سراويل الرجال أو ما يسمّى (بالشروال الشامي)، وكان له فتحة للتبوّل، وهذه هي المشكلة، لأنه كان يفكّر أن خياطة سروال وعمل فتحة سوف يجعل البنت تطرح تساؤلات عن السبب وراء هذه الفتحة، وهذا قد يكون له دلالات جنسية!

ويبدو أن أميّة زعيلة، وعدم تعلّمها أي مهارة جعلها تفرغ طاقتها بطرق أخرى مزعجة.

بركة الحجب والتمائم!

جاءت أختي زعيلة لزيارتنا، وقالت لأهلي: يجب أن نأخذ الطفلين إلى "سيدنا معاذ"، وهي تقصد ضريح الصحابي معاذ بن جبل للبركة من أجل أن يحفظهما، فذهبنا لذلك الضريح وأدخلونا إلى الحجرة التي فيها قبر الصحابي الجليل معاذ بن جبل وابنه، ثم جلسنا في الباحة الخارجية وبدأت النساء بالحديث، فجاء خادم الضريح وقال: الشيخ غضبان ألا تسمعن صوته؟

طبعا لم نسمع شيئا لأن الأموات لا يصدرون الأصوات، ولكن النساء صدّقن كذبه، وكان المطلوب هو إعطاء بعض النقود لهذا الخادم حتى يرضى الشيخ ويهدأ غضبه، واشترت أمي قطعة قماش خضراء هدية للضريح، ثم قامت بقص أشرطة من قطعة سابقة كانت هناك وعلّقتها على رقابنا، وجاء رجل وذبح خروفا تقرّبا.

ثم نزلنا إلى البلـدة، إلى الـشيخ الرفـاعي، وكـان رجـلا كـبيرا في السن، ورجله مقطوعة، ولديه "مكتب" في وسـط الـسوق لكتابـة الحجـب، فكتب لكل واحد منّا، أنا وأخي حجابا، وغلّفـت أمـيّ الحجـابين بـشمع العسل، وثبتتهما بدبابيس على ثيابنا، قريبا من الرقبة، وكان هذا الحجاب مصدر إزعاج لي خاصة عند النوم، وبعد فـترة اسـتطعت الـتخلّص منـه، أما شريط القمـاش الأخـضر علـى رقـبتي فقـد أتـسخ بـسرعة ووجـدت صعوبة في إقناع أمّي لتمزيقه.

الختان، مشاعر مختلطة

بعد بضعة سنوات كبرت أنا وأخي، حيث تجاوز عمري الخمـسة سنوات، وقرر أبي أن الوقت قـد حـان لختاننـا فأحـضر كبـشين كـبيرين، وكثير من الحلوى، ودعا أقاربه وأصهاره وجيرانه وأصدقائه، وكـان حفـل كبير مثل العرس، ولكن ماذا عنّي؟

كنت أعرف مـا معنـى الطهـور "أي الختـان"، وأنظـر لأبنـاء عمـي وأقاربي يلعبون، والطعام صار جاهزا، وغرفة زوجة أبي مليئـة بالرجـال، وفكّرت بالهرب، ولكن قلت في نفسي: هذا الشيء لا بد منه، والهـرب لا يجدي نفعا، وأبي سعيد جدا ولن أفسد سـعادته بالبحـث عنّـي، وانتبهـت على صوت ابن عمّي يناديني، فمشيت نحوه، و "سلّمت نفسي" له، فأخذني بكل لطف وحذر وسـلّمني لخـالي، الـذي حملـني بـين الرجـال في الغرفـة المكتظّة، وسلمّني للمطهّـر، وعنـدما بـدأت أشـعر بـالألم، صـرت أصـرخ وأشتم الاثنين.

حملوني لغرفة أمّي، وامتلأت الغرفـة بالنـساء يغـنّين لـي، وأنـا لم يكن يهمّني إلا ما أشعر به مـن ألم، وأعطـتني زوجـة عمّـي نـصف دينـار

كنقوط، وهي تعادل أجر عامل ليومين كاملين، صحت بها نزقا: اذهبي عنّي، وعندما برد الألم أحسست بندم شديد لأني خسرت هذا "المبلغ الكبير جداً".

أول يوم في المدرسة

كنت متحمّسا كثيرا للذهاب للمدرسة، وهي مدرسة ابتدائية حكومية، وغرفها من الطين، ولكن كان بها حديقة جميلة، وكانت المدرسة تقع في البلدة القريبة على بعد 3 كيلو من المزرعة التي أعيش بها، وفي اليوم الأول للدراسة، أخذني أبي للحلاّق حيث حلق شعري، ثم اشترى لي صابونا وغسل رأسي على المجرى المائي القريب من المدرسة، ودخلت الصف، وقال لي سأعود قريبا، ولم يعد في ذلك اليوم، وعدت لوحدي، وكانت هذه أول مرّة في حياتي أسير كل هذه المسافة وحيدا.

لقد كان المعلّم في غاية اللطف، وكان بعد وقت الدوام في المدرسة ناشطاً في المنظّمات الفلسطينية، وهو الآن من الزعماء الفلسطينيين المعروفين.

كنت أصحو صباحا، وأجد أن أميّ قد حلبت البقرة، وأشعلت النار بالحطب في ساحة البيت، ووضعت القدر الكبير على النار، فأشرب الحليب، ويأخذني أبي للطريق القريب، لعلّه يجد أحدا يوصلني، كنت أركب أحيانا على حصان مع صديق ذاهب للبلدة، أو جرّار زراعي، أو يوصلني أخي يحيى على دراجته الهوائية، أو يوصلني أبي على حماره أو بغلته.

أثناء العودة كنت أسير ماشيا، ولكنّي كنت أحيانا أجد أبي بانتظاري على حماره أمام المدرسة، وكان عنده عربة تجرها البغلة، وكنت أحيانا أركب فيها، وكانت تعتبر أحسن من سيارة مرسيدس هذه الأيام.

أيام الحر كان معي مظلّة أحملها لتحميني من أشعة الشمس، وكنت "أغنى" طالب في المدرسة، كان أبي يعطيني قطعة نقدية من فئة خمسة قروش كل بضعة أيام، وكانت تعتبرا مبلغا كبيرا، لأني بنصف قرش أشتري دفترا، أو كمية كبيرة من التمر، وبقرش ونصف أشتري شطيرة فلافل.

الطريق من البلدة للمزرعة كانت خالية غالبا، حيث يوجد تجمّع سكّاني على التلّة فوق الطريق تسكنه عائلة أمّي، وتجمّع آخر بعده تقريبا، وغالبا لم نكن نصادف إلا القليل من الناس، بعض الطلاّب مثلنا، وشيخ ذاهب للبلدة على حماره لشراء بعض الأغراض، أو امرأة تسير على قدميها تذهب بطفلها إلى ممرّض يدعى صبحي، لأنه نادرا ما كان يوجد طبيب.

كنّا نصادف الكثير من الكلاب الضّالة، ولكنها لم تكن تخيفنا لأننا بمجرّد أن نرفع في وجهها عصا تهرب مبتعدة، إلا أننا كنّا نخاف من الإوز ومنقاره الذي يشبه المنشار، حيث كان يربيّه بعض الناس في طريقنا، كان يقضي معظم وقته في المجرى المائي القريب، كما كنّا نسمع أحيانا صوت الثعالب، وكان يطلق عليه الناس اسم " ضابوحا" ، وحقيقة لم أكن أعرف ما هو الثعلب وكيف شكله، ومدى خطره، ولكن بمجرد سماع هذا الصوت "الضابوحا" كانت ترتعد فرائصنا.

وعندما كنت أملّ من الطريق كان أمامي خيارين، إما أن أذهب لبيت عمّي، وخاصة عند أبن عمّي عابد الذي أحبّه كثيرا، وكان في وقتها

يدرس في الجامعة انتسابا، ولكن نشأت بيننا صداقة حقيقية رغم الفارق الكبير في العمر، وكثيرا ما كان يرسل أخته الصغيرة التي تكبرني بعامين لتنتظرني على الشارع لتأخذ بي إلى بيتهم حيث تقول لي: عابد ينتظرك، وكنت أحيانا أقضي عندهم أسبوعا وأذهب من بيتهم للمدرسة دون أن أخبر أهلي، لقد كان الأمان سائدا، وكان يسكن قرب بيت ابن عمّي هذا عدد من الأقارب والأعمام، وكنت أحبّ أن أتعرّف على الجميع، وكنت أجلس مع الكبار لأسمع منهم، أريد أن أعرف ماذا يقع خلف هذا الأفق المحدود الذي أراه، وكان أغلب حديثهم عن حياتهم في فلسطين قبل الهجرة، ومن الأحداث التي ما زال أبناء وبنات عمّي يتذكّرونها عنّي، أنني كنت أرسم الأشياء، أي الأدوات التي كانوا يستخدمونها في تلك الأيام، ولكن لم أفكّر يوما برسم الناس، ولا يمكنني ذلك.

ومن أطرف ما شاهدت في تلك الفترة أن أبناء عمّي حفروا مغارة بجانب البيت، لقد كان البيت مبنيا على سفح جبل، والغرف مبنية على ارتفاعات مختلفة، وكان عندهم غرفة هي الأعلى في البلدة كلّها، وبجانبها بدؤوا بحفر مغارة، ولكن تبّين وجود مغارة قديمة في المكان ولكنّها مليئة بالحصى، فأزالوا الحصى، وشاركتهم أنا أيضا، ووجدنا أكثر من 30 قطعة فخارية من أطباق وقدور وغير ذلك، وقد احتفظوا بها لأيام ليقرروا ماذا سيفعلوا بها، وأخيرا قرروا إتلافها حتى لا يقعوا في مشكلة مع الحكومة، ولكن أخي يحيى اخذ طبق صغير وباعه في المدينة بمبلغ جيد.

وأحيانا كنت أذهب لبيت أخوالي، عند خالتي الكبيرة والحنونة سعدة وكان هناك عدة خالات وأخوال لم يتزوّجوا بعد، وأحدهم معلّم

في مدرسة البلدة، حيث كان يركّبني على دراجته النارية ويأخذني للمدرسة، وهذا كان يريحني من المشي تلك المسافة الكبيرة.

وكانت أسماء، إحدى قريبات أمي، جميلة وخفيفة الظل، وكانت تصغرني بعام، وكنت أسعد باللعب معها والحديث، لقد كان حبّا طفوليا بريئا.

وبيت أخوالي بيت خير وعزّ، لقد كنّا في الصيف نلهو على بيادرهم، لقد كان للقمح بيادر، وكذلك للشعير، والعدس، والفول، والحمص، والحلبة، وغيرها، لكل منها بيدر أو عدة بيادر، وكانت متعتنا أن يسمحوا لنا بالركوب على لوح الدراس وهو يدور فوق البيدر، وهذا اللوح مصنوع من الخشب، ومثبت في قاعدته قطع مدببة من حجر الصوّان، ويجرّه حمار أو حصان، ليدور فوق البيدر من أجل تحطيم القش وإخراج الحبوب، وهذا غير قطعان الحيوانات التي كانوا يملكونها من كل الأنواع، وكان جدّي يطعم كل فقراء الحي، ففي المساء عندما تحلب الأبقار والأغنام، كانت كل عائلة فقيرة ترسل وعاء لأخذ حصّتها من الحليب، حتّى أنه لم يكن يبقى شيء لأهل البيت في بعض الأحيان.

ولنعد لأسماء، كانت من أكثر الأسباب التي تدفعني للبقاء في بيوت أخوالي، حتى أن إحدى خالاتي غضبت منّي مرّة لأني فضّلت أن أبيت في بيت أهل أسماء ولا أبيت عندهم، فقالت مغضبة: نعم معك حق، ليس عندنا أسماء، وأذكر يوما أنني قضيت معها وقتا شاعريا جميلا، حيث كلّفتنا أمّها أن نأخذ دلوا ونجمع قطع الحطب الصغيرة، ومخلّفات الأبقار والأغنام الجافة لتشعلها في الموقد وتخبز عليها، وحملنا الدلو أنا وإيّاها، وبدأنا نمشي في تلك الطبيعة الجميلة الهادئة، التي لم يكن بها إلا أنا وأسماء، أو هكذا كنّا نشعر، نجمع مخلّفات الحيوانات الجافّة، وكان

شعورا رائعا، فأي شيء مع أسماء كان له قيمة كبيرة عندي، ولو كنت أجمع الأزهار لما كان هناك فرق يذكر، المهم وجودي مع أسماء.

عرس خالتي

في أحد الأيام ذهبنا في عربة أبي الفاخرة بمقاييس تلك الأيام والتي يجرّها حصان إلى بيت جدّي استعدادا لزواج خالتي من قريب لها.

تمّت مراسم الاحتفال في النهار، وعند الغروب، بدأت الزفّة، مشيا على الأقدام حيث بدأ الظلام يخيّم على المكان، ومشينا نحن والعروس نحو بيت العريس وقطعنا واديا صغيرا وهناك جلس العروسين في غرفة يوجد بها مصباح كاز صغير، وصارت النساء تغنّي، وبالكاد يستطيع الناس أن يروا بعضهم البعض، وتم توزيع صرر من الورق مليئة بالحلوى.

كان ذهابي لزيارة أخوالي مصدر سعادة لي، لقد كانوا يسكنون هم وأقربائهم في تجمّع سكاني واحد لا يشاركهم به غيرهم، وكان جدّي هو شيخهم وكبيرهم، وعندما كنت أتنقّل بين البيوت وأزور الجميع كنت أجد كلّ احترام، مع أنني طفل صغير، لأنني أولا حفيد شيخهم، وابن الرجل الذي يحبّونه ويحترمونه حتى قبل أن يصاهروه، أبو يحيى، وكذلك لأني كنت ذكيّا، وأبادلهم كل الحب.

ما كان يحدث تلك الأيام لا يمكن تصديقه الآن، تجمّع أخوالي يبعد حوالي كيلومتر واحد عن مزرعة أبي حيث نقيم، ولكن عندما نزور أخوالي، وأحيانا لبضعة أيام، يضعون برنامجا لدعوتنا على الطعام، الغداء في بيت جدّي، والعشاء في بيت خالي الكبير، ثم الذي يليه، وربّما وصل الدور إلى بيوت غيرهم من عائلة أخوالي.

وأثناء إحدى الزيارات كان طعام الغداء في أحد البيوت، وعندما دخلنا رأيت في وسط الغرفة طبق واسع يوجد به كمية كبيرة من الشعير، وكان مع أحد الحضور كتاب أصفر صغير اسمه "مولد العروس" وبدأ أحد الرجال يقرأ به والآخرين يرددون وراءه، وكل منهم يحرّك الشعير على فترات، من "أجل أن تصل البركة لكل الشعير" ، وكان أحد الرجال يرتدي خاتما ذهبيا كبيرا، فخلعه ووضعه فوق الشعير، قائلا: هذا الخاتم شارك حتى الآن بخمسة موالد، ولهذا أتبرّك به، وأستخدمه لعلاج أبنائي عندما يمرضون، حيث يحرّك الخاتم فوق رأس المريض، وبعد قراءة هذا الكتاب، يتم توزيع الشعير على الحضور، حيث يتم تبخير المريض بهذا "الشعير المقري" فيشفى!!

ولأنه لم يكن لديهم شبكة مياه، ويجلبونها على الحمير، كان حلمهم أن تقوم الحكومة بإيصال المياه لهم، وكنت أحاول تحقيق هذا الحلم، بطريقتي، حيث كنت أجمع بعض أعواد القصب التي تشبه الأنابيب وأعمل شبكة مياه تصل لبيوتهم، وكان هذا يسرّهم، ويتفاءلون به، ولم يمض وقت طويل بعد هذا إلا والماء يصل إليهم، لقد وضعوا صنبورا متوسطا بين البيوت وكل من يحتاج يحمل أوانيه ويملأ منه، لقد كان ترفا لم يحلموا به من قبل.

أما خالي المعلّم، فكان لديه إبداع آخر، كان يريد أن يكون في حمّامه دش ماء حار، فأخذ وعاء معدني وركّب له أنبوب وأوصله مع رأس الدش الذي ينزل الماء، وثبّت تحته مصدر حراري صغير يعمل بالكاز.

حياتي الجديدة خارج المزرعة

عندما ذهبت للمدرسة في البلدة القريبة، أو عندما كنت أرافق ابن عمّي عابد بدأت أستكشف الحياة المدنية في ذلك الوقت، لقد كانت نسبة كبيرة من الناس من اللاجئين، وبعض الناس من البدو الرحّل الذين بدؤوا بالاستقرار، وفي السوق كانت الأفران ما زالت تعمل على الحطب، حيث كان بجانب الفرن كومة كبيرة من الأشجار المقطوعة، ولهذا كان الخبز شهيا، وكانت النساء تأخذ العجين إلى الفرن وكذلك صواني الطعام، وكل عائلة تدفع اشتراك شهري للفرن لقاء هذه الخدمات، وكان أبو حسن الفرّان، يعرف كل أخبار البلدة، حيث كانت تجتمع النساء في انتظار أدوارهن ويتبادلن الحديث، ومن الطريف أن امرأة مسكينة كانت حامل، وقد سألوها مرّة متى بدأ الحمل؟ فقالت: لا أذكر، ولكن اسألوا الفرّان أبو حسن!

في رمضان كان يجلس الفقراء وبعض الأولاد في طريق الفرن لعلّهم يحصلون على شيء من الخبز والطعام.

سقوط القدس وحرب الاستنزاف

منذ طفولتي كنت أستمع لأحاديث الكبار، وأسمع منهم أن الذي يعاني من مشكلة في عينيه يذهب للقدس لأن هنالك مستشفى خاص بالعيون، كما أن الحجّاج كانوا بمجرّد عودتهم من الحجاز يذهبوا للقدس قبل أن يعودوا لبيوتهم لزيارة المسجد الأقصى، وكان يقال عن هذا العمل "التقديس" نسبة للقدس، حيث كنت اسمعهم يقولون: ذهب الحجّاج ليقدّسوا ويعودوا.

كما أن طلاّب المدارس كانوا يذهبون برحلات إلى نابلس والقدس وأريحا، وكان لي قريب يعمل شرطيا في نابلس ويعود كل أسبوع، وباختصار كانت مدن الضفّة قريبة، وجزء من حياتنا اليومية، حتى جاء ذلك الصيف.

لقد أكملت الصف الأول، وفي أحد أيام العطلة الصيفية كنت عند أخوالي، وكنت اسمع صوت الراديو مرتفعا والكل يتابعه باهتمام شديد، وكان هذا هو الراديو الوحيد في الحيّ، وفي كل ليلة كان يأتي الجميع للاستماع للأخبار وبعض الأغاني، ولنعد لذلك اليوم، السادس من حزيران، لقد كانت المذيعة في إذاعة رام الله تصيح بنساء الضّفة الغربية : "بسكيّن المطبخ دافعي" وماذا يصنع سكيّن المطبخ، والجيوش العربية انسحبت سريعا، لقد سقطت القدس، ومدن الضفّة الغربية، وحتى الآن ما زال شباب فلسطين ونساءها يستخدمون سكيّن المطبخ في مقاومة العدوّ الغاصب، بل إن أحد الأبطال عندما سأله القاضي الإسرائيلي: لماذا هجمت على الجندي بالسكيّن؟

فقال له ساخرا: لأني لا أملك ثمن مسدّس!

بعد إعلان سقوط الضفّة الغربية، وزهرة المدائن، القدس بدأ الناس بالبكاء، وفي عصر ذلك اليوم شاهدنا عشرات من الطائرات المروحية الإسرائيلية تطير نحو الجنوب، نحو القدس، حيث عرفت لاحقا أنها حملت قادة إسرائيل للاحتفال بانتصارهم في القدس، وفي ذلك اليوم عدت للبيت، فوجدت أبي وزوجته جالسين في ساحة البيت، والحزن يخيّم عليهم، كان السواد يغطي كل شيء.

وكان الناس يخشون أن يدخل جيش العدوّ في أي لحظة، ولهذا كانوا يحاولوا أن يستعدّوا بالإمكانيات القليلة التي بين يديهم، وكانت

النساء تفكّر وتستشير في كيفية إخفاء الذهب الذي معها، لأنـه قـد يـسرق منها في حالة الحرب، واختارت أميّ أن تخفيه في الجزء الأسفل من ثوبهـا، حيث تثني القماش وتضع الذهب في الوسط وتخيطه، وحديثهم هـذا كـان يشعرني بالخوف.

وبعد نهاية العطلـة ذهبـت للمدرسـة كعـادتي، وفي أحـد الأيـام شاهدت التوتّر يخيّم على الجميع، وبعض الناس جاؤوا لأخـذ أولادهـم، فأحسست أن في الأمر شيئا مخيفا، فتركت المدرسة دون أن استشير أحـدا، وعدت للبيت، وفي الطريق مررت على معـسكر للجـيش يبعـد اقـل مـن كيلومتر واحد عن بـيتي، وشـاهدت الجنـود في الخنـادق وأمـامهم مـدافع الهاون، فأسرعت للبيت، ووجدت أن أبـي قـد اسـتأجر قريـب لنـا لحفـر خندق في الأرض، مجرد خنـدق في التربـة الحمـراء، ووضـعنا عليـه لـوح خشب لتغطيه نصفه فقط، وبعد قليل بـدأ قـصف الطـائرات الإسـرائيلية للمعسكر، وكنّا نشعر وكأن القنابل تسقط عندنا، وكنـا نجلـس في الخنـدق نراقب الطائرات وهـي تـأتي مـن الـشمال الغربـي وتلقـي القنابـل علـى المعسكر المجـاور، وأذكـر في ذلـك اليـوم أنـه قتـل قائـد المعـسكر منـصور كريشان في سيارته العسكرية وعـدد مـن الجنـود، علـيهم رحمـة الله، وقـد شاهدت السيارة وزجاجها مكسّرا ومغطّى بالدماء.

بعد يومين عدت للمدرسة، وسألني بعض الطلاب: أتعـرف أيـن يقع المعسكر؟ فقلت بالتأكيد، فرافقوني للمعسكر ودخلنـا ووجـدنا كـثيرا من الرصاص وعلب الرصاص ملقاة على الأرض، فجمعنـا بعـضه، وإذا بأبي يمرّ على حماره قادم لأخذي فركبـت خلفـه، وأخفيـت الرصـاص في جيبي، وفي البيت ناديت أخي وأريته "الثروة التي أحـضرتها" ، فكـشف أبـي أمرنا، وأخذ الرصاص ودفنه بعيدا.

صباح يوم 21-3-1968م جاء رجل من البلدة المجاورة، كان من أغنى الناس هناك، لديه سيارة شاحنة، وعددا من سيارات الخصوصي، كان عنده ملجأ محصّن، وقد كان في صباه فقيرا يعمل عند أبي، وطلب من أبي أن يأخذنا لبيته لأنه أكثر أمنا من المزرعة، ولوجود الملجأ، بالنسبة لي كان هذا ممتعا، عنده عدد كبير من الأطفال سألعب معهم، وفي البلدة دكاكين يمكن أن أشتري منها، وبيته قريب من بيوت أعمامي، وشاهدت الناس مدنيين، وعسكريين، وفدائيين، يركبون في الشاحنات الصغيرة وينطلقون نحو الجنوب قاصدين بلدة الكرامة، حيث دخل الجيش الإسرائيلي لاحتلال تلك المنطقة، وفي العصر نزل خالي عيسى من الجبل وهو يحمل جهاز اللاسلكي الثقيل معه، يقول: أنا وزميلي منذ أمس في الجبل ولم يصلنا أي طعام، فأعطوه وعاءا كبيرا مليئا باللبن وبعض الخبز، وعاد للجبل، في اليوم التالي فرح الناس بانتصارنا على اليهود، حتى أن بعض الناس ذهبوا إلى موقع المعركة وشاهدوا دبابات اليهود المدمّرة.

الخروج من الجنّة!

نتيجة لفقدان الأمن، والقصف المتكرر لطائرات العدو على كل شيء يتحرّك، بدأ الناس في الهروب من المنطقة، وخاصة أنها قريبة من الحدود، وقد تتعرّض للاحتلال، ولكن أبي رفض رفضا قاطعا، لقد خسر أرضه في فلسطين، وهذه الأرض تعب من أجلها الكثير ولن يتركها، وبقينا وحدنا في المنطقة، فصار الناس يحاولون أن يقنعوا أبي بالرحيل قائلين له: يا أبا يحيى، لقد رحل الجميع إلا أنت، وإذا بقيت سيقال أنك جاسوس لليهود، وهنا لان أبي، ولكن قليلا.

وفي إحدى ليالي فصل الشتاء، جاء بعض أخوالي، وأبناء عمّي واستغلوا خروج أبي للسهر عند قريبه في المزرعة المجاورة، ووضعوا كل شيء في الشاحنة، الأثاث، وحتى أدوات المزرعة، وجاء أبي أخيرا، فقبل بالأمر الواقع، وقال: لا تذهبوا بهم لإربد، وأختار لنا بلدة قريبة، هي الآن من أجمل وأرقى القرى في العالم.

ولم أكن أعلم أن ذلك اليوم هو نهاية ذلك الفردوس الجميل الذي عشت به طفولتي، وبداية لحياة صعبة وقاسية جدا، وخاصة عليّ.

بعد الهجرة

لم يكن هناك بيت يتّسع لأميّ وأبناءها، وزوجة أبي وابنها، ولكن وجدوا غرفة لأمي في بيت، وعلى بعد 100 متر غرفة لزوجة أبي في بيت مجاور، وبعد أسابيع اشترى أبي بيتا فانتقلنا إليه.

أما الماء فكنّا نشتريه من أصحاب الآبار، حتى أن أختي الصغيرة حملت معها يوما إبريقا صغيرا وذهبت مع أمي، وشاهدتها العجوز صاحبة البئر وغضبت، آه لقد كنّا نسقي عدة قرى صغيرة من بئرنا هم وأغنامهم، وبكل ترحاب، والآن طفلة صغيرة لا يمكنها أخذ حفنة من الماء!

كان العام الأول لي في هذه البلدة قاسيا، فالجو أبرد من جو المنطقة التي عشت بها، ولم يكن لدينا إلا مدفأة قديمة بالكاد تدفئ نفسها، ولا نرتدي إلا كنزة خفيفة، ولم تكن تتوفر الجاكيتات التي تتوفر الآن، والرفاهية التي عشتها في طفولتي في المزرعة فقدناها، فأبي صار كبيرا في السن، والمزرعة لم تعد تنتج مثل السابق، والمعاونون الذين كان يضعهم أبي في المزرعة كانوا يسرقونها ولا يبقون لنا إلا القليل، وأيضا يذهب

جزء منه ليحيى ليكمل الدراسة الجامعية، مع أنه كان موظفا في تلك الفترة، وراتبه له، وباقي المبلغ كان يحلّ به أبي مشاكل عائلتنا الكبيرة، وما أكثرها، ولهذا كنّا نرتدي ثيابا من التي توزّعها علينا الوكالة، ومن شدّة البرد، وقلّة الثياب، كنت أتغيّب عن المدرسة في الشتاء، وجاء طلب لأبي من مدير المدرسة، فأخذني معه، ودخلنا غرفته الدافئة بمدفأة السولار، وتمنيّت لو أن عندنا مثلها، وشاهدت على الجدار لوحة مكتوب عليها "من طلب العلا سهر الليالي" ، وهذه الجملة كان يرددها أبي كثيرا، فحفظتها وجعلتها شعارا لي، وسألني المدير بكل حنان: لماذا تتغيّب عن المدرسة يا سعد؟ فقلت له أنا أقرأ في بيتي ما يشرحه المعلّم في الصف، فردّ عليّ المدير مبتسما، ومشجّعا: أنا أعرف أنك ذكي، ولكن لهذا نريدك أن تواظب على الدوام، لأنه يأتينا زوّار من الوكالة، ونريد أن نقدّم لهم طالبا ذكيّا، فوعدته أن أحافظ على الدوام، رغم أنني أعرف ما الذي سأواجه، لقد عانيت من حذائي، حذاء بلاستيكي، بدون جوارب، يكون في البرد قاسيا، والطرق غير معبّدة، فيعلق في الطين فأضطر لخلعه وإكمال طريقي حافيا، وفي أحد الأيام وزّعوا علينا ثيابا قديمة في المدرسة، وكان حصّتي جاكيت كبير، يصلح لرجل طويل سمين، ولكنّي فرحت به، وصرت "ارتديه" إلى المدرسة فقد كان دافئا.

جراح مؤلمة في انتظاري!

عندما دخلت المدرسة شعرت أنني أصغر حجما وأقلّ طولا من باقي الأولاد، ولم يكن هذا الأمر يزعجني كثيرا، ولكن عندما أنهيت المرحلة الابتدائية كان الفرق واضحا بيني وبين الآخرين، فبدأت رحلة المعاناة والعلاج.

لقد صار بعض الأطفال يسخرون منّي بسبب قصري، وحتى بعض الكبار، رجالا ونساء، بل وبعضهم كان يحاول أن يعتدي عليّ، ويضربني، وتعوّدت أن أستخدم "القوّة المفرطة" من أجل أن أحمي نفسي، ولا أفكّر في النتائج، حتى أن أحد أصدقائي ارتكب خطأ غير مقصود معي فضربته بحجر فشججت رأسه، وبعد أربعين عاما التقيت به فأشار إلى أثر جرح في جبهته وقال: هذا بسببك، أتذكر هذا؟ قلت نعم، أنت تعرفني وتعرف كيف كانت ظروفي، فقال: نعم إنّه خطأي.

إضافة لأذى الناس وسخريتهم من قصري، كانت بعض أقوال الناس تحزنني، وأوّل الأحداث وأشدها تأثيرا علّي، ما حدث معي وأنا صغير، حيث كنت ألعب مع أبناء عمّي، وكانت امرأة شابة، وجميلة، ومتزوّجة حديثا، وسعيدة بحياتها، ولكن بعض الناس لا تكتمل سعادتهم إلا بإيذاء الآخرين، حيث نادتني وقالت لي: أنت لن تعيش إلا لعمر 15 عام ثم تموت!

حزنت ولكنّي تجاهلت، فقامت زوجة أبي، أمّ يحيى، فعنّفتها وأهانتها بشدّة، وأشعرتها بسوء صنيعها، فغادرت، ولم أرها منذ ذلك اليوم.

وفي ساحة المدرسة كنت أجلس مع بعض الأولاد، وكل منهم يقول: في المستقبل أريد أن أكون كذا، فجاء دوري وقلت: في المستقبل، فأسكتني أحدهم وقال لي: ليس لك مستقبل، أي ستموت مبكّرا، وكانوا يحددون سقف 15 عاما كحد أعلى لحياتي، وكأنّهم يعلمون الغيب.

المشعوذ والأمل الكاذب!

شعر أهلي أن وضعي يحتاج لمراجعة الأطباء، أخـذوني لمستـشفى في المدينة، وأجروا لي عدة فحوصات، وأعطوني بعض الفيتامينات!

جاءت جارة عجوز تنصح أهلي، قالت لهم: زوج ابنتي لديه محـلّ في المدينة، وهو شيخ يعالج الناس، لم يقتنع أبي بالأمر، ولكن بعـد إلحـاح العجوز أقنعت أميّ وزوجة أبي، وضغطن على أبي ليأخذني لهذا الـشيخ، فأرسلت أمـيّ للعجـوز لتخبرهـا أن ترافقنـا لعنـد الـشيخ، فقالـت: الآن رمـضان والجـن مقيّـد، ولكـن لا يهمّكـم، الجـن الـذين يتعامـل معهـم مسلمون، لقد سمعت هذا من فم تلـك العجـوز، وحقيقـة فـضولي كـان يدفعني لأن أتمنى أن يأخذوني لذلك الشيخ، وبعـد العيـد، وكمـا نـرى في الأفلام، دخلنا إلى غرفة طينية يجلس فيها رجل كبير في السن أمامـه وعـاء به نار يلقي به البخوّر ويصرخ، وعلب يضع فيها كثير من لفافات الـورق الصفراء، وأخبره أبي عن حالتي، فكتب لي ورقة وقال هذه انقعوها بالمـاء وليشرب منها، وورقة ثانية قال عنها: ضعوها في الماء الساخن وبخّروه بـه، وفعلا سخّنت أمي وزوجة أبي المـاء ووضـعن الورقـة بهـا وبخّـرنني بهـا، وحاولت أن اشـرب مـن المـاء المليـء بـالحبر الأزرق ولكـن طعمـه كـان مقززا، ولم تكن هذه آخر محاولات علاجي، ولكنها ستستمر طويلا.

بعد فشل هـذه المحاولـة المهمّـة في علاجـي كـان لأخـتي الكـبرى زعيلة رأي آخر، فهي عندما عرفت بما حـصل جـاءت تزورنـا واقترحـت على العائلة إخراجي من المدرسة لأنـه لـيس لـي مـستقبل، وحاولـت أن تغريني بخدعة سخيفة لم تنطلِ عليّ، حيث وعدتني بفتح دكـان صـغير لـي في زاوية من البيت، وعندها يمكنني أن آكل كل ما أريد مـن الأشـياء الـتي

تباع في الدكّان، فرفضت، ولكن بطريقة ذليلة، لأنّي أعرف حدّة طبعها إن غضبت، ولهذا حاولت أن لا أغضبها قدر الإمكان.

مشكلة زعيلة، وبعض أفراد العائلة هي الكبر، فهم أبناء أبو يحيى كبير عائلته، وكلّهم يتمتّع بالكثير من مواصفات الجمال إلا أنا، لأنني قصير وضعيف، وحظّي من الجمال قليل، ولهذا اعتبروني مصدر عار للعائلة، وقد تولّى كبر هذا القرار زعيلة، وكانت زعيلة تقول لهم، وقد صدّقوها جميعا، وأخذوا برأيها، وصدّقوا أنّ وجودي في العائلة سوف يحرم أبناءها وبناتها من الزواج، لأن الناس لن يزوجوا عائلة فيها شخص قصير مثلي خوفا من إنجاب أطفال قصار القامة، مع أن مشكلتي غير وراثية.

ولم تتوقّف زعيلة عن مكرها، إذ كانت ترى أن يتم حرماني من ورثة أبي، لأني سفيه لا يعرف كيف يستخدمها، وقد يخدعني بعض الخبثاء ويأخذونها منّي، وبذلك تفقد العائلة جزءا من أرضها "المقدّسة".

سهرات مخيفة

في تلك الأيام لم يكن هناك كهرباء أو تلفزيون، وكانت تسليتنا في الليل هو حكايات جارتنا الحاجة عصرية، كنّا ننتظرها ونراقب الطريق حتى نضمن أن تأتي إلى بيتنا وليس لبيت أحد الجيران، وتختار إحدى الحكايات التي تدور غالبا حول الغولة، وأثناء الحديث تأخذها غفوة لبضع دقائق، وهي تشبه الفاصل الإعلاني هذه الأيام، ونتسمّر حولها حتى تفيق، وتسألنا أين وصلت؟ فنخبرها وتكمل القصة.

أحيانا كانت تذهب لبيت جيراننا، وكنّا نغضب كثيرا ونتساءل فيما بيننا هل ارتكبنا خطأ في حقّها أمس؟

ولكن هي تريد توزيع خدماتها على الجميع بعدالة، وكنّا نجلس بجانب السور في محاولة لسماع الحكاية، وعندما نذهب للنوم، والظلام يشتد كان الخوف يسيطر علينا فربّما جاءت هذه الغولة لتأكلنا، وقد حدّثتنا مرّة عن عائلة تحوّلت البنت الصغيرة فيها لتصبح غولة تأكل أغنامهم في الليل، ولم نجرؤ على سؤالها عن سبب هذا التحوّل، وكيف تحوّلت، خوفا من إغضابها وحرماننا من حكاياتها، ونتيجة لهذه المعلومات المنقوصة صرنا نظنّ أن تحوّل الإنسان إلى غولة أمر شائع، وصرت أشكّ في أن أختي نارة ستكون غولة عندما تكبر، وربّما تقوم في الليل وتأكلني، وكنّا نظنّ أن الأودية التي تحيط بالبلدة مليئة بالغيلان.

أنا وزينة!

كنت في المدرسة طالبا يشار له بالبنان في مجال الدراسة والمطالعة وكتابة الشعر وإلقاء الكلمات الصباحية، إضافة لتميّزي الآخر، وهو صغر حجمي، وشكلي الطفولي، ولهذا كان كثير من الناس، يريدون أن يعرفوا هذا الشخص، وهو أنا.

وأنا في المرحلة الإعدادية وقبيل امتحانات نهاية العام جاءت مديرة مدرسة البنات لطباعة الأسئلة، وأسمها زينة، وهو اسم على مسمّى، باهرة الجمال، ترتدي لباسا لا يناسب ذلك العصر، يكشف الكثير من جسمها، ولهذا كان الطلاب الكبار المراهقين يعتبرونها رمز الجمال، رغم أن التبرج لم يصل للقرية بعد.

سألت زينة معلّم العلوم وهو المسؤول عن المختبر وآلة الطباعة عنّي، وحدّثها عن نشاطي العلمي فطلبت أن تراني، دخلت إلى المختبر، أوقفتني أمامها مباشرة، وتقريبا بين ساقيها، ووجهي مقابل لصدرها

المكشوف جزء كبير منه، وتقريبا كنت في حضنها، واستقبلتني بودّ واحترام، وكثير من الحنان، وطرحت عليّ بعض الأسئلة، وكل هذا لم يهمّني، حيث كنت أجيب على أسئلتها وأنا أسترق النظر لآلة الطباعة اليدوية، وحفظت أهم الأسئلة، وكانت مادة الجغرافيا للصف التاسع، وبمجرد أن خرجت، قلت للطلاب، من كانت له أخت في الصف التاسع، فليأت إليّ، وأعطيتهم الأسئلة التي حفظتها.

ولكن الطلاب الكبار كان لهم رأي آخر، سألوني عن زينة، خاصة وأنني أول طالب في المدرسة يتاح أن يكون قريبا منها إلى هذا الحد، ويتحدّث معها وجها لوجه، وغبطوني أو حسدوني على "هذه الفرصة الذهبية"، وسألوني هل قبّلتني، وحقيقة لا أذكر إن كانت قد قبّلتني على خدّي أو جبيني.

أيلول الأسود في بيتنا!

في البلدة التي رحلنا إليها في عام 1968م كان هناك نشاطا مكثّفا للفدائيين الفلسطينيين، وكانت كل منظمة تحاول أن تفرض نفسها ولهذا كانت تملأ الشوارع والجدران بإعلانات عن العمليّات التي تقوم بها كل منظّمة، وكان لهم معسكر على طرف البلدة، وذهب بعض الأطفال إلى المعسكر للتدرّب على السلاح، لأن الكل كان متحمّسا لقتال اليهود وتحرير فلسطين، حتى الأغاني والأناشيد التي كنّا ننشدها في المدرسة كلّها تدور حول القتال، وكان في صفّنا طفلة جميلة أسمها غزالة، وكثيرا ما تقف أمام الطلاّب وتغنّي: "ساعة المغارب يا ولد ساعة المغارب، عاوز تخطبني يا ولد روح قبلي حارب"، وباختصار كان الوضع على الأرض، وكما كانت تقول إذاعات العرب: "لا صوت يعلو فوق صوت المعركة".

تشجّعت للذهاب إلى معسكر الفدائيين، وقد استقبلنا ضابط وسيم ولطيف جدا، وصار يحدّثنا عن تحرير فلسطين، وبدأ بتدريبنا على الزحف، وبعض الحركات العسكرية، ثم على فك وتركيب الكلاشنكوف، وكان تعلّمي سريعا، ولهذا صار يهتم بي كثيرا، ولكن أهلي منعوني من الذهاب إلى المعسكر، ولم ييأس ذلك الضابط، وأرسل لأهلي مرّات عديدة، ودون جدوى، وكنت أبكي وأتحرق شوقا للذهاب للمعسكر والتدرّب على القتال.

النشاط الفدائي، والممارسات الخاطئة لبعضهم، والمؤامرات التي حيكت حولهم، وشارك بها بعضهم أدت لأحداث أيلول الأسود، ولم نسلم منه نحن أيضا.

في عام 1969 اجتمع عدد من قادة الفدائيين في المعسكر القريب مع جميع شباب البلدة، في بيت رجل من البلدة عنده عدد كبير من الأبناء معظمهم ضبّاط في الجيش، وقاموا بتوزيع سلاح على كل رجل بالغ، وكان أخي حاضرا، فحصل هو أيضا على قطعة سلاح، وخلال تلك الفترة كان في مصر يدرس في الجامعة، ولحسن حظّه أنه كان بعيدا عن الأجواء الصعبة عندنا، وقطعة السلاح معلّقة في بيت أمّه، وفي ذلك الوقت بدأت فتنة "أردني، فلسطيني" تطلّ برأسها، وقام أحد الجيران بإخبار البادية، وهم جزء من الجيش تم استقدامهم للسيطرة على المنطقة، فحاصروا بيتنا، ووجّهوا رشاشاتهم نحو البيت، وسمعت الضابط يقول: دمّروا هذا البيت، فأمرتنا أميّ بالهروب حتى نسلم نحن على الأقل، ولكنّهم دخلوا البيت، ووجدوا قريبا لنا كان هارب من المدينة هو وعائلته، فأخذوه معهم، وبعد فترة أخلوا سبيله، بعد أن جمعوا كثيرا من الأسلحة من البلدة.

وعاد يحيى من مصر ومعه جهاز تسجيل، لقد كان أوّل جهاز تسجيل في البلدة، وفي الحفلات كان يحيى يطلب منّي أن أحضر الجهاز من البيت، فكنت أحمله بكلّ فخر وأعود للحفل، وعيون الناس تنظر إليّ وتغبطني، أو تحسدني.

بداية التحدّي

عاد الناس إلى بيوتهم بعد نهاية حرب الاستنزاف، وحرب أيلول، وبقينا في البلدة، ولم نعد لمزرعتنا، وكنت أحلم أن نعود، وتعود تلك الأيام الجميلة، ولكن العائلة أحبّت هذا المكان، وخاصة أنه بعيد عن كل الأقارب، ولا يوجد ما يشغلنا عن الدراسة.

وعندما كنت في الصف الرابع أغلقت المدرسة المسائية التي فتحوها لنا، وانتقلت لمدرسة البلدة، وهنا كان عليّ أن أختلط بطلاّب جدد، وأنا غريب بينهم، وجميعهم يوجد بينهم علاقات قربى ومصاهرة، وكان الجو صعبا عليّ، ولكنّي أحبّ التحدّي، وطريق التحدّي مفتوح أمامي دائما، وهذا من فضل الله، فاختارني مربّي الصف لأكون عريفا للصف، وكان العريف السابق ابن خالته، كما كان أخوه أيضا في الصف، وهذا أثار حفيظتهم، ولكن كان الناس على قدر كبير من الخلق والالتزام، والمعلّمين كنّا نعتبرهم في أعلى السلّم الاجتماعي.

وباشرت "عملي" بكل ثقة، لم أكن أجامل أو أهادن، وفرضت "حالة طوارئ"، ولم أقبل بأدنى قدر من التشويش أو الفوضى في الصف، ولأن اللوح مرتفع بالنسبة لي، اشتريت دفترا صغيرا أسجّل عليه أسماء الطّلّاب المزعجين، وهذا سبب ضغطا كبيرا على الطلاّب، فلا يعرف الطالب أن اسمه مسجّل إلا عندما يدخل المعلّم، وعندها سيتعرّض

للضرب بالتأكيد، وصار بعضهم يساومني لعقد صفقة، أن أضربه أنا بالمسطرة وأمسح اسمه، وكنت أوافق، فالمهم نشر العدل، وكان أخي أيضا عريفا على الصف المجاور، وكنّا نفرض الهدوء في صفوفنا، ونلتقي في الممر نتحدث ونتمشّى ونلقي نظرة بين فترة وأخرى على صفوفنا.

وهذا أغاظ كثيرا من الطلاّب، اثنين غريبين يفرضان سطوتهما علينا، ونحن أهل البلد، وأتفق بعضهم على أن ينتقموا منّي بعد نهاية الامتحانات النهائية، وفي ذلك اليوم أكملت امتحاني سريعا كعادتي، وسافرت لمزرعة أبي، ومرّت الأيام وصرنا أصدقاء وأحباب، ولكن هذه المرّة لم يعودوا يخشوا الضرب، بل يخشون أشعاري وحدّة لساني، ولم أكن أشتم، بل امتلك مهارة لغوية كبيرة، وأعرف كيف أختار الكلمات المناسبة التي تعبّر عمّا أريد.

في العطلة كنّا ننزل للمزرعة حيث نقضي الجزء الأكبر منها، نلعب في مزرعتنا والمزارع القريبة، ونصطاد بالفخاخ، ثم أشترى أخي بندقية صرنا نستخدمها في صيد العصافير، وفي أحد أيام الصيف حيث كانت أسراب الحمام البرّي بالآلاف، أخذنا أبي إلى حقل القمح المحصود، وأطلق طلقة، لقد ضعف نظره وتركيزه، فلم يصب شيئا، وسلّم البندقية لزاهي فأطلق النار على شجرة يقف عليها الكثير من الحمام فأصاب حمامتين، ومنذ ذلك الوقت بدأنا نصطاد الكثير من الحمام، أما أنا فلم يكن في استطاعتي السيطرة على البندقية وإطلاق النار.

حرب الدرجات!

كان المعلّمون رائعين، كلّهم، إلا معلّم الرياضة، الذي كنت أكرهه، لقد كان هنالك تنافسا قويّا بيني وبين عدد من الطلاّب، وكلّهم

أصدقائي، وحتى الآن، ولكنّه تنافسا شريفا، وفي إحدى السنوات مرّ علينا معلّم الرياضة ونحن نلعب، فنادى أحدنا وقال له: لقد وضعت لك علامة 80٪ في الرياضة، ويعرف الجميع أنه لا يستحقّها، ولكن هناك أسباب دفعته لهذا، مصلحة من نوع ما، وسألته أنا، فقال: وضعت لك 60٪، وهذه العلامة أعطت ذلك الطالب المنافس علامتين في المعدّل العام، وتبيّن أنه سبقني للدرجة الأولى بعلامة واحدة، أي لولا علامة الرياضة لكنت أنا الأول، من جهة أخرى لم يكن أي من المعلّمين يميّزني بشيء بسبب قصري، وصغر حجمي، وضعف جسمي، وهذا يدلّ على ذكاء أولئك المعلّمين، فهم لم يشاءوا أن يشعروني بأي نقص، حتى لو كان هذا قاسيا عليّ، ولهذا في حصة الرياضة، وحتى أيام الشتاء البارد، وقد تهطل بعض الأمطار، كان معلّم الرياضة يقسمنا لفريقين للعب كرة القدم، فريق يبقى في اللباس الداخلي، حيث لم يكن هناك ملابس رياضة، واللباس الداخلي كان يصنع من أكياس الطّحين التي توزّعها وكالة الغوث، والفريق الآخر، ينزع اللباس العلوي وتبقى عليه قطعة واحدة فقط، وكان عادة ما يضعني في هذه المجموعة، وكنت أطلب منه أن يعفيني فكان يرفض رفضا قاطعا، وكنت أبتعد عن الكرة خوفا من أن يدوسني الطلاب ضخام الأجسام، ولهذا كنت أركض وحدي حتى أنسى البرد، وكنّا نلعب على أرض البيادر، حيث تجتمع عليها بيادر البلدة في الصيف، وفي الشتاء والربيع، تنمو البذور التي سقطت على الأرض، فتصبح مثل الملاعب المكسوّة بالنجيل الطبيعي.

معلّم آخر كنت أحبّه، معلّم الزراعة، كان يكلّفنا في حصة العملي أن نسحب الماء من البئر الموجود في مزرعة المدرسة، ونسقي المزروعات، وكانت الدلاء معدنية ثقيلة، ولكنّه لم يكن يتهاون معي،

ويجبرني أن أحمل مثل الآخرين، والآن أقدّر لهم هذا الأمر، فهم يحاولوا أن يشعروني أنني لست أقلّ من الآخرين، وكان هذا له دور في بناء شخصيّتي القويّة، الواثقة من نفسها.

من أحب المعلّمين إلى قلبي، معلّم اللغة العربية، حيث كان شاعرا أديبا فنانا، وكان يحبّني كثيرا، وخاصة بعد أن انطلقت موهبتي الشعرية، وكان زملائي لا يصدّقون أنه شعري، ويقولون: هذا الشعر تسرقه من كتب أخيك، وأردّ عليهم: أيها الأغبياء، هذا الشعر الطفولي البسيط هل يمكن أن يكون لشاعر مشهور؟ وهل كان يعرف الأسماء التي أذكرها في شعري، وبزر شعري عندما عنّفني معلّم الحساب في الصف الخامس، ولم أكن معتادا على التعنيف، وكان الأمر خارجا عن إمكانياتي، حيث لم أتمكّن من حل سؤال، فشجّعني أستاذي على كتابة قصيدة هجاء، فعلها من باب مداعبة زميله، وفي اليوم التالي أحضرت قصيدة هجوت فيها معلّم الحساب، ومطلعها:

معلّمي معلّم الحساب ذمّني لأتفه الأسباب

وسرّ بها معلّم الحساب، ومن وقتها صرنا صديقين، كما أحضرت قصيدة مدحت بها أستاذ اللغة العربية لأنه شجّعني على كتابة القصيدة.

وكنت كثيرا ما ألقي كلمات صباحية أمام الطلاّب، وأكتب في مجلّة الحائط.

ومن الذين لهم دور بارز في حياتي معلّم العلوم، لقد كنت أنظر للمختبر، بكّل شغف، وخلال سنوات طويلة من الخامس وعلى الأول ثانوي، كل تجربة موجودة في كتاب العلوم كان يجريها لنا، ولهذا أحببته، وأحببت مادة العلوم، وكان عندي حب شديد للعمل في المختبر، وكان

عندنا حصّتان في الأسبوع نشاط مفتوح، حسب اختيار الطالب، وفي البداية وقعت في حيرة، أنا أحب العلوم فاخترت هذه المجموعة، ثمّ شدّني حبّي للغة العربية، فانتقلت إليها، وبعد ذلك طلبت أن أعود لمجموعة العلوم، فغضب منّي المعلّم المسؤول عن مجموعة اللغة، وكان جارنا، لأنه كان يعرف أن وجودي في المجموعة يعطيها كثير من الحركة والنشاط، وعدت لمجموعة العلوم، وكان خيارا صائبا.

لقد كنت أسأل المعلّم عن شيء ما فيقول لي: جرّب، ويسمح لي بأن أجري تجارب حتى أصل للنتيجة بنفسي، وكان يتم هذا بإشرافه ليتأكد من أن لا تقع أخطأ وللحفاظ على السلامة، وهنا كانت بداية البحث العلمي لدّي.

تجربة مؤلمة عند الحلاّق

من الشخصيات البارزة في البلدة الحاج عبده الحلاّق، وصالونه العجيب، حيث كانت الغرفة الطينية مقسومة بالطين لارتفاع متر ونصف تقريبا، والنصف الغربي يوضع به أدوات الحراثة والحصاد، والحطب المستخدم في التدفئة، وكذلك الخردة، مثل بقايا الألمنيوم والنحاس، حيث كان الحاج عبده أيضا مهتما بشراء الخردة، وتدوير النفايات.

أما النصف الشرقي فكان يتصدّره كرسي خيزران للحلاقة، حيث يستخدم آلة الحلاقة اليدوية التي تنتف الكثير من الشعر بحيث تجعل عملية الحلاقة تجربة مؤلمة، ولكن كنّا نتحمّلها بسبب خفّة ظل الحاج عبده رغم أنه كبير في السنّ، وكان في بعض الأحيان يضع بعض الكاز على آلة الحلاقة لتحسين عملها، وجزء من الكاز يعلق بالشعر، ولم نكن ننزعج منه كثيرا، لأنه إن وجد بعض القمل فإن الكاز كاف لقتله، وبجانب

الكرسي يوجد سندان للحدادة لصيانة الأدوات المنزلية، وكذلك أدوات لصيانة الأحذية، وكان يوجد رفّ به الكثير من الأحذية المستعملة للبيع، وبعد أن يكمل الحلاقة كان من عادته أن يضرب الولد كفا خفيفا على رقبته مرفقا بضحكة خفيفة من الحاج عبده يفهم منها الولد أن الحلاقة انتهت، وكنّا ندفع قرشا أجر الحلاقة.

ورغم ذكاء الحاج عبده، فقد خدعه قريب لي، حيث أحضر كتلة من الأسلاك النحاسية من بقايا أسلاك الجيش، وفي ذلك الوقت لم تكن الأسلاك تغلّف بالبلاستيك بل بالزفت الجاف، ودخل إلى محلّ الحاج عبده وطلب 5 قروش، فرفض الحاج عبده وقال له: اذهب واجمع غيرها وسأدفع لك 5 قروش، فخرج وقام بتقطيع الأسلاك لقطع كثيرة فظهر حجمها كبيرا فدفع الحاج عبده 5 قروش وهو مسرور.

أطباء زمان

الطبيب هذه الأيام لم يعد يخيف الأطفال، حيث الأدوية معظمها بشكل شراب، أما أيّامنا فالوضع مختلف، ففي أقل مراجعة للطبيب يكتب لنا نصف دزّينة إبر طبيّة، بل إن طبيب من أصل بدوي كان يعرف أن الناس البسطاء يقدّرون الإبرة أكثر من أي طريقة دوائية أخرى، ولهذا وقبل أن يكشف على المريض تأخذه ممرضة للداخل وتعطيه إبرتين، وكان يمكنها إعطاء الإبرتين في حقنة واحدة، ولكن هو يتعمّد هذه الطريقة لإشعار أهل المريض بمهارته واهتمامه.

طريقة إعطاء الإبرة نفسها تتضمن الكثير من العذاب، حيث لا تستخدم إبرة جديدة مستهلكة مثل هذه الأيام، حيث يكون رأسها حادا ويدخل في الجسم بأقل أذى، ولكن المحقن كان من المعدن أو

الزجاج، ويستخدم لسنوات وسنوات، حيث يتم غليه بالماء الساخن قبل إعطاء الإبرة لتعقيمه، ويتفاخر بعض المرضين بنوعية المحقن الذي يملكونه، ولأنه استخدم لمرّات عديدة يكون رأسه خشنا وليس حادا، ويثقب الجلد مثل المسمار، ولهذا يكون مؤلما جدا.

أنا والكتب عشق أبديّ!

هوايتي المحبّبة، والتي كنت وما زلت أعشقها كثيرا هي قراءة الكتب، وفي تلك الأيام لم تكن الكتب متوفّرة، وكان هناك شيء اسمه المكتبة المتنقّلة حيث يأتي موظّف من مديرية التربية يوزّع على كل طالب في الصف قصة ويعود بعد شهر لاسترجاعها، وكنّا نتبادل القصص فيما بيننا، وكنت أحرص على قراءة جميع القصص التي وزّعت على طلاب الصف، حيث كنت أقرأ في فترة الخمس دقائق بين الحصتين، وفي الفرصة، وبعد الدوام، ولم يكن يغيظني إلا إبراهيم، طالب في الصف لم يكن يقبل أن يبادل قصّته مع أحد، وبعد ذلك صاروا يوزّعون علينا روايات، مثل روايات عبد الحميد السحّار، وعندما كبرت صرت أستعير من مكتبة المدرسة، ولأن المعلّم المسؤول عنها لم يكن متفرّغا، حيث كان يدرس في الجامعة الأردنية في عمّان، كان بصعوبة يفتح لي المكتبة كل أسبوعين لمدة عشر دقائق، فآخذ منها كتبا تكفيني لمدة أسبوعين، ولكن وزن الكتب كبير، وأنا لا أستطيع أن أحملها كلّها، فكان يحمل معي بعض زملائي.

وكنت أجمع ما أحصل عليه من مال، وخاصة في نهاية العام، وأذهب للمدينة حيث أشتري بها كلّها كتبا وأعود للبيت، وهذا كان يعرّضني للإهانة من أهلي، حيث كانوا يقولون لي: أعطيناك مالا لتذهب

وتمرح قليلا، تشتري طعاما، وشرابا، وكنت أسكت، فهـم لـن يفهمـوني، فجوعي للكتب أهم بكثير من جوعي للطعام، وفي أحـد الأيـام اشـتريت كتابا عن الصحابي الجليل أنس بن النضر، وعدت للبيـت سـريعا، وأثنـاء عودتي كنت خائفا من أتعرّض للإهانة بسبب هذا "التصرّف الغبّي" حـسب رأي أهلي، وكنت أدعو ربّي أن يستر علّي، فأخفيت الكتـاب بـين ثيـابي، ودخلت ساحة البيت فوجـدتهم يتنـاولون الإفطـار في الخـارج، ودعـوني لأشـاركهم الطعـام، فقلـت لهـم: حتـى أغيّـر ثيـابي، فـدخلت وأخفيـت الكتاب وعدت إليهم بعد أن حمدت ربّي.

من الكتب التي قرأتها تقريبا كلّها، كتب أخـي يحيـى، واسـتفدت كثيرا من كتب اللغة العربية وآدابها، وعندما اشترى زاهي الدراجة طلبـت من أهلي مالا لشراء معجم لغة عربية، حيث كنت أريد أن أثري مفرداتـي اللغوية للاستفادة منها في شعري.

وفي أحد الأيام اشترى أخي آلـة تـصوير مـع فـيلم بمبلـغ نـصف دينار، وعندما عاد للبيت أخبرني عنها، وأن الفيلم حـسّاس وإذا تعـرّض للضوء فإنه "يحترق"، ولكن لا بأس بأن نرى الفيلم بسرعة، ففـتح الكـاميرا لنشاهد الفيلم، ثم أعادها للكاميرا، وقام بالتقاط بعـض الـصور ثـم بعـد فترة أرسل الفيلم للتحميض والطباعة وتبيّن أنه تالف، ولم نعرف الـسبب الذي أدّى لإتلافه.

اللعب مدخل إلى الاكتشاف!

كان يحيى يحضر لي وأنـا صـغير بعـض الـسيارات البلاسـتيكية، وكنت أحاول أن ألعب بها، ولكن لم تكن تثير فضولي، وكنـت أفـضّل أن أبحث عن الفستق المتبقي على الأرض في مزرعة جارنـا لتعمـل منـه أمـي

حلوى مع عصير الليمون والسكّر، أو ألعب مع الأولاد الذين يأتون مع أهلهم عند البئر، وفي إحدى الليالي أخذ يحيى مصباحا كهربائيا يدويا وصعد على السلّم وأمسك بعض عصافير الدوّري في أعشاشها المحفورة في الجدار، وفي الصباح أعطانا إياها لنلعب بها، وأراد أخي أن يربط قدم العصفور بخيط فقلت له: إذا ربطت الخيط على القدم قد تنقطع أو يتأذى العصفور، ولكن قم بوضع ورقة على القدم تحت الخيط، ولا تشدّ العقدة كثيرا، وعمل كما قلت له، وأطلق العصفور وهو يمسك طرف الخيط، ولكن العصفور استطاع تحرير قدمه وهرب، وهنا صبّ جام غضبه عليّ.

وعندما غادرنا المزرعة كنّا نلعب بألعاب نصنعها بأيدينا، بل إن بعض الألعاب لا يمكن لجيل اليوم أن يتخيّلها، ومن الألعاب الممتعة والتي تحتاج إلى بعض المهارات صنع الطائرات الورقية من أكياس الإسمنت وعيدان القصب، وكنّا نصنع الفخاخ لصيد العصافير، ونستخدم أسلاك فولاذية من دواليب السيارات، حيث كان الأولاد يشعلون الدواليب، ثم يستخرجون منها لفّة الأسلاك الفولاذية، وباقي المكوّنات يتم الحصول عليها من المزابل.

وكان صيد الطيور يحتاج لعلم وخبرة، فليست كل الطيور يمكن صيدها بالفخّاخ، وكنا نجد مكانا ترتاده هذه الطيور، ونعرف هذا من كمية فضلاتها، ونبحث في عيدان الذرة عن الدود، وتحتاج عملية توجيه الطير نحو الفخ الكثير من الركض، وعندما يقع العصفور، نسرع إليه والفرحة تغمرنا.

ومن الألعاب الغريبة اللعب بالدبابير، حيث كان الأولاد يحضرون أغصان نباتات، ويذهبون إلى حيث تتوفّر الدبابير، سواء عند

المصادر المائية، أو في المزابل، حيث يتم ضرب الدبابير بالأغصان، وعندما تسقط يمسكون بها، ثم تجري عملية الفرز والإعداد للعب.

الأنثى ليس لها إبرة ولهذا لا تلدغ، وتستخدم في اللعب كما هي، أما الذّكر فيتم قص الإبرة بقطعة حديد، مثل غطاء علبة سردين، ثم يربط الدبور بخيط طوله 1-2 متر ، ويمسك الولد الطرف الثاني ويبقى الدّبور يطير حوله وهو يصدر أزيزا.

أنا شخصيا لم أجرؤ على اصطياد الدبابير، ولكن قد يعطيني بعض الأصدقاء دبّورا في الصف، فأربطه بجانب المقعد حتى ينتهي الدوام.

ومن الألعاب التي كنّا نحبّها السيارات التي نصنعها من الأسلاك.

في أحد الأيام شاهدت شخصا جاء لتصليح الراديو أراد أن يعرف إن كانت البطاريات صالحة، فأوصلها بمصباح كهربائي صغير، فأضاء، فانبهرت بهذا الأمر، وسعيت لشراء مصباح وبطارية، أما الأسلاك فاستخدمت أسلاك بناء، وصرت أتفنّن في إخراج هذا الشيء العجيب بتصاميم مختلفة وحسب ما يتوفّر لي من مواد.

لقد كنّا أحيانا ننام في ليالي الصيف في الخارج، فصنعت مصباحا أضعه فوق رأسي لأضيئه متى أردت، وصنعت مصباح جيب صغير داخل علبة ثقاب بلاستيكية، وكان هذا بداية شغفي بالكهرباء والأجهزة.

فكّرت في صنع جرس يعمل بمجرّد فتح الباب، فأحضرت جرسا يعمل على البطارية، وقمت بتوصيله مع قطعتي حديد مثبتتين على طرفي الباب، ولكن المشكلة أن الدائرة تغلق ويرن الجرس عندما يغلق الباب وليس عندما يفتح، ففكرت بهذه المشكلة، وكنّا قد درسنا في كتاب العلوم عن الجرس الكهربائي، فقمت بتعديل الجرس ليقوم بتحويل

الدائرة كما أريد، وعرفت بعد زمن طويل أنّني حوّلت الجرس ليعمل مثل المرحّل الكهربائي.

إلى بيروت

التمييز بيني وبين زاهي كان واضحا، زاهي شاب وسيم يتفاخرون به، مثل يحيى، أما أنا فلم يتجاوز طولي 120 سم، ووزني 20 كغم، وكانت النساء تدعو لأمي أن يرزقها ولدا لأنّهن لم يكن يضعنني في الحساب، وقرر أبي أنه يجب أن يسعى لعلاجي، فاختار أن يأخذني لمستشفى في بيروت، وذهبت معه إلى جار لنا عالج زوجته هناك، وأعطانا بعض المعلومات عن المستشفى، وأن هناك قسم للمساعدات الخارجية يمكن أن يتحمّل جزءاً من النفقات، فردّ أبي مغضبا: لست ذاهبا للتسوّل.

أدخلوني إلى المستشفى، وكان حديثا جدا، ونظيفا، وتتوفر فيه خدمات لم نراها إلا بعد سنوات طويلة، لقد كان مع الأطباء (بيجر) من أجل أن يطلب الطبيب في أي وقت، وإنتركم بجانب أسرّة المرضى، وملعب للأطفال، وقد كان هذا في بداية السبعينيات من القرن العشرين.

لقد تركني أبي في المستشفى تحت رعاية طبيب أردني، وهذا الطبيب اهتم لأمري كثيرا، وكان يدفع بعض النفقات من جيبه ليأخذها من أبي لاحقا، وعاد أبي إلى الأردن لوحده وترك معي مبلغا كبيرا من المال، ولكن في الحدود اللبنانية أوقفوه، حيث كان لديهم شكوك بخصوص الطفل الذي أحضره معه وتركه، وبقي محجوزا في الحدود حتى الفجر حيث صلّى الفجر، وعندها اقتنعوا بكلامه، وسمحوا له أن يغادر، لقد كانت ليلة صعبة على هذا الرجل الكبير في السن.

في المستشفى أجروا لي عدة فحوصات، وجاء رجل دين نصراني فصار الناس يطلبونه لكي "يبارك" أبنائهم، ودخل غرفتي، وأراد أن يمسح على رأسي، فأمسكت يده بقوة وأبعدتها عنّي، فتركني وذهب، وجاء يحيى لإخراجي من المستشفى، وفي دمشق أخذني لزيارة معرض دمشق الدولي، وكانت فرصة ممتعة جدا لي، حيث شاهدت بزّة رائد الفضاء نيل أرمسترونج، أو هكذا يدّعون، وكثيرا من الصناعات، وكذلك النوافير على نهر بردى، وزرت سوق الحميدية، والمسجد الأموي.

وكان أبي في كل رحلة يعطيني مالا ويسمح لي بمغادرة الفندق والتجوّل في شوارع بيروت القريبة، وكنت، وكما أنا دائما ابحث عن الكتب، وكان قريبا من الفندق الذي ننزل به في ساحة رياض الصلح شيخ لبناني بالثياب التقليدية يبيع الكتب، وبيده مسبحة طويلة، فكنت أشتري الكتب من عنده.

وبعد بضعة أسابيع من مغادرة المستشفى وصلتنا رسالة من الطبيب تطلب منّا أن نراجع المستشفى للحصول على الدواء، وعدنا مرّات عديدة، وكان الدواء مجرد حبوب صغيرة لم تجدي أي نفع، فألقيت بها في النفايات بعد أن تناولت منها لعدّة أشهر، وفي المرّة الأخيرة، كانت الحرب الأهلية قد بدأت، وقد تعرّضنا لإطلاق نار، فعدنا مسرعين إلى الأردن.

لقد أحسست أن هذا قدري، أن أبقى قصير القامة، وثبت شكلي على عمر 5 سنوات، أي من كان يراني كان يظنّ أنني طفل عمره 5 سنوات، وكنت هشّا ضعيفا، ففي الصباح كنت لا أجرؤ على مغادرة الفراش الدافئ حتى تقوم أمّي وتشعل مدفأة الكاز.

بعد ذلك اشتريت مدفأة كهرباء صغيرة، حتى أحصل على قدر أكبر من الاستقلالية، فقد تكون أمّي مريضة أو خارج البيت، وأيضا حتى أستطيع تدفئة نفسي متى شئت.

قانون العقوبات العائلي!

إذا حدث شجار بيني وبين أحد من أفراد العائلة، وأنا دائما الطرف الأضعف، ولهذا لم أبدأ الشجار يوما، ولكنّهم غالبا يضربونني أنا، أو يسخرون منّي، لأن أخي وأخواتي كبروا، ومن العيب أن يُضربوا، فهذا يؤثّر على نفسيّتهم، وأنا رغم أنني أكبرهم سنّا ، ولكن بسبب صغير جسمي فأنا الذي يأخذ العقوبة دائما.

هذه "العدالة" كانت مؤذية جدا لي، لأنها تشجّع إخوتي على إيذائي، فهم سيسلمون من العقاب أولا، ويسببوه لي، ويشمتون بي ثانيا، وما يحزنني جدا أن أُضرب أنا أمامهم، وأنا أكبرهم سنّا، وكان من الأجدر بأهلي أن يحترموا عمري، ويراعوا وضعي، لأنه يكفيني أذى الآخرين، الذي يمكنني أن أحمي نفسي منه، ولكن ليس في مقدوري أن أهرب من عائلتي، على الأقلّ في هذا العمر، وليس في استطاعتي منعهم من ضربي.

هذه الطريقة في "التربية" كانت ستخرجني مجرما حاقدا على المجتمع لولا أن منّ الله عليّ بعقل كبير يوزن الأمور ويسعى لتغيير هذا الواقع، ولو بعد حين.

صعوبة حياتي استمرّت لعقود، فأينما ذهبت فإن من لا يعرفني يعاملني كطفل، في حفلات الأفراح والعزاء، والمصيبة أن أحد الأغبياء قد يرتكب خطأ غير مقصود، كأن يتجاوزني في تقديم القهوة فيشعره أحد

الذين حولي، فلا يصحح خطأه ويغلق فمه، بل يتحدث بصوت يسمعه الجميع معتذرا عن خطأه، وأنه ظن أنني طفل، ويكرر هذا الكلام على الملأ، أحيانا بحسن نيّة أو غباء، وبعض الأحيان بسوء نيّة وعن قصد، فيتضاعف الإحراج الذي أتعرّض له، ولهذا لم أكن أذهب لبيوت العزاء، ولكن اضطررت يوما للذهاب لبيت عزاء وكنت أشعر بخوف كبير من أن يحصل ما أخشاه، حيث كنت أرافق عدد من مشرفي التربية في زيارة لبعض المدارس، وفي الطريق قالوا أنه يوجد حالة وفاة لشخص يعرفونه في القرية التي سنزورها، واضطررت للذهاب معهم، وعندما سمعت هذه الكلمات نزلت عليّ مثل الصاعقة، وكنت أتخيّل ما يمكن أن يحدث معي بعد قليل، ونوع الإحراج الذي قد أتعرّض له، وكلّما اقتربت السيارة زاد تسارع ضربات قلبي، واصفر وجهي، ونزلت بخطوات متعثّرة، ولكن وبحمد الله عرّفوا بي بمجرّد أن وصلنا، وحصلت على معاملة لائقة.

أما في الأعراس، فكنت أختار البيت أو المكان الذي يجلس به كبار السّن من أقاربي وأجلس معهم، وهناك أجد كل احترام، وأستمع إلى أحاديثهم محاولا أن أتعلّم منها، وفي أي مكان إن وجد عابد، فكل مشاكلي تنتهي، حيث أنضمّ إليه وأكون في رعايته.

سارق اللوز

كنا نذهب أنا وأصدقائي إلى الوادي غرب البلدة أو التلال شرقها لنقرأ هنالك في الطبيعة الجميلة، ومررنا يوما بمزرعة لوز، وتناولت حبّة واحدة من اللوز الأخضر، لقد كان ابن صاحب المزرعة هنالك، وفي مزرعتي نسمح لكل من يمر بها أن يأكل من ثمارها كما يشاء، وفي اليوم التالي، وقف المدير وقال: جاءت شكوى عن مجموعة منكم سرقوا اللوز

من مزرعة فلان، وفوجئت أن اسمي بين الأسماء، وأوقفونا أمام الطلاّب كلصوص، كان موقفا صعبا مريرا، فبكيت واعترضت، وشرحت لهم الأمر، فطيّب المعلّمون خاطري، وقالوا نحن نعرفك، ولا يمكن أن تكون سارقا، ولكن ليس هذا ما كان يهمّني فقط، بل زاهي.

لقد عاد للبيت سريعا وأخبر أبي أنني لص، وكان يوما قاسيا جدا عليّ، وهذه المرّة شعرت أن زاهي قد حرقني مرّة أخرى، وليس هذا فقط، لقد كان رأسي كبيرا مقارنة بجسمي الصغير، وكان زاهي دائما ما يستفزّني ويشعرني أن رأسي كبير وبشع، ولم يكن لدينا مرايا كبيرة، لقد كانت مرآة صغيرة واحدة يستخدمها أبي عند الحلاقة، ومرآة صغيرة ليحيى، فجمعت المرآتين وحاولت رؤية رأسي من الخلف، ولم أتمكّن من التأكد، هل هو بشع لهذا الحد أم لا، وقد رافقني الخوف من بشاعة رأسي لسنوات طويلة.

مشكلة زاهي وكثير من أفراد العائلة أنّهم أقنعوا أنفسهم، أنه لا مكان لي في هذا العالم، وأن أمامي أحد خيارين، أوّلهما أن أموت قبل سنّ البلوغ، ويرتاحوا منّي، وتتوزّع المكاسب عليهم فقط.

والبديل الثاني أن أكون مجرّد كتلة لحم ملقاة في الزاوية، ومحروم من أيّ حق لي كإنسان.

ولأنّني لم أمت سريعا، وأيضا بدأت أرتقي سلّم النجاح والإنجاز والتميّز، فقد اعتبروا أنني أعلنت الحرب عليهم، لأنّي لم ألتزم بقناعاتهم التي حاولوا، وما زالوا مستمرّين في المحاولة لتحويلها إلى حقيقة.

القوة المفرطة، والضعف المفرط!

كثيرا ما كان صغر حجمي وضعف جسمي يغري الأطفال الخبثاء لمحاولة إيذائي، بالسخرية أو حتى الضرب، وكنت أدافع عن نفسي مستخدما "القوة المفرطة"، كأن أرمي من يؤذيني بحجر فأشجّ رأسه ثم أهرب أو غير ذلك، ولكن ليست هذه هي المشكلة المهمة، بل يوجد مشكلة أكبر هي سبب خوفي.

لقد كان زاهي ماهرا في الإقناع، ولهذا كان يتفنّن في إقناع أبي وباقي أهلي بأنني أسبب المشكلات للعائلة، لأنني أتعرّض للأولاد، وأبدأ الشجار معهم، وخاصة أننا غرباء في البلدة، والمشكلة أن أهلي يعرفون أنني لا أمتلك القدرات الجسمية للقيام بهذا، وأيضا أنا لم أفكّر يوما في إيذاء أحد، بل أبحث عن حياة هادئة يعمّها السلام، ولكن رغم هذا كانوا يصدّقونه، فهو الفتى السليم الوسيم، والأمل المنشود، والمستقبل الموعود، ولهذا كنت أجد من العقاب، ومن ظلم الأهل ما هو أصعب على نفسي ألف مرّة من أذى الأطفال، لأنه كما يقال: "قاضي الأطفال شنق نفسه"، فالطفل قد يخاصم الآن وبعد قليل قد يصادق، وأكثر الناس الذين بادروني العداء قبل أن يعرفوني جيدا صاروا بعد وقت قصير من أعزّ أصدقائي، وأحد هؤلاء أسمه صبيح، كان يكبرني بعام، وكثيرا ما كان يقول: أفضّل أن انتحر على أكون أنا وسعد في صف واحد، ورسب ذلك العام، وفي العام التالي صار في صفيّ، وجلس معي في نفس المقعد، بل وصرنا مثل الإخوة، وذهبنا مع المدرسة في رحلة لعدّة أيام اشتركت أنا وإيّاه في الطعام الشراب، وكلّ شيء، وصرنا من أعزّ الأصدقاء، وبعد ذلك حزنت عليه كثيرا، إذ ولد له طفل مريض معوّق أتعبه لسنوات قبل أن ينتقل إلى رحمة الله.

ومن الأحداث التي تركت أثرا كبيرا في نفسي حتى الآن، أنني كنت أرافق أختي زعيلة في أحد أيام الشتاء إلى حيّ في البلدة، حيث كانت تريد إحضار امرأة لتغربل لنا القمح، وهذا الحي أخشى أن أدخله وحدي، لأن به الكثير من الأطفال الأشرار، وأرادت أن يرافقها زاهي، ولكن لم يكن موجودا في البيت، وكنت أنا البديل الوحيد المتاح، الطرق طينية غير معبّدة، وجاء خلفي ولد أخشاه كثيرا، وكان يريد أن يضربني بقدمه غدرا، وكنت أحاول أن أتتبع حركاته دون أن أشعره، ولم أجرؤ على إخبار زعيلة بما يحدث، لأنني كنت أخشى عواقب أكبر، وفي لحظة رفع الولد رجله ليركلني، فأمسكتها ورفعتها فسقط على ظهره على أرض الشارع الطينية، وأكملت طريقي مع زعيلة التي لم تنتبه، لوجود ضجيج أولاد يلعبون لعبة غرز المسمار في الطين، حيث كانوا يرسمون دائرة في الطين، ويحاولون رمي مسمار طويل ليسقط واقفا داخل الدائرة، وهذه اللعبة كانوا يلعبونها في الشتاء بعد سقوط المطر.

طفل آخر، لونه أسود موشّح بالبنّي بغيض الوجه، به خدوش وندوب، لا يمكنني تشبيهه إلا بكلب أسود عقور، حاول إيذائي أكثر من مرّة، وفشل، وفي يوم عطلة وقف أمام باب البيت ومعه عدد من رفاقه الأشرار، وبكل وقاحة صار يناديني لأخرج إليهم من أجل أن يضربوني، وأغلقت الباب، وبقي ينادي ويشير إليّ أن تعال وهو في شدة الغضب، وكلّ أهلي موجودين، ولم أجرؤ على إخبارهم للأسباب السابقة، وشعرت أن الأيام القادمة ستكون صعبة عليّ، ولكن في مساء ذلك اليوم صدمت ذلك الولد سيارة ومات، صحيح أنني شعرت بالراحة والأمان في ذلك اليوم، ولكن كنت أتمنّى لو أن أهلي وقفوا معي، ومنعوه من الوصول إليّ، ثم تحدّثوا مع أهله، خاصة وأنه بدأت تنشأ علاقة صداقة

بين عائلته وعائلتي، وكنّا قد زرناهم في بيتهم، وعندها كان يمكن أن يكون صديقي.

عقبة أخرى كانت تؤذيني، جارة لنا فتاة شابة متزوجة وعندها عدد من الأطفال، كلّما مررت قرب بيتها، أو رأتني في الشارع سخرت منّي بسبب قصري، وهذه المرّة أخبرت أميّ، فذهبت إلى أبوها الجزّار وأخبرته عن صنيع ابنته، وغضب منها أشد الغضب، وعنّفها بشدّة، وهددتها إن هي تعرّضت لي مرّة أخرى ستنال عقابا مؤلما، ومنذ ذلك الوقت لم تجرؤ أن تريني وجهها.

لقد كان أبوها رجلا ضخم الجثة، مهيب المنظر، تخشاه عندما تراه، وخاصة إن كان يحمل ذلك السكّين الكبير، ولكنه لطيف المعشر، طيّب القلب، بريء مثل الأطفال عندما تتحدّث معه، وكثيرا ما كنت أذهب إليه أشتري طحال الخروف بقرش واحد، فقد كنت أحبّ الطحال وما زلت.

شامبو أم زيت شعر؟

كنّا نستخدم صابون نابلسي للغسل، أما يحيى فلديه الكثير من الأشياء، عطور، كريمات، وأشياء أخرى لا نعرفها، وكنّا نسمع عن الشامبو ولكن لم نكن نعرف ما هو، في الغالب كنت أظنّه نوعا من الدواء لقشرة الرأس، أو للقمل.

كان لدى يحيى علبة خضراء تحتوي على شيء يشبه الكريم ، أخذت أنا بعضها ودهنت به شعر رأسي، أما زاهي فأخذ ما يقرب من نصف محتوى العلبة ودهن به رأسه، وذهبنا للمدرسة، وأثناء لعبنا في ساحة المدرسة كان يحيى يزور أصدقاه المعلّمين، فشاهد رأس زاهي يلمع

من بعيد، فناداه، وعندما اقترب منه مد إصبعه وتحسس شعره، وقال له غاضبا وساخرا: يبدو أنك وضعت كل العلبة على رأسك؟

وحقيقة لم نعرف حتى الآن إن كانت كريم للشعر أم البشرة أم لتلميع الأحذية أو أي شيء آخر!

أنا أيضا ارتكبت بعض الأخطاء، كان في العلبة قنينة صغيرة بها مادة صفراء وقوامها مثل العسل، كنت أظنّها زيت شعر، وبالتجربة وجدت أنه إن وضع بعضها على الشعر وهو رطب فإنها تصدر بعض الرغوة، ولهذا استنتجت أن زيت الشعر هذا يجب أن يوضع بعد تجفيف شعر الرأس، ولكن بعد ذلك عرفت من يحيى أن هذا شامبو مركّز، وهو يختلف عن الشامبو الذي نستخدمه الآن حيث تضاف له مواد مالئة لزيادة حجمه.

إلى ثانوية اربد

أكملت الصف العاشر وأردت أن أختار الفرع الأدبي، فأنا أحب الأدب والشعر، واستشرت يحيى، فأرسل لي رسالة نصحني أن أدرس علمي فاقتنعت برأيه، وانتقلت لثانوية اربد، وهي أكبر واعرق مدرسة في شمال الأردن، وهناك وجدت معلم اللغة العربية الذي درّسني سابقا، وكان يشجّعني على كتابة الشعر، فعاد يشجّعني وأصدر هو ديوانه الأول، ولكن أغراض شعري اختلفت، لقد صرت أكتب بالغزل لأثبت أن لي مشاعر مثل الآخرين، وكان يطلب منّي الطلاّب أن أكتب لهم قصائد لحبيباتهم، وكنت أفعل، وكان أستاذي يقرأ القصائد ويعاملني كشاعر محترف، وهو كناقد، ويناقشني بكل صغيرة وكبيرة بكل احترام.

صحيح أنني كنت أكتب شعر الغزل، ولكن لم يكن لي حبيبة مثلهم، حتى أسماء خطبت وتزوّجت، وكانت حسرتي كبيرة، وأنا لا أحب أن أظهر ضعفي، ولهذا لم يشعر بي أحد، وقد خرجت من حياتي نهائيا، ولكن كنت أتمنى أنها لا تزال تحتفظ بتلك الذكريات الغابرة.

سفري اليومي إلى المدينة أتعبني جدا، وكنت أيضا أواجه من يسخر منّي أثناء ذهابي للمدرسة، وكل ما كان حولي يجعل حياتي صعبة، ولكن نجحت في الثانوية العامة، واستغربت أن أميّ اشترت حلوى وقهوة للتقديم للناس، لأنني كنت في كل عام أنجح وأحقق معدلا أفضل، وجاء المعلّمون الذين يسكنون في البلدة لتهنئتي وتهنئة أهلي، وسألوني أين ستدرس الآن؟

حشر زاهي نفسه، وأزاحني بعيدا وقال لهم: سوف يدرس في جامعة بيروت، وبيروت في تلك الأيام تعاني من حرب أهلية طاحنة، فقلت لهم: بالتأكيد لن أدرس في بيروت، وكان هذا رأي الجميع إلا زاهي، كان يريد أن يدفعني لبيروت ربّما ليتخلّص منّي لأنه كان يشعر أن الكرة الأرضية لا تتسع لي وله.

تذكّرت أنني لم أخطط لما يمكن أن أفعله بعد الثانوية العامة، لقد كنت أخشى من المجتمع، والحياة بعد المدرسة، وكنت أتمنّى أن تطول سنوات الدراسة، فالذي تعرفه خير من الذي تجهله.

في تلك الأيام كانت طموحات الطلاّب مرتفعة، وكل منّهم يخطط أين سيدرس، إلاّ أنا.

وهنا دخل يحيى مرّة أخرى، وقال: لقد تأسست منذ عامين جامعة اليرموك في أربد، وستدرس بها، وأخذني هو وصديق له إلى الجامعة، وهناك قدّمت الطلب، وقبلت في كليّة العلوم.

حياتي الجامعية

لقد كانت الجامعة صغيرة، بحجم مدرسة، وكلّ الطلاّب يعرفون بعضهم البعض، وكان الدكاترة إما أجانب أو عرب وغالبيتهم من الضفّة الغربية، الخليل، رام الله، القدس، وكانوا علماء في تخصصاتهم، وقضيت أجمل أيامي الدراسية في الجامعة، ومادة الأحياء معظمها مختبرات، وبعض المواد يكون المختبر مفتوحا يعمل به الطالب كل وقت فراغه، وهنا كنت أتحمّل أكثر العمل، بكل رغبة، وباقي الوقت كنت أقضيه في المكتبة، وتعرّفت على الكثير من الأصدقاء.

ولكن في الفصل الثاني رسبت في الرياضيات حيث كان موضوعها مادة التكامل، ونزل معدّلي وجاءني إنذار أول، وأخفيت الإنذار بين كتبي، ولكن زاهي كشفه، فأخذه وصار يرقص به، وفضحني على رؤوس الأشهاد، وها هو زاهي يصرّ على حرقي، ولو علم أبي في الأمر لكانت مشكلتي كبيرة، ربّما سيظنّ أنني أكرر قصّة يحيى، وهو لم يعد في وضع يسمح له بتحمّل الأعباء والصدمات، وربمّا يضطرّني لترك الجامعة.

ولكن هذا زاد من إصراري، فكانت علاماتي في مواد الأحياء لا تقل عن 80٪، وفي العام الثاني رشّحوني لأكون رئيس جمعية الأحياء، قبلت في البداية، ولكن تذكّرت أن هذا العمل يتطلب التأخر بعد الدوام لحضور بعض الاجتماعات، والمواصلات للبلدة تتوقف بعد الخامسة مساء فاعتذرت.

في الجامعة كانت النسبة الأكبر للطلّاب من الضفة الغربية، وكانت غالبيتهم شيوعيين.

أكمل زاهي الثانوية العامة، وعاد الرعب إلى قلبي، لقد استرحت منه لأربعة أعوام، عامين في الثانوية، وعامين في الجامعة، وإن لحقني للجامعة سيكون مصدر أذى كبير لي.

وفكّر في دراسة الهندسة في جامعة البترول والمعادن في السعودية وكنت أنتظر قبوله على أحرّ من الجمر، لأنه سيبتعد عنّي لعدّة سنوات، وهذا سيعطيني هامش أكبر من الحريّة، ولن أجده عقبة في طريقي، وربّما إذا سافر واختلط مع آخرين قد يتغيّر ويتخلّص من هذا الشر المتأصل داخله.

في أحد الأيام جاءنا خبر من البريد بوجود طرد لنا، وذهبت لاستلامه فرفض ساعي البريد تسليمه لي بسبب شكلي الطفولي مع أنني كنت أدرس في الجامعة، وكان يعرفني، ولكن لا أعرف الأسباب التي دعته لهذا القرار، ولكن ما أعرفه أنها أحزنتني كثيرا وأشعرتني بعجزي، وعدت للبيت وكان عابد في زيارتنا فذهب معي للبريد وأخذنا الطرد، وكنت أتمنّى أن يكون فيه قبول زاهي في الجامعة، ولكنّه كان إعادة لأوراقه، والاعتذار عن القبول، وكانت هذه صدمة أخرى.

وسجّل زاهي في جامعة اليرموك، وشعرت بالخوف، ولكن كبر سنّ أبي اضطّره لتقليل زياراته للمزرعة وصار زاهي يكمل محاضراته سريعا ويذهب للمزرعة بدلا عنه، ولهذا لم يتح له الاقتراب منّي إلا قليلا.

وقد نشرت شعرا في جريدة الجامعة، وصار الطلاّب ينادونني بلقب "شاعر الجامعة"، ثم نظرت إلى شعري، فوجدت نفسي غير راض عنه، ولن أصل لمستوى يمكن أن أرضى عنه، فمزّقت الدفتر الذي يضمّ ديوان شعري.

في الجامعة عشت بتقشّف شديد، لقد كان أبـي في أواخـر حياتـه، ومعظم ناتج المزرعة يسرقه أقاربنا الـذين وضـعهم أبـي ليـشرفوا عليهـا، ولهذا من أول يوم في الجامعة وضعت عـدة قـرارات ونفّـذتها بحـذافيرها، وأوّلها توفير نفقات الحلاقة، وخلال سنوات الجامعـة الأربعـة لـن أذهـب للحلاّق أبدا، لقـد اشـتريت مـشطا بـه شـفرتين وصـرت أحلـق بـه، وفي البداية كان شكلي مضحكا، شعر قصير وآخر طويل، ولكن لا يهم، ومع الزمن صرت أحلق رأسي بشكل أفضل.

أما الطعام ، فثمن الوجبة في مطعـم الجامعـة ربـع دينـار، ولكـن هذا مبلغ كبير يكفيني للـذهاب والإيـاب للجامعـة ليـومين، ولهـذا كنـت أكتفي بشطيرة فلافل، حتى أعود مساء وآكل في البيت.

وكنت عندما ينتهي الفصل الدراسي أبدل الكتـب مـع زملائـي، وعندما أنتهي من كتاب أبدّله مع زميل بكتاب آخر، وأوفّر ثمنه.

أما بخصوص الملابس، فقد كان وضعي بائسا، لقد ارتديت حـذاء اكبر من مقاس رجلي، ولكنّي وضعت به قطعا من قماش حتى لا يـسقط من قدمي، وكان عندي قمصان كان قـد أحـضرها يحيـى مـن الـسعودية، وبلوزة من تصفية محل الملابـس المـستعملة المجـاور، ربـما ثمنهـا قـرش أو قرشين، وكان عندي جاكيت مشمّع فقط لحمايتي من المطر كان قد اشـتراه أبي بخمس قروش، هذه هي الملابس التي أكملـت بهـا دراسـتي الجامعيـة، ولم أنظر يوما بحسد لأحد من إخوتي.

قُبلة في المحاضرة!

في حياتي الـسابقة لم يكـن هنـاك اخـتلاط في المجتمـع، ولكـن في الجامعة الأمر مختلف، لأن مجتمـع الجامعـة أكثـر انفتاحـا، وصـحيح أنـي

أعرف نفسي، وأن عندي عقل لا يوجد عند الكثير من الطلاب، ولكن أيضا لديّ جسم طفولي، مثل جسم طفل في الروضة، وهذه المفارقة أتعبتني كثيرا.

لقد كانت عندي مشاعر مثل الآخرين، ولكن لا أجرؤ على إظهارها، فهذا سيجعلني أضحوكة بين الناس، ولهذا تعاملت مع البنات كزميل محترم، ناصح، محايد.

وكان أكثر تميّزي في المختبرات، ولهذا كانت كثير من الطالبات حاولنّ أن يكنّ في مجموعتي، لأني سأقوم بكل العمل، ولها أن تأخذ النتائج جاهزة، وتقدّم تقريرا تحصل به على علامة ممتازة، ولكن أيضا مررت بمواقف صعبة اعتدت عليها، ففي بداية أحد الفصول جاءت طالبة كانت قد سجّلت في نفس شعبتي، وقبّلتني وهي تظنّ أنّني طفل صغير، وبعد أن أكملت قلت لها وبكل برود أعصاب: سعد زميلك في السنة الرابعة، وقد أصيبت بإحراج كبير، واحمر وجهها، ولم تعرف ماذا تصنع، وانسحبت بهدوء، ولم أراها بعد ذلك اليوم، وأظنّ أنها ألغت تسجيلها في هذه المادة، أو غيّرت الشعبة، لأنها تخجل أن تُريني وجهها مرّة أخرى.

أما بالنسبة لي فرغم أنني أظهرت عدم الاكتراث، ولكنّ كنت أشعر بألم كبير، وحسرة في داخلي، ولكن لا أحب أن يرى الناس ضعفي.

وقد حدث معي أشياء مشابهة مرّات عديدة، حيث ذهبنا إلى استراحة تتضمن بركا للمياه المعدنية الحارّة، وكان هنالك حارس على بركة النساء، وكنت أقف قريبا أتحدّث مع يحيى، فنظر نحوي الحارس، وقال لي: أدخل إن أردت؟

وقبل أن أنتبه للأمر كان يحيى يمسك بي ويسحبني بعيدا.

أولّ اكتشاف؛

في الجامعة حققت الكثير من الإنجازات، وخاصة في مختبرات الأحياء، والبحث العلمي، حيث أجريت بحثا على الفيرمونات وحققت نتائج جيدة، ومن الذكريات الجميلة أننا ذهبنا إلى غابات دبّين، وبين جذور أشجار الصنوبر وجدت نباتا صغيرا زهري اللون، ويخلو من الكلوروفيل أي المادة الخضراء التي تصنع السكّر في النبات، ولهذا فالنبات متطفّل يأخذ طعامه من نبات آخر، وعرضت هذا النبات على الدكتور وكان أجنبي، فقال لي: هذا النبات لم يسبق لأحد تسجيله في المنطقة، ولهذا فأنت أول من اكتشفه في هذا الإقليم، وتم تسجيله في متحف النبات (المعشب) بإسمي.

وأنا في السنة الثالثة كان يدرّسنا دكتور أردني يريد أن يعود لأمريكا وعرض علينا شراء 50 رواية أجنبية لديه بثمن 5 دنانير فقط، وهذا مبلغ كبير بالنسبة لي، فغامرت ووافقت على الشراء، وكانت المشكلة الأولى حمل الكرتونة التي تحتوي على الكتب وتوصيلها للبيت فأنا غير قادر على حملها، وساعدني أكثر من شخص خلال انتقالي من وسيلة مواصلات لأخرى حتى وصلت البيت، وكان عليّ أن أبرر لأهلي هذه "الجريمة الكبيرة"، وأيضا لا أملك المال، ولا أملك الجرأة على طلبه من أبي، فطلبته من عابد، وبعد عدة مراحل من الإحراج، وصلت الكرتونة للبيت واستطعت أن أدفع ثمنها للدكتور، وفي أوقات الفراغ كنت اقرأ بعضها من أجل تحسين لغتي الإنجليزية.

مشكلتي مع الرياضيات!

في المدرسة لم أكن أحبّ الرياضيات، وكنت أعاني منها، وكنت أكرهها وأكره المعلّمين الذين يدرّسون الرياضيات، وقد كتبت قصيدة هجوت بها معلّم الرياضيات، وأنا في الصف الخامس.

وفي الجامعة نجحت في المادة الأولى عن التفاضل بصعوبة، ولكن رسبت في مادة التكامل، وهو أول رسوب في حياتي.

أول امتحان في الفصل كان لجميع الشعب وفي مدرّج الجامعة، وهذه الطريقة فيها كثير من الظلم ، لأن بعض الشعب يدرّسهم دكتور جيد، وبعض الشعب كان حظّهم سيئا حيث يدرّسهم دكتور ضعيف، وكان حظّنا هو الأسوأ ودكتورنا هو الأضعف، والأسئلة مشتركة، وفي الصباح اخترت مكانا في المدرّج قريبا من بعض أصدقائي المتميّزين في الرياضيات، لعلّه يتاح لي بعض المساعدة ، وجاءت طالبة جميلة جدا، وقالت لي بكلّ ودّ واحترام: حجزنا لك يا سعد مكانا بيننا في آخر المدرّج، حيث تجلس مجموعة من الطالبات، وكنّ يعتقدن أن أنني ذكيّ في الرياضيات مثل العلوم، فترددت، فأنا لا أريد أن أفقد هذا الموقع الإستراتيجي، ونظرت نحو أقرب صديق فشجّعني على الذهاب، وذهبت إلى آخر صف في المدرّج حيث جلست بينهنّ، وعندما قرأت الأسئلة شعرت أنني غير قادر على الإجابة ولا حتى على سؤال واحد، وكان بجانبي طالبة تدرس أحياء، فأعطيتها ورقتي وحلّت لي كل الأسئلة، لقد كان هذا أسوأ امتحان في حياتي.

عندما نجحت في الرياضيات قررت أن أطلّقها، وإلى الأبد، ولكن هذا لم يحدث، وقد عرفت متأخرا سبب هذه المشكلة، والقصة لم تكتمل بعد.

عملي الأول

قبل أن أتخرّج، وأنا في السنة الرابعة، تأسست مدرسة مجمّعة بجانب البلدة التي أسكنها، وذهب بعض زملائي للتدريس بها تطوّعا في بداية العام حتى يتم إكمال النقص في المعلمين، فقلت لهم: أريد أن أذهب للتدريس معكم، فنصحوني أن لا أفعل، صحيح أنهم يعرفون قدراتي العلمية، ولكنّي لا أختلف عن أي طفل في الروضة، ومعظم الطلاّب يعرفونني فهم أبناء بلدتي وكنّا نلعب معا ونحن صغار، والفرق بيننا 4 سنوات، وليس من السهل أن أقنعهم بكفاءتي في تدريسهم وتجهيزهم لامتحان الثانوية العامة، ولكنّني أصررت، ودرّست الأحياء لشعبتي الصف الثالث ثانوي علمي، واقترح المدير أن أكمل معهم الفصل، فذهبت إلى مديرية التربية وأخذت كتاب رسمي، ودرّست الطلاّب فصلا كاملا، لقد كانوا جميعا نشيطين ويريدون أن يتعلّموا، ولدى كل منهم طموحات كبيرة، إلا طالبين لديهما مخططات أخرى، ولهذا في بداية الحصّة وعند أي بادرة تشويش منها كنت أطردهما من الحصة.

وفي نهاية الفصل علّقت لهم ورقة أسئلة، ولم تكن أسئلة تقليدية، بل أسئلة ذكيّة جدا، يحتاج بعضها لربط معلومات وحدة كاملة للإجابة عليه، وعندما قرؤوها أصابتهم صدمة كبيرة وصاروا يصرخون، وهم يكادون يبكون، من أين أحضرت لنا هذه الأسئلة؟ فقلت لهم من الكتاب، فعاودوا القراءة من جديد وبنظرة جديدة، وحققوا أعلى معدّل في مديرية التربية في مادة الأحياء.

وفي نهاية الفصل الأول ذهبت لمديرية التربية للحصول لاستلام أجوري، ومررت على رئيس قسم التعليم، وقال لي: عندما تتخرج عُدّ إليّ.

أخذت المبلغ واشتريت غسّالة وعدت بها لأمي، وكان أول شيء غسل بها هو قميص أبي، لقد عرف أبي أنني لست كما كان يظن، وأنني على بداية طريق النجاح، وهذا أسعده كثيرا.

ثلاثة في ثلاثة!

بعد ولادة نارة حدثت مع أمّي مشكلات صحيّة جعلتها تسقط عددا من الأجنّة، ولكنّها راجعت الأطبّاء، وعالجت هذه المشكلة على أمل أن تتمكّن من إنجاب أخ لزاهي تتفاخر به، لأن سعد لا يعتبر ابنا يفتخر به، وهو غالبا لن يتزوّج، وإن تزوّج فلن ينجب، ولهذه فهي بحاجة لأولاد لتفرح بهم وبأحفادهم، وليستفيدوا من مزرعة أبيهم.

أبي كان صحيح الجسم، وحافظ على لياقته الصحيّة حتى آخر عام من حياته، فقد عاش حياة طبيعية، حيث يأكل من منتجاته الطبيعية من ثمار ومنتجات ألبان وبيض وعسل، إضافة إلى الصيد الكثير الذي كان يحصل عليه، وأيضا السمك كان متوفّرا بكثرة.

كل هذا إضافة إلى النشاط الدائب جعل أبي يحافظ على قدراته الجسمية، ونتيجة لهذا تكللّت جهود أميّ بولادة توأم، لأنها تناولت الكثير من الأدوية والمنشّطات، وكان أحدهما طفل ذكر هو هجرس، وأطلق عليه أبي هذا الاسم لأنه كان يحكي لنا قصّة الزير سالم وكليب وإبنه هجرس، حيث كان يحفظ الكثير من هذه الحكايات، وولدت مع هجرس بنت جاءت ضعيفة ومريضة ولديها تشوّهات، وكم حزنت عليها، لأني أعرف ما الذي ستجده لدى العناكب، وكانت فرصتي أفضل منها، لأنّي عشت بضعة سنوات قبل أن يكبروا، تمتّعت خلالها بالحياة، واكتسبت ثقتي بنفسي، ولكن هذه المسكينة ستجد العداء منذ ولادتها،

وأيضا لأن ظروفها الجسمية والصحيّة أصعب منّي فسيكون العداء ضدّها أكبر، وخاصة أنّها ولدت في السنين الأخيرة من حياة أبي، ولكن من رحمة الله أنّها توفيّت بعد ولادتها بأيّام، وبكيت عليها وأنا سعيد لأن الله اختار لها الأفضل، ولأنّ عليّ مواجهة هؤلاء العناكب وحدي، وبموتها بقي عند أمي ثلاثة أولاد، وثلاثة بنات، وغالبا كانوا يعتبرون أن عندها ولدين وثلاثة بنات، لأنّي غير محسوب.

موت أبي

رحم الله أبي، وأنا أجد له العذر، لأنه عندما وصلت إلى الجامعة كانت طاقته قد استنفذت على يحيى، ويجد زاهي الأمل الجديد، كما أنه انشغل بطفله الأخير هجرس، ولهذا لم يكن متشجّعا لأن أكمل الثانوية العامة، ولم يكن متشجّعا لأن أدرس في الجامعة، وكان يظنّ أنني لن أنجح، لأنه لو أجريت مقارنة بيني وبين يحيى، ذلك الشاب الطويل الوسيم الذي تخرّج من الجامعة بعد ثماني سنوات، أو بيني وبين زاهي، فلن تكون المقارنة في مصلحتي، ولكن عندما جاء حفل التخرّج وشاهدني في التلفزيون، وشاهد تصفيق كل الحضور لي، سعد بي كثيرا، كيف لا وأنا سعد.

العام الرابع في الجامعة كان صعبا جدّا عليّ، لقد بدأ أبي يتعب، ويرتفع ضغطه، وكثيرا ما كنّا نأخذه للمستشفى ليلا، وكان مرضه يشكّل ضغطا نفسيا شديدا عليّ، وبعد أن تخرّجت من الجامعة، وفرح بتخرّجي وعاش لأسابيع قليلة ثم أصابته جلطة، فنقلناه إلى بيت يحيى في المدينة، وبعد بضعة أيام انتقل إلى رحمة الله، في اليوم الذي حدثت به مذبحة صبرا وشاتيلا، وأقيم بيت عزاء كبير، ولم أجرؤ أن أقف أستقبل الناس، إلا من

يعرفني، لأنّهم سوف يتخطونني وربّما يمسحون على رأسـي وهـم يظنّـوّن أنني طفل صغير.

وقبل التخرّج بأسابيع وجدت الجامعة نفسها في مـشكلة، حيـث لا يوجد ثوب جامعي على مقاسي، فاضطروا لأخذي إلى الخياط لتعـديل ثوب بما يناسب طولي.

وقد بذلت جهدي في منح هجرس كل ما أستطيع مـن الحنـان في محاولة لتعويض فقدان الأب، وعلى أمل أن لا يكون هو أيـضا عنكبـوت آخر.

العودة للثانوية

عدت لرئيس القسم في التربية، فسألني: هـل تقبـل أن تـدرّس في المدرسة الثانوية على حساب التعليـم الإضـافي بـشكل مؤقـت؟ فوافقـت على الفور.

فقال: اذهب، وهذه المدرسة لا تبعد عن مكتب التربيـة إلا خمـس دقائق مشيا على الأقدام.

قلت: نعـم، وأنـا أعـرف معنـى أن أذهـب للثانويـة معلّمـا، أنـا جسمي صغير مثل طفل، وسوف أدرّس طلابا في الـصف الثـاني ثـانوي، جاءوا من مناطق شتّى، والشعبة تحتوي على 40-50 طالبـا، وهـذه أكـبر مدرسـة في المنطقـة، وعليهـا تـسلّط العيـون، وأنـا تخرّجـت منهـا منـذ 4 سنوات، ومعظم المعلّمـين الـذين درّسـوني مـا زالـوا فيهـا، وهـم أقـوى معلّمين في المنطقة، وهذه المدرسة كلّ عام تحقق أعلـى النتـائج في الثانويـة العامة.

كل هذه الأفكار كانت تتوارد على ذهني وأنا أمشي صاعدا التل نحو الثانوية، ودخلت بكلّ ثقة إلى المدير، ولم أكن أعرفه سابقا، فرحّب بي، لقد جاءه هاتف قبل أن أصل، وبعد دقائق جاء مدير التربية، ورئيس قسم الموظفين، ورئيس قسم التعليم، أي أقطاب مديرية التربية جاءوا من أجلي، ودخلوا معي إلى الصفوف التي سأدرّسها وكانت 12 شعبة، وكان معهم مدير المدرسة والسكرتير، وكان شخصا يبدو في غاية الشر، ولكنه على العكس تماما، لقد كان أسمه شفيق، وهو أسم على مسمّى، وفي إحدى الشعب، بدرت من أحد الطلاّب بداية ضحكة، فأمسكه شفيق وألقاه على ألأرض، وأشبعه ضربا، أمام الجميع، وبدأت العمل، لقد كنت مستعدا لكل شيء، وأعتقد أنني نجحت لمستوى جيد، ولكن كان العمل متعبا، يجب أن أعيد نفس الدرس 12 مرّة، وصرت أجلس مع معلّم الأحياء الذي كان يدرّسني قبل سنوات قليلة على طاولة واحدة، وصار أساتذتي قبل سنوات زملائي وأصدقائي الآن، وفي نهاية الشهر جاء معلّم رسمي تم نقله من مدرسة أخرى.

عندما صرت موظفا في وزارة التربية

بعد أن غادرت المدرسة عدت إلى ذلك الرجل الطيّب، المسؤول في مديرية التربية، واسمه رفاعي، وكان هذا يوم خميس، فأخذني بسيّارته للدائرة العامة، المسؤولة عن كل مديريات التربية في منطقة شمال الأردن، والمدير العام له صلاحيّات في التعيين، ودخلنا على مدير شؤون الموظّفين، وقال له رفاعي: هذا الرّجل يجب أن يوظّف في وزارة التربية، فوجّه المدير كلامه نحوي وقال لي: تعال صباح السبت، وانتهت المقابلة.

في الساعة الثامنة من صباح السبت كنت عند المدير، وصادف هذا دخول المدير العام، وكان شخص ذا هيبة كبيرة، فقال لي المدير: هذا المدير العام أتبعه، فتبعته ودخل مكتب السكرتيرة ولحقت به ودخلت مكتبه، والسكرتيرة ظنّت أنني ابنه فلم تسألني شيئا، وأنا لم أعرها اهتماما، جلس المدير على مكتبه فوجدني جالسا على المقعد أمامه، وقبل أن يسألني شيئا كان مدير شؤون الموظفين يتّصل به ويخبره عنّي، فرحّب بي، وأرسلني إلى مدير التعليم، وقال عندك خيارات عديدة، أن تعمل هنا في الدائرة العامة، وهي تمثّل الوزارة ومسؤولة عن ثلث مدارس الأردن، أو تذهب لأي مكتب تربية يتبع لنا، أو إلى المدارس، فقلت له: بل أبقى عندكم، فأرسلني لرئيس قسم الوسائل التعليمية، وكان معلّم علوم قديم، وذو خبرة كبيرة، فأحضر مجهر من المستودع، جاء حديثا من الوزارة، وكان مفكّكا، فطلب منّي تركيبه، ففعلت، وأصدر مدير التربية كتاب تعييني، ولكن يجب أن يثبت في الوزارة.

في اليوم التالي ذهبت أنا ويحيى إلى الوزارة إلى صديق له يعمل رئيس قسم هناك، فقام بكل الإجراءات، ولكن الأمين العام طلب أن يراني، فدخلت إليه، وتحدّث معي، وأخذت كتاب تعييني، ولكن أخبروني أن هناك شيئا يسمّى ديوان الموظّفين، وعلّي مراجعته، وذهبنا للديوان وسلّمناهم كتاب التعيين، فأكملوا المعاملة، وأخذت كتابي، وفي يوم الاثنين كنت موظّفا في قسم الوسائل التعليمية، ومسؤولا عن المختبرات المدرسية في مئات المدارس، ولكن بقي علّي أن أراجع اللجان الطبيّة، وهنا كان الخوف يتملّكني، ولكن من حسن حظّي، ومن لطف ربّي، كان الأطباء طيّبين، وقال كبيرهم: يجب علينا أن نساعد هذا الشاب

على العمل، وأمسكوا بنظام الخدمة، وبدؤوا بقراءته كاملا لإيجاد أي شيء يمكن الاستناد إليه، ولم يطل الأمر، وأخذت الموافقة الطبيّة.

أول مبلغ كبير أحصل عليه

استلمت شيكا لقاء عملي في التدريس الإضافي من مديرية التربية، وكان مبلغا ضخما بحساب تلك الأيام، يعادل راتب موظّف عادي لشهرين، وهو 166 دينار، دخلت البنك المركزي لصرف الشيك، لقد كان شبّاك البنك أعلى منّي، وبصعوبة انتبه لي الموظّف، فقدّمت له الشيك فنظر لي بريبة، وطلب هويّتي، واستلمت المبلغ، وذهبت للسوق واشتريت أول جاكيت لي، جاكيت حقيقي، جديد، ولم أسلم من انتقاد أهلي وأنه لا بد أن البائع غلبني، وأنني لست في حاجة لهذا الترف، وحقيقة طيلة حياتي كان البائعون أرحم من أهلي، وخاصة عندما اشتريت موقد الغاز لأمّي.

لقد تلف موقد الغاز في بيتنا، وحقيقة لم يكن في بيتنا الكثير من الأثاث، لأن أبي كان كبيرا في السن، ومشغولا بمشاكل العشيرة، فقررت أن أخوض مغامرة أعرف أنها خطيرة جدا، ولكن فعلتها، اشتريت موقد غاز إيطالي لأمّي ببعض المبلغ، وأوصلته للبيت، وهنا غضبت، وكنت أتوقّع هذا، وقالت لا بد أن البائع ضحك عليك، وفي اليوم التالي ذهبت للمدينة، ودخلت إلى المحلّ الذي اشتريت منه وسألت عن ثمن نفس الموقد فأعطاها سعرا أعلى من الذي اشتريت به، رغم عدة محاولات لتخفيض السعر، عندها قالت له: لماذا بعته أمس لذلك "الولد" بسعر أقل؟

فقال لها: لقد أحببته، وبعته بسعر الكلفة، وعادت للبيت، وأخبرتنا بما حدث، وكنت مسرورا بهذا الأمر.

أنا مسؤول!

لقد بدأت في تحقيق بعض الطموحات، ولكن أمامي كثير من التحدّيات.

لقد كان معظم العاملين في الدائرة العامة من كبار السنّ، وكان معظمهم يتميّز باللطف والتواضع والاحترام، إلا القليل منهم، وهؤلاء لي معهم كثير من القصص.

صرت أذهب لزيارة المدارس وتفقّد المختبرات والمكتبات، وكنت أزورهم بصفتي موظّفا عند ذلك الرجل القويّ والمهيب، وهو المدير العام أبو القاسم، وهذا كان يجعل كل الأبواب تفتح أمامي، حتى مدراء التربية كانوا يتعاونون معي في كل ما أطلبه، ولكن، لم أنسى أنني قصير القامة، صغير الجسم، من يراني يظنّ أنني طالب في الروضة أو الصف الأول، وكنت أركب سيارة التربية وينزلوني وحدي في مدرسة ثانوية في مدينة المفرق، أو في قرى جرش أو عجلون، وأدخل إلى المدرسة وحدي، وهناك كنت أدخل بكلّ ثقة على مدير المدرسة، وأتجاهل بعض السخرية واللمز التي قد أجدها من الطلاّب، وأعرّفه بنفسي، ووظيفتي، فيأخذني للمختبر، وهو غير واثق من قدرتي على أن أفعل شيئا، ولكن بسرعة اكتسبت الكثير من الثقة، حيث كنت أدخل المختبرات، ليس بصفتي مفتّشا ابحث عن السلبيات، ولكن بصفتي أخ أكبر يقدّم النصح والمساعدة، كنت أدرّب المعلّمين وقيمي المختبرات على الأجهزة التي كانت بحوزتهم، وأقوم بعمل بعض الصيانة الأولية للأجهزة المعطّلة، وأركّز على الإيجابيات، وأنصحهم بالسرّ على تجاوز السلبيات، ثم بدأت أشارك في الدورات، وهذه أتاحت لي أن ألتقي مع مشرفي المواد العلمية، ومعلمي العلوم وقيمي المختبرات، ومدراء التربية، والمسؤولين في الوزارة، واستطعت أن

أكسب احترام الجميع وثقتهم سريعا، ولكنّي لم أحقق احترامي الذاتي، لأن هذه الأعمال لا أعتبرها إنجازا، حتّى أنني كنت أستحي من أن أدخل لمكتب المدير العام حتى لتهنئته بالأعياد، ولم أدخل مكتبه إلا يوم تعييني ويوم توديعه عندما نقل إلى الوزارة.

ولكنّي قمت بأعمال ساعدت في حلّ بعض المشكلات التي واجهت الوزارة، لقد اشترت الوزارة مئات من أجهزة العرض العلوي، ووجدوا أن بعض القطع ناقصة، والشركة تصرّ أنها أرسلت الأجهزة كاملة، وحتى لا تبقى الأجهزة في مستودعات الوزارة تم توزيعها علينا، حتى يتم حل الإشكال، وبمجرّد أن استلمت حصّة دائرتنا فتحت أحد الأجهزة لتركيبه، ووجدت القطع مخبأة داخل الجهاز، فأخبرت الوزارة، وحللت المشكلة، وكان نجاحا كبيرا لي إذ ساعدت الوزارة في حل مشكلة صعبة، ومن وقتها بدأت علاقة قوية بيني وبين بعض المديريات في الوزارة مبنيّة على الاحترام والتعاون.

كما قلت سابقا، لقد بنيت علاقة مع المعلّمين وقيمي المختبرات أساسها الثقة والاحترام وتقديم أقصى ما أستطيع من مساعدة لهم، ولهذا أحبّوني، وكان هذا من مصادر قوّتي حتى لو فكّر مسؤول بالاصطدام معي سيجد المئات يقفوا في صفّي.

خبير تشغيل فيديو !

ومن الأعمال "المهمّة" التي قمت بها أثناء عملي في تلك الفترة هو وظيفة "خبير تشغيل فيديو" أو مختص تشغيل فيديو، حيث كانت أجهزة الفيديو قليلة في وزارة التربية، وكان يعقد في الصيف دورات لمعلمي الصفوف من الأول إلى سادس، وكانت كلّ دورة تتضمن عرض دروس

نموذجية، وبما أن أجهزة الفيديو في عهدتنا، ونحن المسؤولين عنها، ونعرف كيفية تشغيلها، كان يتم تكليفنا في العمل في الدورات من أجل تشغيل أجهزة الفيديو، وقد يطلب منّا في بعض الأحيان إعادة الشريط إلى الوراء قليلا، لإعادة عرض أحد المقاطع، وكنّا نأخذ أجرا كمدرّبين، ونحظى بضيافة وتدليل من مدير الدورة، والمدرّبين.

فشل أليم وراءه خير عظيم!

عندما استقرّ بي الحال موظّفا فكّرت في الرجوع إلى الجامعة، وحقيقة لو أن أهلي كان لديهم أدنى اهتمام بي، لأرسلوني لأفضل الجامعات لإكمال الدراسة، ولكن بعضهم يتمنّى أن لا يراني في حياته، والآخر يراني مجرّد بقرة حلوب، وسجلّت للحصول على شهادة الماجستير، وبحثت عن دكتور أدرس لديه فلم أجد دكتورا عربيا واحدا يقبلني، حيث أن كل منهم انتقى عددا من البنات، وسألت بعض الدكاترة الأجانب، وقالوا نحن نرحّب بك، ولكن عقودنا سنوية، ولا نريد أن نقطعك في منتصف الطريق، ولهذا اتفق مع أي دكتور عربي يكمل معك إن سافرنا، ولم يقبل أي دكتور عربي بهذا العرض أيضا.

وقلت في نفسي سأبدأ بأخذ المساقات المطلوبة وأبحث عمّن يقبل بي، وكان وقت المحاضرات بعد نهاية الدوام في المساء، ولكن ومن اليوم الأوّل جاء الدكتور وعمل استفتاء لتغيير وقت المحاضرات للفترة الصباحية، وكنّا عدد قليل من الشباب غير المتفرّغين، وعدد كبير من البنات المتفرّغات، فقرر الدكتور نقل الموعد للفترة الصباحية!

مشكلة أخرى هي قلة الكتب التي نحتاجها في مكتبة الجامعة، وكان هناك دكتور جديد أستعار الكتب من مكتبة الجامعة وأحتكرها لنفسه، ولم يكن يعيرها إلا للبنات!

وحاولت أخذ الإجازات والمغادرات، ولكنت نفذت بسرعة، وكان القرار الإجباري هو ترك الدراسة.

والآن عندما أنظر للموضوع أقول لو أنني درست ماجستير أحياء وأكملت الدراسة لكنت دكتور جامعة عاديا، ولكن والحمد لله حققت نجاحات في مجالات كثيرة.

بعض الناس لا يحترمون إلا من يوجد قبل اسمه حرف "د"، مهما كان مصدرها، وأنا لو نظرت إلى بعض أعمالي فإن كتابي الأول أستهلك خمسة سنوات من البحث العلمي، وسنة كتابة ومراجعة ورسم، وحصل على أعلى جائزة علمية في الأردن، وهو مرجع مهم في التعليم، وطبع أكثر من ستّ مرّات، وما زال يطبع حتى الآن بعد 20 عاما على صدور الطبعة الأولى، وهذا الكتاب يستحق أكثر من ماجستير ودكتوراه.

ثم كتابي في الإلكترونيات أيضا عملت عليه لسنوات ولا يوجد كتاب عربي يوازيه في هذا العلم، وغيره، وغيره، ولكن بقيت مشكلة حرف "د" ، حتى تم حلّها منذ سنوات بالحصول على دكتوراه فخرية من مؤسسة دولية قدّمت لها قائمة بإنجازاتي ومنحتني بناء عليها دكتوراه فخرية.

تأديب المزعجين

لقد كان عدد قليل من الموظّفين في الدائرة من الخبثاء، أو الأغبياء، ومنهم أبو وهبي، لقد كان مغرورا لدرجة كبيرة، حتى أن رئيس

قسمنا كان قبيل نهاية الدوام، يقول لنا: نريد أن نضحك ونتسلّى قليلا، نادوا أبو وهبي، وكان يعمل على تضخيمه، وهذا الغبي كان يصدّق، ويقول له: إذا أعادوا البرلمان عليك أن ترشّح نفسك، فأنت شخص عظيم، والحقيقة أن أبو وهبي وبعد ذلك بسنوات ترشّح مرّتين، ولم ينتخبه أحد إلا زوجته.

هذا الشخص كان يسخر منّي أحيانا، ويقول لي: عندي أرض مطلّة على نهر اليرموك أريد أن أبيعها لك بخمسين دينارا للدونم، وأقول له: وما حاجتي للأرض، ثم إني موظّف جديد لم أستلم راتبي بعد، ولكنّه كان يكرر هذا الأمر كثيرا، حتى سمع هذا الكلام موظّف آخر يملك الكثير من المال، فجاء وأعطاني مبلغا ضخما وقال لي أذهب إليه، أخفيت المبلغ بين ملابسي وذهبت إليه، وقلت له: أما زلت تريد أن تبيعني الأرض، فقال نعم، بشرط أن تدفع المال الآن، فدخل عدد من رؤساء الأقسام ومعهم الذي أعطاني المال، وقالوا له: يا أبو وهبي، هل كلامك كلام رجال؟ فقال نعم، فأخرجت المال ووضعته أمامه، فأصيب بالذهول، وتراجع عن كلامه، وتعرّض لسخرية الجميع.

شخص آخر كان مزعجا هو رئيس الديوان، لقد كان مغرورا لدرجة كبيرة، وكانت تأتيهم كل يوم 3 جرائد يقرؤونها ويأكلون عليها، ويحلّون الكلمات المتقاطعة، وما بقي منها يرسلوه إلى قسمنا لنحتفظ به في المكتبة، وبعد عامين امتلأت كل زوايا المكتبة بالجرائد القديمة، وانتشرت الصراصير بسبب بقايا الطعام الذي كان عليها، فقررت أن أتخلّص منها.

زارنا أحد رؤساء الأقسام وعنده مزرعة دجاج، فقلت له هل تأخذ هذه الجرائد لتضعها تحت الدجاج، فقال: ألا يوجد في هذا مسؤولية؟ قلت له: لا تهتم سأتكفّل بالأمر، وقلت لأمين المكتبة المسؤول

الحقيقي عن هذا الأمر، دع الأمر في رقبتي، وتخلّصنا من كمية هائلة من الجرائد ونظفت القاعة.

وبعد أيام تبرّع أحد الموظّفين وأبلغ رئيس الديوان بالأمر، فطلبوني للجنة تحقيق مكوّنة من رئيس الديوان، ورئيس قسم الإجراءات، ومساعد المدير، وكنت قد استشرت موظفا يحمل شهادة بالحقوق، وعندما اجتمعت بهم قلت لرئيس الديوان: هل لديك وثيقة رسمية تثبت أنّني قد استلمت هذه الجرائد، أو استلمها أمين المكتبة؟ وهنا أسقط في يده، واضطروا لإقفال الموضوع حتى لا تقع المسؤولية على ذلك الغبي، وبلع المقلب، وعرف حجمه.

وأثناء مروري في السوق أوقفني شخص لا أذكر أنني رأيته سابقا، وسلّم عليّ، وطلب منّي موعدا للمقابلة، وعرفت أنه ثقيل الظل، ولم يبيّن لي سببا لهذه المقابلة، فقررت التخلّص منه بعد أن ألحّ عليّ أن أحدد له موعدا للمقابلة، فقلت له: أنا موافق على المقابلة في يوم 31 / 2 فشكرني كثيرا، ثم فهم الأمر، لأن هذا اليوم لا يوجد نهائيا، ونظرت في عينيه، وقلت: نعم، بالضبط!

دخولي للإسلام مرّة أخرى

قامت الدائرة بتخصيص مبلغ كبير لشراء كتب للمكتبة التي يجري تأسيسها في المديرية، وكانت هذه فرصة كبيرة لي، فعرضت على زميلي مسؤول المكتبات، ورئيس القسم أن أتكفّل بهذا العمل، فوافقوا بسرعة، لقد وجدوا غبيّا يحمل عنهم هذا العبء الكبير، هذا ما كان يدور في أذهانهم، ولكن لم يكن يهمنّي.

جمعت قوائم بالكتب من المكتبات المنتشرة في السوق، وفكرّت بماذا أبدأ، وما هي الكتب التي سأختارها، سرح ذهني إلى سنوات سابقة بعيدة، وعرفت أن معلوماتي في الإسلام قليلة، ولا أصمد أمام أدنى مناقشة، ولا أستطيع أن أدافع عن ديني ومعتقدي، ورجعت إلى فترة المدرسة، لقد كانت ثقافة المعلّمين الدينية قليلة، وخاصة معلّمي الوكالة ، كان يقرأ لنا المعلّم أن الصلاة تتضمن الركوع والسجود، ولم أعرف ما هو الركوع، هل هي الخطوة التي تبدأ بعد قراءة القرآن ويقولون بها سبحان ربيّ العظيم، أم عندما يضعون رؤوسهم على الأرض؟ وهذا لم يعجبني، وطلبت من زوجة أبي أن تعلّمني الصلاة، وفعَلَت، ولها فضل كبير علّي في هذا، وأجرها لا بد عظيم، ولكن هي امرأة كبيرة في السن، ولا تعرف كلّ شيء عن الصلاة، فذهبت إلى اربد واشتريت كتاب "تعليم الصلاة" للشيخ محمّد محمّد الصوّاف، وتعلّمت الصلاة على أصولها، وفي أوّل يوم جمعة جهّزت نفسي ودخلت إلى المسجد، فرآني رجل عجوز في المدخل وطردني، ولم أعد إلى المسجد إلا بعد زمن طويل، عندما ذهبت مجموعة من زملائي في الصف إلى المسجد، فاختفيت بينهم ودخلت، وصرت أصلّي في المسجد، وأصلّي في أهلي إماما في البيت.

ولكن عندما دخلت الجامعة، وأكثر طلاّبها لا يعرفون الصلاة، وخاصة الطلاب الذي جاؤوا من الضفة الغربية، والمخيّمات، معظمهم يساريين.

لقد كنت أضع وقت المختبرات الطويل والعودة للبيت متعبا مبررا لتقصيري في الصلاة، رغم أن أبي كان يشجّعني كثيرا كي أُصلّي، ودرست مادة التطوّر عند دكتور أمريكي، كنت أناقشه أحيانا، وأعترض

عليه أحيانا أخرى، وأنجح في إفحامه في بعـض المحـاولات، ولكنّـي كنـت أفتقد للثقافة الكافية للوقوف في وجه هذا الكفر.

وهنـا أخـذت قـوائم الكتـب وكانـت الأولويـة لكتـب العقيـدة، ومقارنات الأديان، وقصص الناس الذين أسلموا مثل عبـد الأحـد داود، وغير ذلك، واشتريت كتبا في العلوم والآداب، ومختلف المواضـيع، ولكـن النسبة الأكبر لكتب العقيدة.

وهنا وضعت كلّ معتقداتي السابقة جانبا، كنت أقول أنـا مـسلم على قاعدة "هكذا وجدنا آباءنـا"، ولكـن لـو نظرنـا في هـذا العـالم نجـد أن النصارى أكثر من المسلمين، وكذلك البوذيين، فماذا يمنـع أن يكونـوا هـم على حق ونحن على باطل؟

بـدأت مـن الـصفر، بـدماغ خـال مـن أي مواقـف أو خيـارات، وقرأت عن كل الأديان، وقرأت في العقيدة، وكل ما يثبت نبوّة محمد عليـه الصلاة والسلام، ودخلت في الإسلام من جديـد، عـن قناعـة، مثـل غـير المسلمين الذين يدخلون في الإسلام، ولكن هذا لا يعني أنني أزكّي نفـسي، لا بالعكس، فذنوبي كثيرة، وما يجعلني أطمع بـدخول الجنّـة لـيس عملـي من صلاة وصيام، بل صبري على البلاء.

زواج زاهي

خلال عام من عملي وفرت جزء كبير من راتـبي، لأنـني تعـوّدت على التقشّف، فأنا أدفع المواصلات، وثمن شـطيرة فلافـل، هـذا كـل مـا كنت أنفقه، وفكرت يوما بدخول مطعم لتناول بعـض الطعـام فلـم ينتبـه لي، أو أهملني، وخرجت دون أن يشعر بـي، وذهبـت واشـتريت شـطيرة فلافل، حتى أنني عندما كنت أدخل إلى مخبز لشراء بعض الخبـز، أو دكّـان

كانت الأولوية "للكبار"، أما الأطفال، حيث كانوا يظّنوني طفلا فعليهم أن يتأخروا، أخزى الله كل الكبار أمثال هؤلاء، لقد كانت هذه المشكلة مصدر معاناة كبيرة لي، وقد سمعت زميل في التربية سافر كثيرا يقول أننا لن نتحضّر إلا عندما يأخذ الطفل الخبز على دوره، لا أن يأتي رجل كبير ويأخذ قبله، وتكون الأولوية له أكثر إن كان معه سيّارة أوقفها أمام المخبز أو المحل.

لقد اقترب زواج زاهي والبيت لا يتّسع، فكان القرار أن نبني غرفتين إضافيتين، فأنفقت المبلغ الذي وفّرته على البناء، وفي ذلك العام كان ناتج المزرعة كبيرا جدا، فعملوا عرسا ضخما، وذبحت الذبائح مثل عرس يحيى وأكثر، ولكن ماذا كان وضعي في ذلك الوقت؟

لم يكن بإمكاني أن أشارك في الحفل، كان هناك أصدقاء يسألون عنّي، ولكن كان بعضهم لا يؤمن جانبه، أحدهم الذي قال لي مرّة ليس لك مستقبل، خشيت أن يسمعوني كلاما يجرحني أكثر، يحرق قلبي أكثر، ها هو أخوك الصغير قد تزوّج وأنت لا تحلم بالزواج، لا تحلم أن تسمع يوما ما كلمة خطيبتي، زوجتي، بيتي، زوجة سعد، بيت سعد، هذه كلّها أحلام بعيدة التحقيق، ولهذا كنت أنزوي بعيدا، وأحيانا أصعد إلى سطح البيت وأبكي، ولم أجد أحدا يمسح دمعتي إلا جارنا المصري، ذهبت لبيته لطلب مساعدته في شيء، فأحسّ بي، وحاول جهده أن يخفف من ألمي، وكذلك ابن عمّي عابد، حيث قال لي: سيأتي دورك يا سعد وتتزوج.

عمّتي ونيران صديقة!

بعد زواج زاهي زرنا إحدى عمّاتنا في العيد، وكانت تشعر بفرحة غامرة بزيارة ابن أخيها وزوجته، ومن شدّة فرحها مرّت من جانبي

دون أن تشعر بوجودي، وتوقّفت عند العروسين وقدّمت لهما القهوة والحلوى ثم أمّي، وباقي العائلة، وجلست تنظر وتعبّر عن إعجابها بهم، وانشغلت بالحديث معهم، ونسيتني تماما!

غضبت، حزنت، هذا لا يهمّ زاهي على سبيل التأكيد، بل يسعده، أما باقي العائلة فلست قادرا على الحكم على تفاعلهم مع هذا الحدث، ولكن عمّتي شعرت بأنها أخطأت بحقّي عن غير قصد، وبكت، وأنا أصدّقها، حسب معرفتي السابقة واللاحقة بها، وحاولت الاعتذار بكل ما أوتيت من قوّة، وأنا أعذرتها، ولكن لم أسامح العائلة، لأنها أخطأت عن غير قصد، وهم سكتوا ولم يشعروها بخطئها، وربّما بعضهم فعل هذا عن قصد.

عوالم متوازية!

في أحد أيام الشتاء كنت واقفا على الطريق يلفحني الهواء البارد، وأحاول أن أحمي نفسي من المطر بواسطة المظلّة التي يطيّرها الريح، فمرّ زاهي أمامي بسيارته الحمراء الجميلة التي دفعت نصف ثمنها من راتبي لعّل هذا يغيّر من طريقة تفكيره، وكان يتكئ على باب السيارة ويقود بيده اليسرى، ويمسك كأسا من الشاي بيده اليمنى، والتدفئة تحت قدميه، فنظر نحوي نظرة استعلاء واستكبار، فهمت منها أنه يقول: أنا خير منك، أنظر أين أنا وأين أنت، لقد أشعل نار قلبي وأنساني البرد حولي.

ثم قاموا بشراء جرار زراعي صغير للمزرعة، وقلت هذه فرصتي لقيادة هذا الجرار، وخاصة وأنّهم يضعون عوائق أمام قيادتي السيارة، فتعلّمت سريعا قيادة الجرار، وجرّبت نفسي في الحراثة في أرض بور لأنهم قالوا لي لا نسمح لك بالعمل بين الأشجار لأنك قد تؤذي

نفسك!، وكذلك قدت الجرار وملحق به عربة مليئة بالثمار والعمّال من آخر المزرعة، ومررت على عوائق صعبة مثل قنوات الماء فاجتزتها بسهولة، وهنا قرروا منعي تماما من قيادة الجرّار، حتى لا ترتفع معنويّاتي وثقتي بنفسي.

ومن كثرة ما تعرّضت للأذى كنت أمسحه من ذاكرتي فورا، لأنه لو بقي في ذاكرتي لأتلفها، وربما لهذا السبب تحمّلت الكثير.

حياتي كانت تتضمن خطين متوازيين لا يلتقيان أبدا، ولم يلتقيان حتى هذه الساعة، في المدرسة، في الجامعة، في الوظيفة كنت دائما في المقدّمة، أحصل على أفضل الفرص، وتفتح لي كل الأبواب، ويسارع الناس للتقرّب منّي واحترامي، أما في بيتي، فالأمر مختلف تماما.

مرحلة وظيفية جديدة

بعد ثلاث سنوات في الدائرة العامة تم إلغاؤها تماما، وربط مكاتب التربية مع الوزارة مباشرة، وتم نقلي إلى مكتب تربية اربد، ودائما كان الحظّ بجانبي في العمل، لقد وضعوا خمس موظّفين في قسم تقنيات التعليم في الدائرة الثانية في وحدات المختبرات والوسائل التعليمية وغيرها، ووضعوني أنا فقط في الدائرة الأولى مسؤولا عن كل هذه الوحدات، لقد كان أولئك الأشخاص لديهم واسطة، لأن المبنى هناك كان أحدث والظروف أحسن، ولكن هذا كان من حظّي.

لقد كنت مسؤولا عن المختبرات المدرسية، والوسائل التعليمية، والتصوير الثابت والفيديو، وغير ذلك، وكنت أقوم بكلّ هذا، وأيضا أمارس أعمالا إبداعية في مجال تقنيات التعليم، وفي أحد الأيام عدت لمكتبي من زيارة عمل، كان في الزاوية يجري نسخ أشرطة فيديو، وهناك

وسائل تعليمية يجري تصنيعها، وعلى الطاولة أجهزة أقوم بصيانتها، ومعي شطيرة فلافل آكلها وأنا أعمل، ودخل المدير وقال ضاحكا: كل هذا العمل وطعامك شطيرة فلافل، فكيف لو كان شاورما؟

ضحكنا قليلا وغادر لمكتبه.

قضيت في هذا العمل المتعب جدا، والممتع جدا، عامين، اكتسبت الكثير من الخبرات في كل مجالات تقنيات التعليم، وفي أحد الأيام أنهيت عملي وجلست مع زملاء من قسم مجاور، ومرّ علينا مدير التربية، وقال لي: مبروك، وأكمل طريقه، وهنا بدأت أتساءل، ماذا يقصد المدير بكلمة مبروك، فقال لي بعض الموظّفين، مبروك تعني أنك ستصير رئيس قسم.

قلت في نفسي رئيس قسم، ولم أكمل 5 سنوات في العمل، وغيري أكمل 15 عاما ولم يتح له أن يكون رئيس قسم!

بعد أيام جاء كتاب بتعييني رئيس قسم في مديرية تربية قريبة من مزرعتنا، وبجانب مدرستي الابتدائية القديمة، لقد كان مدير التربية هناك هو مديري عندما كنت طالبا في المرحلة الإعدادية، ومديري أيضا عندما كنت معلّما على حساب التعليم الإضافي، ولهذا هو يعرفني جيدا، فاختارني رئيسا لقسم التقنيات في هذه المديرية الناشئة، ولم أسمع من عائلتي كلمة تهنئة واحدة، بل كانوا يشككون بقدرتي على إدارة القسم.

وكان هناك بعض مصادر الإحراج، لقد عيّنوا عندي موظّفين بعضهم كان زميلي وأكبر منّي عمرا بما يزيد عن 15 عاما، وكنت أستحي منهم، ولكنّهم تقبّلوا الوضع، وبدأت في تأسيس هذا القسم، وحققت الكثير من النجاح.

جنّتي الصغيرة التي أهرب إليها!

في تلك الفترة أردت سد النقص في أثاث بيتنا، فقد كـان الأثـاث بسيطا، فذهبت إلى النجّار، وأعطيته تصميم مكتبة مـن ثـلاث قطـع، مـن أجل أن أحفظ الكتب الكثيرة التي عندي، وبعد أيّام أرسل النجّـار المكتبـة مع سائق شاحنة، حيث أنـزل القطـع في سـاحة البيـت، وغـادر، وعنـدما رأت أميّ هذه القطع ظنّت أنها ثلاث مكتبات منفـصلة، فغـضبت علـيّ، وبعد ساعات وأنـا في ضـيق جـاء يحيـى، وكـان مـن حـسن حظّـي، لأن زياراته لنا كانت قليلة ومتباعدة، فقلت له: أسـعفني، فقـام يحيـى وركّـب القطـع وظهـر الـشكل النهـائي للمكتبـة، وهنـا ارتاحـت أمـيّ، وانتهـت المشكلة، وصارت هذه المكتبة بمثابة الكهف الدافئ الذي أهـرب إليـه مـن أذى البشر.

عندما كانت تضيق علّي الدنيا كنت أذهب إليها وأقـرأ في كتـاب "حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح" لابـن القـيّم رحمـه الله، فـأقرأ عـن الجنّـة والنار، وأتذكّر حقارة هذه الدنيا، وأن كل ما أخسره فيها لا يساوي شيئا، وكلّ ألم ومعاناة أشعر به سوف يكتب لي به أجر عظيم يبعدني عن النـار، ويقرّبني إلى الجنّة، فترتاح نفسي.

وكنت أقرأ أيضا في كتاب "في ظلال القرآن" لسيد قطب رحمـه الله، وصحيح البخاري، وغيرها من الكتب الدينية والعلمية.

ولكن أذى نارة لا يتوقّف، وجنونها ليس له حد، وتعامل النـاس بكبر واستعلاء، أما أنا فإن آلامي ومشاعري ومعاناتي لا تهمّها من قليـل أو بعيد، وقد ظهر هذا جليا في ذلك اليـوم الـذي أخـذت بـه إجـازة مـن العمل، وذهبت لطبيب الأسنان لأن أحد أضراسي كـان ملتهبـا، ومؤلمـا، ولم أتمكّن من النوم طيلة الليل من شدة الألم، وصرف لي الطبيـب نـوعين

من المضادات الحيوية وبعض المسكّنات التي لم تنجح في تسكين ألمي، وعدت للبيت، واستلقيت على فراشي لعلّي أنام، ولكن نارة وضعت جهاز التسجيل على كرسي قريبا منّي ورفعت شدّة الصوت لأعلى مستوى.

رجوتها أن تخفف الصوت على الأقل، أو تأخذ جهاز التسجيل بعيدا، ولكنّها رفضت، ولم تجد أحدا في البيت يقول لها: كفى، فقمت غاضبا، ووضعت الشريط على حافة الباب وضربته بكلّ قوّة وحطّمت الشريط، وثارت ثائرة نارة، ولم أتمكّن من النوم إلا بعد وقت طويل.

إلى المكان الذي أحبّه

بعد عامين من عملي كرئيس قسم تم تأسيس مركز مصادر التعلّم في المدينة، وصرت مهتما جدا بالعمل به، لأن به مختبرات، وهذا المكان الذي أعشقه، وشاركت في دورة في الوزارة، وكان رئيس القسم صديقا لي فطلب من الأمين العام الذي افتتح الدورة أن ينقلني إلى المركز، وهذا ما حدث، واستلمت المختبرات.

الكل سخر منّي وعنّفني، تترك "منصب" رئيس قسم وتعود موظّف، مجرّد موظّف؟ ، طبعا لن يفهموني مهما قدّمت لهم من تبريرات، لقد كان هذا القرار من أهم القرارات في حياتي.

لم أنتظر عطاء الأجهزة المخبرية الخاصة بالمختبر، بل ومن خلال علاقاتي مع أمين مستودع الوزارة، حصلت على كثير من الأجهزة وبعضها كان مخصصا لمديرية المناهج، وبحثت في المدارس، وأخذت الأجهزة الزائدة عندهم، وقد عقدت الكثير من الدورات، وعملت تغييرا كبيرا في مجال المختبرات المدرسية.

أول كتاب وورم في الدماغ!

بعد أن استرجعت ذاكرتي في بداية عام 1992م، بدأت الحياة بنظرة جديدة ، وبهمّة ونشاط ودافعية وثقة بالنفس أكثر من ذي قبل، رغم أنني أتلقّى علاجا بشكل يومي، ولا أعرف إلى أين سيوصلني هذا العلاج، أو بالأصح ما الذي يأمل الطبيب الوصول إليه.

فكّرت في عمل كتاب أنا وزميلي، وأخبرنا بعض الزملاء، وكان كلامنا يتراوح بين الأمل وبين ضعف الثقة وانتظار السخرية منهم، ولكن بعد ذلك وجدت زميلي غير جاد، وقررت العمل لوحدي، حيث قمت بتوثيق التجارب والأجهزة التي طوّرتها، ووجدت الكثير من الأشياء المفيدة ضمن مجال كتابي في بعض الدوريات العلمية الأجنبية، فعملت على ترجمتها ثم تطبيقها ثم تعديلها بما يناسب إمكانياتنا وظروفنا، وبعد أن قطعت شوطا لا بأس به، راجعت المستشفى من أجل الحصول على إبر هرمونات، وأخذوا لرأسي صورة طبقية، وعندما شاهدت الطبيبة الصورة قالت لي: يبدو أن عندك ورم في الغدّة النخامية!

ولأنني درست علم الأحياء، ومن ضمنها مساق "علم الغدد الصماء" أعرف ماذا يعني هذا الكلام، وخاصة أن كل مشكلتي بسبب الغدة النخامية، ولكن الورم أيضا فهذا نوع آخر يضاف لأنواع المعاناة الأخرى التي مررت بها طيلة السنوات السابقة بسبب الغدة النخامية، والغدّة النخامية تقع أسفل الدماغ، ولا أدري هل يمكن للأطباء أن يصلوا لهذا المكان، وما هي فرص النجاح الممكنة فيما لو احتجت لإجراء عملية لاستئصالها؟

طلبت منّي الطبيبة مراجعتها بعد عشرة أيام بعد أن تكون قد تأكدت من نتيجة الصورة!

عدت للبيت وبدأت بالعمل على الكتاب بوتيرة أسرع بكثير من الوتيرة السابقة، وبعد انتهاء المدّة عدت للمستشفى، وقالت لي الطبيبة: يوجد خطأ في الصورة، ويبدو أنّك حرّكت رأسك عند أخذ الصورة؟

قلت لها: نعم أذكر ما حدث في ذلك اليوم، كان الجو باردا جدا، ولأن أوردتي رفيعة احتاج الممرض لوقت طويل، وسبب لي الكثير من الألم حتى حقنني بالمادة الملوّنة، وعندما بدأ التصوير نزل بعض المخاط من أنفي فحرّكت رأسي، ولهذا جاء المقطع مائلا وليس عموديا فبدت الغدّة أكبر من حجمها.

عندما عدت للبيت قلت لهم: هل تعرفون لماذا أسرعت في تأليف الكتاب؟

فقالوا: لا نعرف

فأخبرتهم عن السبب، وقلت لهم: : أردت إكمال الكتاب قبل أن يكبر الورم وأعجز عن الكتابة أو أموت ، ولم أكن أريد أن أجعلكم تقلقون أو تحزنون عليّ، أو على الأقل حتى أتأكّد.

لقد كنت ساذجا، أو حسن النيّة، وحقيقة هذا هو الأمر الطبيعي، أن يتأثّر الإخوة بما يصيب أخوهم، ولكن ربّما كان الأمر مختلفا، على الأقل لبعضهم، الذي يعتبر أن الكرة الأرضية لا تتّسع إلا له، ووجودي فيها يحرمه من كثير من امتيازاته!

فترة العلاج ثم الزواج

كنت أراجع الطبيب من أجل أن أحافظ على استقرار صحّتي ليس إلا، ولكنّه كان يقول لي: أريد أن أزوّجك!

فأقول له: ليست في وضع يحتمل المزاح يا دكتور

ولكنّه كان يتكلّم بكل جديّة.

بيّنت الفحوصات أن سبب مشكلتي كلّها بسبب فتق في الغدّة النخامية، نتج عن سقوط على الرأس وأنا في عمر خمس سنوات، ونتيجة هذا الفتق تعطّل نصف الغدّة النخامية، وهذه الغدّة مسؤولة عن عدد كبير من غدد الجسم، ونتيجة هذا الفتق توقف إفراز هرمون النمو وهرمونات أخرى، فتوقف جسمي على عمر 5 سنوات.

وعندما مرضت وأنا في بداية الثلاثينيات وأخطأ الأطباء في علاجي، كان السبب هو تعطّل باقي الغدة النخامية، فتعطّلت الغدّة الكظرية التي تفرز الهرمونات التي تنظّم نسبة الأملاح في الجسم.

لقد عالج الطبيب المشكلة الجديدة، وأعطاني هرمونات تعويضية، ولكن يريد أن يعالج المشكلة الأولى، فبدأ بإعطائي عدد من الهرمونات، وحوّلني لمستشفى البشير للحصول على إبر هرمون النموّ، وكان صراعا جديدا.

كنت في كل شهر أذهب للمستشفى من الصباح الباكر أنتظر الدكتورة ، وكانت تكتب لي الوصفة، ثم إلى المركز الطبي المركزي ليكتبوا أن هذا الدواء معتمد ثم إلى التأمين الصحي وبعد مراحل عديدة كانت تنتهي رحلتي في مستشفى البشير لآخذ الإبر في وعاء حافظ مع ثلج حتى يصل للبيت صالحا للاستخدام.

كانت ابنة جيراننا ممرضة وهي تعطيني إبرة كل يومين، وهذا سبب إحراج لي مع أنها هي وأهلها كانوا في غاية اللطف، فحاولت جعل زاهي يتعلّم إعطاء الإبر الطبيّة فرفض، فحاولت مع نارة، وجعلت جارتنا تعلّمها، وكم تألمت وهي تتعّلم في جسمي دون رحمة، ثم قررت أن أتعلّم وأن أعتمد على نفسي، فأحضرت مرآة صغيرة وثبّتها على

جانب وسادة وأعطيت نفسي أول إبرة، وشعرت بفرح غامر لأنني لم أعد أحتاج لأحد، وخاصة نارة.

بعد بضعة أسابيع من العلاج بدأ الشعر ينمو على جسمي، واستبشرت خيرا، وعرفت أن العلاج هذه المرّة حقيقي، وليس كما حدث معي سابقا، وفي أحد الأيام ذهبت للوضوء وكشفت عن رجلي ورفعتها على المغسلة فرأت نارة الشعر النامي على ساقي، فنظرت نحوي بنظرة حقد وتوجّس وسخرية، وقالت: آه، الإبر التي تأخذها بدأت تعطي نتيجة!

فاجأني ردّ فعلها، هل كانت تريد أن يكون كل هذا العذاب، والعلاج دون فائدة؟ أي أنانية ونذالة هذه؟

وإذا كان هذا تصرّف أختي، فماذا أتوقّع من الآخرين؟

بعد ذلك بدأ الشعر ينمو على وجهي، وبدأت أحلق لحيتي، وللمرة الأولى أشتري آلة ومعجون حلاقة، وأحلق لحيتي مثل الآخرين.

ولكن كنت قد قطعت على نفسي عهدا أن أربّي لحيتي إن صار لي لحية، وفعلت، وفائدتها بالإضافة إلى أنها سنة أو واجب، فهي كذلك تميّزني عن الصغار، ولا يبقى عذر لغبيّ أن يجرح شعوري ويعاملني كالأطفال.

استمّرت هذه الحال ثلاث سنوات وفي أحد الأيام نظرت في سلّة النفايات فوجدت علبة الهرمون، وقلت في نفسي: لا يمكن ألّا تفرغ السلّة ليومين، فذهبت للثلاجة وقمت بعدّ الإبر فوجدتها ناقصة اثنتين، وسريعا عرفت أن ابنة زمهرير هي المعتدية واستطعت أن أجعلها تعترف، فقالت لي: لماذا تأخذ الإبر؟ لقد كانت تظّن أن الإبر شي سيء جدا، فحاولت

أن أجعلها تتعاطف معي، فقلت لها: إن لم آخذ الإبر سأموت، فقالت بكل براءة وسذاجة: أن تموت خيرا من هذه الإبر!

بعد ذلك وجدت أنها كسرت إبرتين، وأبقت إبرتين.

عدت لمراجعة الطبيب فقال لي: الآن انتهى علاجك، اذهب وتزوّج، وكان الطبيب خفيف الظلّ يحب المزاح، فدفعني من الباب وقال: اذهب وتزوّج، وعندما صرت في آخر الممر، صاح بي قائلا: لا تنسى أن تدعوني لعرسك.

لأني أعرف عائلتي، وأعرف أنهم لن يتعاطفوا معي، ذهبت لطبيب اختصاصي آخر، وأكّد لي أنه يمكنني أن أتزوّج الآن، وطلبت منه أن يكتب لي ورقة بهذا ففعل، ثم قال لي: الآن لن تحتاج لإبر هرمون كل يومين، سأكتب لك إبر هرمون آخر تأخذها كل شهر، وهذه الإبر أقل ثمنا، ولا تحتاج إلى ثلاجة.

آه كم فرحت، استرحت من الإبر التي لا يمكن حفظها إلا في ثلاجة، وبالتالي كانت تقيّد حركتي، وإبرة واحدة في الشهر أهون عليّ من إبرة كل يومين، والكلفة أقل بكثير، ولهذا سأشتريها على حسابي ولن أتعب نفسي بمراجعات طويلة ومتعبة، ولكن أمامي صراع آخر، وربما هو الأقسى في حياتي، وهو الزواج.

بداية الإبداع والاختراع

خلال هذه الفترة كان نشاطي في العمل على أشدّه، لقد جاء زميل تعاون معي، فأنشأنا مشغلا لتصنيع الأجهزة، واستفدنا من بعض أخطاء الوزارة، لقد وزّعوا على مدارس بنات أدوات وعِدَدَ خاصة بمدارس الذكور، مثل أدوات حدادة ونجارة وكهرباء، فأخذنا كثير من

هذه الأدوات وأسسنا المشغل، ثم حوّلنا غرفة إلى معـرض للأجهـزة الـتي نصنعها، وبدأت حياتي تأخذ طعما مختلفا.

دخلت إلى مستودع المركز يوما فرأيت عدّة صناديق عدّة فيهـا "مـا لذّ وطاب" من العِدد والأدوات التي ستكون مفيدة جـدا لـي لـو حـصلت عليها، ولكنّي أعرف أمين المستودع كم هو خبيـث، ولا يمكـن أن يعطـيني هذه الصناديق، ومدير المركز لا يعجبه أن أنـشغل بهـذه "الأعمـال التافهـة" وهي اختراع أجهزة وتجارب علمية قليلـة الكلفـة، ويهمّـه فقـط أن أوقّـع على سجل الحضور والمغادرة في الوقـت المحـدد، وأن يكـون علـى مكـتبي كومة من الملفّات والأوراق الرسمية.

عرفت أن الطريقة الوحيدة للحصول علـى هـذه الـصناديق دفـع رشوة لأمين المستودع، وأثناء الحديث عرفت أنـه بحاجـة لخمـسين دينـارا، وكانت مبلغا كبيرا يعـادل ربـع الراتـب، فأقرضـته هـذا المبلـغ مقابـل أن يسلّمني الصناديق، وبـالطبع بالوثـائق الرسميـة، وكنـت أعـرف أنـني لـن أستعيد هذا المبلغ، ولكن المهـم أنـني حـصلت علـى مـا أريـد مهمـا كـان الثمن.

وربما لو عرف زملائي بهذا في ذلك الوقـت لقـالوا عـنيّ مجنـون، ولكن تلك الصناديق ساعدتني في اختراع كثير من الأجهـزة جعلـتني أهـم مؤلف في هذا المجال وحصلت على عدة جوائز علمية.

لقد صرت أمـسك كـل كتـاب علمّـي، فيزيـاء، كيميـاء، أحيـاء، وأعمل عليه لشهر أو أكثر بقليل، وأصمم أجهزة مخبرية وتجـارب لـه، ثـم أعقد دورة للمعلمين الذين يدرّسون هذه المادة في جميـع مـديريات التربيـة التي تتبع لنا، وفي نهاية الدورة أناقشهم بها، كنوع من التغذية الراجعة مـن أجل تعديل وتطوير هذه الأجهزة، وبدأت الأفكار الرائعة تنهمر، وبـدأت

شهرتي تزداد، حتى أن مدير التربية حضر معرضا علميا لمؤسسة أجنبية واغتاظ من المدير فقال له: بعد ثلاث أيام أنت مدعو لحضور معرض علمي في مديريّتي، وهنا أسقط في يده، وسأل مشرف العلوم عن اقتراح، فقال له ليس لك إلا سعد، وجاءني مستغيثا، فقلت له: اطمئن، سوف أغيظ لك هذا الخبيث المغرور، وسيكون عندنا معرض بعد ثلاثة أيام بإذن الله، وعملت سريعا، وأنشأت المعرض، وأخذت ذلك المغرور بجولة بين الأجهزة، والتجارب، وتعمّدت أن أضع أشياء تصدر أصواتا أو حركات مفاجئة ومفزعة، وانتقمت لمدير تربيتي.

وفي اليوم التالي: جاء المدير شاكرا، وقال لي ماذا تريد: قلت مالا

وفعلا حوّل المال الذي أريد للإنفاق على تجاربي.

في أحد الأيام قمت بتصنيع جهاز فحص دم حيث توضع به أنابيب رفيعة مملوءة بالدم ويتم فصل مكوّنات الدم بالطرد المركزي لقياس قوّة الدم، وبحثت عن متبرّع، وجاء زميل لي يتميّز بالهدوء الشديد والإيقاع البطيء جدا في العمل، وتبرّع لي، وشغّلت الجهاز، ولم ينفصل الدم، فسألني زميلي: لماذا لم ينفصل دمي؟

ولم يكن عندي جواب في ذلك الوقت فقلت مازحا: ربّما دمك ثقيل!

وبعد ذلك استطعت تحديد السبب، ونجحت في فصل الدم وقياس قوّته.

التصنيع والثقة بالنفس!

زميلي في العمل كان له دور مهمّ في حياتي، حيث ساعد في زرع ثقتي بنفسي في مجال مهم جدا بالنسبة لي، وتمكّن من جعلي أتغلّب على حالة عدم الثقة التي زرعها زاهي عندي.

كانت فكرة أن أمسك منشارا يدويا لقص قطعة خشب شيء فوق قدرتي، وهذا ترسّخ عندي بسبب معاملة العائلة الذين لم يسمحوا لي يوما حتى بإمساك فرشاة الدهان والمشاركة في دهان البيت، وكذلك في المزرعة لم يسمحوا لي يوما بتعبئة حبّات البرتقال في الصندوق، لأن هذه "التقنية" تحتاج لخبره يملكها زاهي وغيره، ولا يمكن لي أن أتعلّمها!

وإذا كان الحديث عن استخدام منشار يدوي وفرشاة دهان، ووضع حبات برتقال في صندوق لم يسمح لي يوما بتجربة حظيّ بها، وهكذا كانت العائلات الجاهلة، التي لا تنميّ شخصيّة أبناءها، بل السمك الكبير فيها يأكل الصغير، والضعيف ليس له فرصة في الحياة، إلا إذا انتزعها من بين أسنانهم.

كلّ هذه الخبرات المؤلمة، والإصرار الدائم لدى العائلة على حرماني من إثبات نفسي حتى في قلي بيضة شكّل عندي قناعة بأن العمل اليدوي فوق إمكانياتي، ولهذا كنت أستعين ببعض الزملاء حتى عند تصنيع نموذج من الورق المقوى أو هيكل جهاز من الخشب الرقائقي.

وعندما جاء الزميل الذي تحدّثت عنه آنفا، بدأ في تغيير هذه القناعات عندي، حيث صرت أستخدم المنشار اليدوي، ثم الكهربائي، ثم صرت أقوم بكل أعمال التصنيع بنفسي، حتى أنني بعد ذلك أنشأت

مشغلا لتصنيع الأجهزة المخبرية بالتعاون مع شركة لتسويق هذه الأجهزة، وحققت نتائج باهرة.

مشكلتي مع الرسم!

أثناء الدراسة كانت مهاراتي الفنيّة محدودة، رغم أنه في بعض الصفوف درّسنا معلّم فنّان وعلى درجة عالية في الفن من جهة، وفي تعليم الفن من جهة أخرى، وقام بتعليمنا أساسيات الفن، ومزج الألوان، ولكن لم أتمكّن من رفع مهاراتي الفنيّة لدرجة مرضية.

عندما بدأت في تأليف الكتاب الأول برزت حاجة ماسّة لرسم الأجهزة التي ابتكرتها، والتجارب التي صممتها، وكانت هذه مشكلة حقيقية بالنسبة لي، وقد تمكّنت من حلّها على أفضل وجه بحمد لله بعد عدة تجارب فاشلة.

في البداية اقترح زميلي أن يرسم لي هذه التجارب لأنه يعمل معي، وحدد مبلغا ليس بالقليل لكل رسم، ولكن بعد أن رسم كمية كبيرة وسلّمها لي كانت رسوما تافهة جدا، وغير معبّرة، فأنا أريد توضيح كل تفاصيل الجهاز ليتمكّن القارئ من تصنيعه، ولكن رسومه كانت اقرب ما تكون للتجريدية، ودفعت له المبلغ الذي اتفقنا عليه.

فكّرت في زميل درس معي الجامعة في نفس تخصّصي أحياء، ثم درس فنون جميلة، ويعمل في وزارة التربية، فطلب منّي أن أصنع الجهاز بالشكل المثالي، ثم التقاط صور له، ثم يقوم هو بالرسم بناء على هذه الصور، وطبعا طلب مبلغا كبيرا.

ثم تذكّرت أحد معارفي وهو فنان لديه مواهب فنية، فقابلته، واشتريت له بعض الأدوات التي طلبها، ثم، نسي كل شيء وتجاهلني!

في إحدى الليالي لم أستطع النوم لأني شعرت أنه خدعني، وفي الصباح الباكر ذهبت ماشيا إلى بيته، وهو شاب عازب يقيم في غرفة في الطابق الثاني من البيت، ودفعني الشعور بالغضب إلى دخول البيت، وصعود الدرج، وكان الفصل صيفا وباب الغرفة مفتوحا، فدخلت عليه وكان نائما، وعندما فتح عينيه رآني واقفا فوق رأسه، فقلت له: أريد الأشياء التي اشتريتها لك، فأشار إليها في مكان قريب في الغرفة وهو لم يفق جيدا بعد، فأخذت الأغراض، وعدت لبيتي، وبدأت في التفكير بحلّ جديد.

حاولت استخدام جهاز الحاسوب في المركز حيث لم يكن عندي حاسوب في ذلك الوقت، ورسمت أحد الأجهزة، وحصلت على رسم جيد عرضته لصديقي ذاته، فحاول تثبيطي، وإقناعي أن هذا الرسم سيء جدا، ولكن شعرت أنني بدأت على الطريق الصحيح.

كانت رسومي ثنائية الأبعاد، فشاركت في دورة صغيرة حول برنامج الرسم الشهير Corel Draw، واشتريت كتابا لتعليم البرنامج، وتدرّبت عليه وأتقنت استخدامه، وصرت أرسم رسوما لأجهزتي بشكل ثلاثي الأبعاد وبمستوى احترافي والحمد لله.

ثم تدرّبت على عدة برامج رسم كل منها يستخدم لغرض معيّن، والآن قد أستخدم ثلاثة برامج لإنتاج رسم واحد.

رحلة الإقناع

كنت أعرف أن الكثير من أفراد العائلة لن يكونوا متعاطفين مع زواجي، وهذا الأمر كان يؤرّقني كثيرا، وفكّرت في البحث عن عروس قبل أن أعلمهم بنيّتي على الزواج، وبحثت كثيرا، وحاول بعض الخبثاء

استغلال وضعي، ولكن حماية الله أولا، وحسن تفكيري حماني، وقمت بمحاولات عديدة للبحث عن عروس تناسب حجمي.

في البداية أخبرني بعض الزملاء عن طالبة تدرس في كليّة البنات المجاورة، فاتصلت بموظّف التقنيات في الكليّة لوجود علاقة عمل معه فجاء مسرعا، وسألته عن البنت، فلم أحصل منه عن معلومات كافية.

في اليوم التالي نزلت من الحافلة أمام الكلية، حيث كانت تمرّ الحافلة من هناك يوميا، وأنا أمشي شاهدني بوّاب الكليّة، وهو يعرفني فسلّمت عليه وجلست عنده قليلا أراقب البنات وهنّ يدخلن الكليّة ولم أشاهد تلك الفتاة، ولكن بعد أيام صدفتها في الحافلة، فلم تعجبني.

وجدت طالبة في ثانوية قريبة، فذهبت إلى زميلي المسؤول عن سجلّات المكتبات فأتصل بأمينة مكتبة تلك المدرسة فجاءت مسرعة وهي تخشى من اكتشاف خطأ في سجلّاتها، فأخبرها بالأمر، ونقلت الخبر لمديرة المدرسة التي سألت أهل الطالبة فرفضوا تزويجها.

خلال ذهابي للمركز الذي أعمل به كنت ألمح فتاة جميلة وطولها مناسب لي، ولكنّها سريعة جدا في المشي، وبعد عدّة أيام عرفت أين تعمل وانتظرتها حتى خرجت من عملها في نهاية الدوام ولحقتها حتى ركبت في الحافلة، وعرفت في أي قرية تسكن، فذهبت لصديق يسكن في تلك القرية وأرسلته إلى أهلها، ورفضوا تزويجها، وبعد عدة محاولات شبيهة فاشلة قررت أن أخبر العائلة، واخترت أختي الصغيرة نارة، لأنها الأقرب لي، أو هكذا توقّعت، وأخذتها إلى المكتبة حيث كنت أمضي أوقاتا طويلة لوحدي في القراءة، وبدأت بالتمهيد لها حتى أعلمتها بأني أريد أن أتزوّج، فردّت عليّ ردّا في غاية القسوة: أنت غير ناضج عاطفيا!

وحتى الآن لا أعرف ماذا تعني بهذا الأمر، فإن كان الأمر مرتبطا بالعاطفة فلا أظن أن هناك أحدا عنده عاطفة مرهفة حسّاسة مثلي.

وأخيرا وجدت أميرة!

زرنا خالتي يوم العيد، ولم تكن قد رأتني بعد أن أكتمل علاجي، وتغيّرت شخصيتي وعندما نظرت إليّ سرّت كثيرا وقالت: ما شاء الله، ثم أردفت: هل تريد أن تتزوّج؟

وكنت أنتظر هذه الكلمات، فقلت لها نعم، وأين العروس؟

فقالت: بنت جيراننا، هل أرتّب لكم زيارة لهم؟

فقلت لها: نعم

واستطعت الضغط على العائلة لزيارة بيت العروس المقترحة، ورأيتها وأعجبتني.

بعد نهاية إجازة العيد ذهبت لبيت خالتي لأجمع معلومات أكثر عن العروس، وعدت متأخرا للبيت، فوجدت نارة، وقد قامت بتحريض العائلة كلّها ضد هذه العروس كما هو في الظاهر، ولكن الحقيقة أنها كانت تقف ضد زواجي كلّه، وأسمعتني كلاما جارحا.

بعد ذلك ونتيجة ضغط منّي ذهبنا إلى بيت أميرة، ونظرت إليها نظرة تحمل معاني كثيرة، أهمّها: أنا بحاجة إليك، وشعرت أنّ عينيها ترسل لي نفس الرسالة، وهنا تذكّرت بيت الشعر الذي يقول:

وتعطّلت لغة الكلام وخاطبت عيناي في لغة الهوى عيناك.

ولكن كل هذه المحاولات لم تفلح في دفع العائلة إلى الاعتراف في حقّي في الزواج.

وانقضت ستة أشهر وهـم يتجـاهلون طلـبي وإلحـاحي للـزواج، ووضعوا كثيرا من الحجج، منها أن هذه البنت غير مناسبة، ونحـن نبحـث لك عن واحدة أفضل منهـا، وبعـد ضـغط شـديد منّـي اتـصل بـي عابـد وطلبني لزيارته، فسارعت لذلك، فهو من أحبّ الناس إلى قلبي، فأخـذني بسيارته بعيدا وبدأ يلمّح لي أن الزوجة لها احتياجـات، وان الرجـل قبـل أن يتزوّج يجب أن يعرف نفسه هل هو قادر على هذا الأمر، فقلت له: أنـا أريد أن أتزوّج وأنا واثق من نفسي، وأنا أعرف أن هذه حيلة يحاولون مـن خلالها تحطيم ثقتي بنفسي، وتحويلي إلى رماد.

ذهبت أنا وأمي ونارة إلى حفلـة زواج ابنـة عابـد، وجلـست أنـا وعابد لوحدنا، لأن عابد مهـتم لأمـر زواجـي ويـشعر أن عليـه أن يقـوم بواجبه، وسألني لماذا لم تخطب أميرة حتى الآن؟

وشكوت له صنيع عائلتي، وخلال الحـديث دخلـت نـارة، وهـي تشتعل نـارا، لقـد سمعـت أثنـاء الحفـل مـن بعـض النـساء كلامـا أهـان كرامتهـا، لقـد كانـت أمـيرة في الحفـل أيـضا، لأنهـا صـديقة للعـروس، وشاهدت نارة أم العريس تجمع النساء وتقـول: هـذه البنـت الـتي أراد أن يتزوّجها سعد، ولكن عائلته لا تريد تزويجه، وأنتنّ تعرفن السبب.

وهنا أتصل عابد بزاهي الذي كـان في المزرعـة، وبـصعوبة تمكّـن من دفعه للحضور، وعندما دخل زاهي، وأخبره عابد أنه يجب أن نـذهب لخطبة أميرة، أرعد وأزبد، وقال لعابد: لقـد أحـضرتني مـن مـزرعتي مـن أجل أمر تافه كهذا!

ولكنّ عابد لم يستسلم واتصل بعـدد مـن الأقـارب والأصـدقاء، ولم يجد زاهي بدّا إلا أن يستسلم، وذهبنا لخطبة أمـيرة، ووضـعوا القهـوة،

والعادة أن لا نشربها إلا بعد أن يجاب طلبنا، وأنا أيضا لا أحبّ القهوة، ولكن بمجرّد أن وضعوا الفنجان شربته من شدّة فرحي.

بعد ذلك ذهبنا للمحكمة، أنا وعابد وزاهي، وأخذنا أميرة وأبوها وقمنا بعمل عقد الزواج، ثم دعينا أقاربنا للذهاب إلى بيت العروس للاحتفال بالخطوبة، وكان حفل يعمّه الفوضى، وكنت أريد أن أطمئن على خياري، وحقيقة هو ليس خياري، ولكن ما أختاره الله لي، ووجدت رضا كاملا من الجميع عن أميرة وعن أهلها، فأطمأن قلبي.

ترتيبات الزواج الحزين!

قبل الزواج كنت اسمع الكثير من اللمز والغمز من بعض الناس، أن سعد يريد أن يتزوّج وربّما هو غير قادر على الزواج، ولأنني اعتدت على أذى الناس فلم أعرهم اهتماما، ولكن قبل الحفل بيومين، عدنا للبيت من الخارج، وبدون أي مقدّمات نظرت نحوي نارة وقالت: تظنّ نفسك رجلا لتتزوّج؟

لقد كانت تعتقد هذه الغبيّة بأنه ليس من حقّي أن أتزوّج، وأن واجبي في الحياة هو تدليلها فقط لا غير، وهنا أمسكت عصا المكنسة وضربتها حتى تكسّرت.

قبل العرس بيوم كان عندي دورة لمعلمي العلوم، وهي دورة أسبوعية، وأثناء التدريب دخلت إلى المشغل لتحضير بعض التجارب، فجاء نحوي أحد المتدرّبين مسرعا، وقال لي: أريد أن تسمح لي بالمغادرة لسبب مهم.

قلت له وأنا ما زلت منشغلا بعملي: وأنا عندي سبب مهم للمغادرة، وإن كان أهم من سببك تعود لإكمال التدريب، ولا أريد أن أعرف ما هو.

فقال: أنا موافق.

فقلت له: غدا يوم زواجي، وتعرف كم يحتاج هذا من ترتيبات، فأدار ظهره وعاد للدورة.

وفي الليلة السابقة ليوم العرس، والتي يقوم أهل العريس بعمل سهرة احتفالا بالعريس، يختمونها بالحنّاء، لم يهتم، أحد رغم أنه في عرس يحيى وزاهي أقيمت السهرات لأربعة ليالي مستمرّة، ولكن بعض القلوب الطيبة مسحت بعض حزني، إذ جاء أبناء خالتي، ومعهم بعض أقاربهم، وعملوا لي سهرة بسيطة جدا، كنوع من "جبر الخاطر".

ليلة العرس الأليمة!

يوم العرس كان ماطرا جدا، وحدثت فيضانات في المنطقة، وفي الطريق إلى صالة الاحتفال وجدنا بعض الأقارب وقد تعطّلت سياراتهم وإبتلّت ثيابهم، فركبوا معنا في السيارة، وامتلأت كراسيها بالماء.

بعد الحفل ركبنا في السيارة التي كانت تخلو من أي زينة بسبب المطر، وربما لأسباب أخرى، وكان المقعد تحتي مبلولا فوضعت كيس ورق صحيّ لعله يقيني من البلل.

وصلنا البيت، فوجدنا أن الأولاد قد خلعوا أنبوبة تصريف مياه المطر التي تنزل من سطح البيت، ودخل الماء إلى غرفة نومنا، فقمنا برفع السجّادة وشطف الماء وحاولنا تجفيف الغرفة قدر المستطاع.

الوضع في البيت كان مأساويا، لقد ذهب زاهي وزوجته لبيتهم وتركوا أولادهم الخمسة في "بيت العائلة" أي في بيتي الآن، وكانت أميّ وعددا من خالاتي، ونارة وبعض الضيوف كلّهم في بيتي يحيطون بنا ونظرات ترمق كل حركة، ابن زاهي الصغير يقف على النافذة يحاول أن يرى شيئا من خلال الستائر، ابنته الصغرى تضع أذنها عند الباب تحاول الاستماع، ولم يكن عندنا وسيلة للتدفئة إلا مدفأة كهربائية صغيرة كنت استخدمها في مكتبي رغم وجود عدة مدافئ في البيت، وإذا أراد أحدنا أن يذهب للحمّام يجد عشرات العيون تراقبه، وخاصة العينان الشريرتان اللتان كانت ترمقنا بهما نارة، ونظرة تخترق الجلد وتصل إلى العظم من عيني زعيلة.

لقد صلّينا المغرب والعشاء، وأحضرنا الطعام وحاولنا أن نأكل شيئا، ولكن كل شيء كان حولنا جعل ليلتنا جحيما، وكان البرد والتعب مسيطرا علينا

حاولت أن أقنع أميرة بأن النوم هو الشيء الوحيد المتاح اليوم، لأن كل الظروف المحيطة بنا لا تسمح لنا بقضاء وقت شاعري معا، فإذا كان ذهابنا للحمام لقضاء الحاجة يشكّل كابوسا بالنسبة لنا، فهذا يعني أن الاستحمام سيكون فيلم رعب حقيقي، خاصة وأنه لا يتوفّر عندنا مصدر للماء الحار، ويجب تسخين الماء على موقد الغاز ثم نقله تحت المراقبة الشديدة لعيون نارة وفريقها.

حاولت أميرة النوم، ولكن كانت تشعر بتوتّر شديد، فهي تدخل هذا المكان لأول مرّة، وتجد كل هذا الطغيان المسيطر على البيت، فهي تعاني من البرد والجوع، ثم الخوف من المجهول، ثم هؤلاء الناس الذين يظهرون كل هذا العداء في يوم الفرح هذا، وكيف سيكون تصرّفهم في

المستقبل، وتلك العيون الفضولية للأطفال الذين ينتشرون في البيت وكأنهم فرقة مراقبة واقتحام عسكري، وكذلك زاهي الذي ركبت معه في السيارة والذي لم يظهر عليه أي مشاعر تنمّ عن فرح بزواج أخيه بعد طول حرمان، وكذلك هذا الرجل الذي قبلت به زوجا، هل هو رجل فعلا وهل يمكنه أن يصمد أمام كل هذا الطغيان الذي تواطأت عليه عائلته؟

وهل هو شخص طيّب يمكن أن أعيش معه، أم أنه عنكبوت آخر؟

كل هذه الأسئلة المخيفة التي لم تجد لها إجابات حَرَمَ أميرة من النوم، وجعل تلك الليلة كابوسا مخيفا جدا.

أما أنا فالأمر أكثر صعوبة، فها أنا بعد علاج مرهق جدا على جسمي وأعصابي، ومالي ووقتي، ومشاعري، استمر لعدة سنوات، وبعد أشهر من الصراع مع عائلة العناكب حتى اعترفوا مرغمين بحقّي في أن يكون لي زوجة وبيتا وكيانا مستقلا، ثم الصراع الطويل حتى تمكّنت من إتمام الزواج وإحضار العروس إلى بيتي، وها أنا أقف عاجزا عن الفرح بهذا الإنجاز الكبير، وأن أبدأ حياتي الزوجية كما يفعل جميع الناس.

وبدأت الأفكار السوداوية تغزو رأسي، هل سأصمد أمام هذا التحالف العدواني؟

هل سأتمكّن من أن اثبت نفسي كرجل وزوج وربّ أسرة ناجح؟

إلى متى ستحتمل أميرة هذا المد الأسود، وهل ستنسحب من المعركة وتهرب لبيت أهلها الدافئ؟

ثم بدأت أفكّر بالحلول المقترحة، مثل: ماذا يمكنني أن أفعل؟

الإعصار شديد ولن أتمكّن من الوقوف في وجهه ولكن قررت أن أحني رأسي حتى يشتدّ عودي من جهة، وينشغل بعض العناكب بحياتهم فأجد نقاط ضعف أنفذ منها؟

وحتى الآن وبعد مرور أكثر من عقدين من الزمن على تلك الأحداث، وبعد أن تم إبعاد هذه العناكب، ونزع الإبر السامّة منها، ما زلنا نتذكّر تلك الأحداث التي سيطرت على أول يوم من حياتنا وجعلتها أقسى ليلة منذ زواجنا.

في بيتنا غوانتانامو!

أخبرت العائلة بما حدث معنا أمس، وليتني أستطيع أن أصوّر لكم الحقد والشماتة والنذالة التي ظهرت على وجوه بعضهم، لقد أشعروني أنني لست رجلا، وأنّني لا استحق أن أتزوّج، وهذه المرّة حرقوني كما لم يحرقني من قبل.

وحاولت جهدي التخفيف عن زوجتي في ظل هذه الأجواء القاسية، وهي فتاة رقيقة، وأردت أن أداعبها، وكانت المداعبة قاسية أيضا، لأن الجو يفرض شروطه.

أعطتني نارة خرطوشة الفلم، وهو مكون من بكرتين، وخلال التصوير ينتقل كامل الفيلم للبكرة الكبيرة، فأخذت الفيلم بشكل نزق، وقمت بكسر البكرة الصغيرة وألقيتها بعيدا، فظنّت أميرة أنني مجنون، ثم ابتسمت وقلت لها: تلك البكرة لم يعد لها حاجة، ويكسرونها في أستوديو التصوير إن لم أكسرها أنا.

في العصر جاء عابد، وأسمعني بعض الكلام الجميل الذي أراحني وأسعدني وخفف ألمي.

وكانت عندي قطعة خشب صغيرة مكتوب عليها اسمي كنت أضعها على مكتبي، فأردت أن أثبّتها على مدخل البيت، "بيت سعد"، على الأقل لأشعر بأن لي كيانا، وأحسّت نارة بأمري وجاءت مسرعة والغضب مشتعلا قائلة: ليس من حقّك أن تعلّق هذه اللافتة!

صحيح أن أميرة كانت قد رضيت بالزواج منّي، ولكن لم تكن تشعر بالحب الحقيقي نحوي، وقد كانت لا تحب أن تمشي معي مخافة أن يسخر أحد منّا إن رآنا مع بعض، ولهذا كانت تمشي مع نارة وأميّ، وصبرت عليها قليلا، ثم وفي أحد الأيام وبعد صلاة العصر حيث كنّا في الحرم المكّي بعد أداء العمرة غضبت منها وقلت لها: كان عندي مجنونة واحدة وهي نارة والآن صار عندي اثنتين، وجاءت معي خائفة ومكرهة، فجلسنا في الطابق العلوي في الحرم نرقب الطائفين حول الكعبة، وكانت أول جلسة شاعرية تجمعنا بعيدا عن الجميع، وقد قالت لي أميرة بعد ذلك: أنها في تلك اللحظة بدأت تشعر بالحبّ نحوي، حيث تقول: نظرت إليك، شابا أجده وسيما، وطيّب القلب جدا، وصبور جدا، وكريم جدا جدا، فبدأت مشاعري تتحرّك نحوك.

الضغط النفسي الذي تعرّضت له أميرة كان له تأثيرات ضارّة على صحّتها، لقد كان لديها استعداد للصداع النصفي "الشقيقة" ، وأدى هذا الظلم المستمر إلى تحفيزه، فصار ألم الرأس لا يفارقها، حتى أنها من شدّته كانت لا تستطيع أن ترى، وذهبت هي وأمي إلى طبيب عيون وقال إن إحدى عينيها لم تعد تبصر، فجنّ جنوني وأخذتها إلى طبيب آخر، وثبت أن عينيها سليمتان والحمد لله، ولكن هذا بسبب الشقيقة والضغط النفسي، وكنّا نحاول أن يكون لنا استراحة في هذه الأجواء العدائية، ولهذا كنّا نستغلّ أي وقت تكون العائلة خارج البيت حيث نُغلق الأبواب،

ونحاول أن نظهر أن البيت فارغ، ونشتري بعض الحلوى ونمضي لحظات بفرح طفولي.

عام الحزن والفشل

لقد مضت عدة سنوات عجاف في كل شيء، وخلال هذه السنوات لم نرزق بطفل، لقد كنت أعرف أننا لن ننجب بشكل طبيعي بسبب مشكلاتي الهرمونية، فذهبت إلى الطبيب الذي عالجني في عمّان، ورشّح لي أحد المستشفيات لنجري فيها عملية طفل الأنابيب، وبدأ فصل جديد من المعاناة والألم.

في البداية يجب أن آخذ إبرتين يوميا لمدة شهرين، ثم يبدأ تحضير الزوجة للعملية بإعطائها عدة أنواع من الهرمونات، وفي الأسبوعين الأخيرين قبل العملية يجب أن نذهب للمستشفى في عمّان يوميا، وخلال هذه الفترة كنّا نعود للبيت في غاية التعب الجسمي والنفسي، والألم من الإبر والفحوصات، والوقت الذي نبذله في المواصلات، ولم نكن نجد أحدا يصنع لنا أي طعام، وعملنا الزراعة، وكان الأمل كبيرا، أن يتغيّر وضعنا، وأن ييأس منّا أعدائنا، وغير ذلك الكثير، وكان الانتظار طويلا، وفي نهاية الأسبوعين ذهبنا لإجراء فحص الحمل، وبعد دقائق قالت لنا الممرّضة بكلّ صفاقة: لقد فشلت العملية، هل أسجّل لكم موعداً لعملية جديد؟

هكذا بكلّ بساطة فنحن لا نعني لهم إلاّ المال، وتجرّعنا مرارة الألم.

ولاح أمل جديد في الأفق، جاء مسؤول سعودي كبير إلى حيث أعمل، وأعجبه عملي، ثم أرسل لي للعمل معه، وبدأت في اتخاذ

الترتيبات، ولكن قبل أن ألتحق به، أحال نفسه إلى التقاعد، وكان عاما حزينا، لقد فشل كلّ شيء، ولكن لم أعتد على اليأس.

رخصة قيادة السيارة

كان الحصول على رخصة قيادة سيارة، وشراء سيارة حلم يراودني طويلا، فهو يحميني من أذى الناس في الشوارع وكذلك من الحافلات والمواصلات العامة، كما أنني أواجه مشكلة عندما أشتري شيئا للبيت، فأقصى ما أستطيع حمله لا يزيد عن 3 كيلو غرام، ولكن خلال السنوات الماضية كانت قدرتي في الدفاع عن هذا الحق ضعيفة، لأن جسمي قصير وضعيف، ورغم أنه كان يحزنني أن أرى يحيى يدرّب ابنه على قيادة الشاحنة الصغيرة الخاصة بالمزرعة ويسمح له بقيادتها أحيانا، وأنا لم يسمح لي حتّى بقيادة الجرار الزراعي الصغير، إلا أنني لم أجد من ينصفني.

ولكن الآن ظروفي تغيّرت، وأستطيع قيادة أي سيارة، ولست بحاجة إلى سيارة خاصّة، أو إحداث تغييرات في السيارة التي سأقودها، ويجب أن أبدأ الخطوة الأولى.

بدأت بالتدرّب على قيادة السيارة، وكان المدرّب لطيفا جدا، وصبورا، وأرتفع مستوى ثقتي بنفسي كثيرا، وفكّرت أن أداعب المدرّب، فقلت له وأنا أتظاهر بالسّذاجة: هل صحيح أن كل متدرّب مسموح له أن يدوس اثنين؟

وأثناء التدريب ضغطتّ على المدرّب بأقصى ما أستطيع وتحمّلني، وقدت في أصعب الظروف وأخطر الطرق.

كتابي الأول والأمل الجديد

كنت خلال السنوات الماضية أعمل بجد على تصميم التجارب والأجهزة العلمية، وبدأت في تأليف كتاب يتضمّن بعض هذه الأجهزة، وصار على وشك أن يجهز، وقد كان عدد صفحاته أكثر من 500 صفحة، وبدأت رحلة البحث عن طريقة لنشره.

ذهبت إلى وزير الثقافة، وهو مدير التربية الذي كنت قد عملت له معرض علوم، وهو يعرفني جيدا، فطلب منّي نسختين من الكتاب وأعطاهما لأحد الموظفين وطلب منه أن يهتمّ بالأمر، ولكن بعد وقت قصير تم حل الحكومة، وخرج هذا الصديق من الوزارة.

وبعد محاولات عديدة، لم يبق أمامي إلا أن أطبع الكتاب على حسابي، لقد كنت قد وفّرت 2000 دينار لشراء سيارة، فذهبت لإحدى دور النشر المعروفة واتفقت معها على أنشر الكتاب على حسابي، وأن يتولوا هم توزيعه، ووضعت صورة لأثنين من أبناء زاهي على غلاف الكتاب وهما يجريان إحدى التجارب، ولكن رغم هذا لم أسمع من زاهي كلمة شكر أو مباركة.

لقد أبقيت نسخ الكتاب في دار النشر، لأنني خشيت أن أحضرها للبيت، ويفشل الكتاب، وعندها ستكون فرصة كبيرة للتندّر والسخرية منّي، ولكن الأمر كان مختلفا.

قدّمت الكتاب لوزارة التربية للحصول على توصية، وكنت أنتظرها وأنا يملؤني الرعب، كنت أخشى أن يكون القرار ضدّ كتابي، وقبيل صلاة المغرب اتصلت برئيس قسم المكتبات عليه رحمه الله، فبشّرني أنهم أوصوا باقتناء الكتاب ووضعوا ثمنا مرتفعا جدا للنسخة من أجل تشجيعي، ثمنا لم أكن أحلم به، آه كم كانت لحظات سعيدة.

حمدا لك يا رب، وشكرا لكّل الطيّبين في وزارة التربية.

وبدأت في بيع كميّات كبيرة من النسخ لمديريات التربية، لقد أنشأت علاقة طيّبة مع موظّفي قسم الصادر في الوزارة، وكنت آخذ النسخ المطلوبة من مديريات التربية واضعها مع بريد هذه المديريات، واتفقت مع شاب يأخذ نسخا من الكتاب ويزور المدارس لبيعها، وحققنا نجاحات كبيرة، جعلتني أطبع ثلاث كتب أخرى مرّة واحدة واستطعت بيعها كلّها بسهولة، كما كان الناشر يبيع الكثير من النسخ في العراق، ولم أضغط عليه وأطلب منه مالا، لقد مددت له الحبل من أجل أن يساعدني على الانتشار.

كنت أحيانا آخذ كمية من الكتب أنا وزوجتي ونذهب لعمّان، نبيع في بعض مكتباتها، وكذلك بعض المؤسسات، مثل مكتبة أمانة العاصمة، ومكتبة مؤسسة شومان، وغيرها، وقد كنت أعود إلى البيت وظهري يؤلمني بسبب حملي لحقيبة مليئة بالكتب، ولكن بدأنا في تحقيق النجاح، وقام الناشر بطباعة مجموعة من كتبي وصلت لستة كتب عدة طبعات، وبدأت أحجز لي مكانا في عالم التأليف، بل إن بعض مجالات المعرفة في المكتبة العربية صارت شبه محجوزة لي لا ينافسني فيها أحد، في مواضيع تبسيط تعليم العلوم وتصنيع الأجهزة والألعاب والوسائل التعليمية، وبدأ الفرح يدخل إلى بيتنا، وبدأنا أنا وأميرة، أميرتي، نشعر أن لنا قيمة في هذه الحياة، وأن الناس ليسوا فقط زاهي ونارة وزمهرير وأمثالهم، بل يوجد الكثير من الأخيار.

تشجّعت واشتريت حاسوبا وكامل الملحقات، وأعدت مراجعة كتابي الأوّل وقام الناشر وعلى حسابه بعمل طبعة ثانية، وبعدد مضاعف من النسخ ، وعندما كان في المطبعة، ظهر نور جديد في آخر النفق.

الخروج من شبكة العنكبوت

كان كثير من طلاّب الجامعات والكليّات يأتون إليّ لأساعدهم في مشاريع تخرّجهم، وكل هذا مجاني وجزء من عملي، ولكن في أحد الأيام جاءني شاب وطلب منّي تحويل كتاب علوم من المناهج السعودية إلى سيناريو من أجل البرمجة، وذكر لي أنه سيدفع لي المبلغ الذي أطلب، ففاجأني، وعرفت منه أنه يعمل مع شركة سعودية كبيرة تعمل في حوسبة المناهج وغير ذلك، وأعطاني هاتف المدير، فقلت له: سأقوم بالعمل مجّانا مقابل هذه الخدمة، واتصلت بالمدير، وكان شخصا رائعا، بل تبيّن أن الناشر يعرفه جيدا وشجّعني على العمل معه.

في أحد الأيام هربنا من جحيم البيت وذهبنا إلى جرش، وقبل أن نركب الحافلة عائدين دخلت إلى البريد واتصلت بأمي فقالت لي أن شخصا سعوديا اتصل وطلب صورة عن جواز سفري، ولم تمض أيام إلا وأنا أركب الطائرة إلى الرياض في زيارة لمقابلة رئيس الشركة من أجل توقيع عقد عمل، وكانت هذه المرّة الأولى لي التي أركب بها الطائرة.

ودّعتني أميرة، وقلت لها: ماذا تريدين من الرياض؟

فقالت وعينيها يملؤهما الأمل: عقد عمل.

ذهبت للشركة وكان أكثر الموظّفين من مدينتي، ويعمل بها بعض الهنود والعرب، وكان رئيس الشركة شاب في غاية اللطف، أمضيت في ضيافته تسعة أيّام، وفي يوم جمعة بعد أن عدنا من الصلاة عرضت عليه بعض أعمالي وأجهزتي، حيث أخذت معي صندوق كرتوني مليء بالأجهزة، فقال لي ماذا تعمل؟

قلت له موظّف حكومة وعندي بيّارة، في محاولة لإظهار أن حالتي الماديّة ممتازة لأحصل على راتب جيد.

ولكنه تفاجأ بكلمة بيّارة، فقال لي: وماذا تعني البيّارة؟

فقلت له: مزرعة حمضيات.

وقد اكتشفت بعد ذلك أن البيّارة في لغتهم تعني: حفرة مجاري!

فقال لي ما هو الراتب الذي تريد؟

فقلت له: أنا أحببتك، وأحببت هذا العمل، وسأوقّع على العقد ثم أنت اكتب الرقم الذي تريد، وحدد لي راتبا ممتازا، وأخذت العقد وعدت للأردن، وكان قد حضر زاهي ومعه عدد من أفراد العائلة وزوجتي، وأوّل كلمة قلتها لأميرة بعد السلام، لقد أحضرت العقد، وبدأت رحلة طموح جديدة، ومعاناة من نوع جديد أيضا.

الحياة في الغربة

استلمت الشقة، وكانت شقة واسعة اخترتها لأنها قريبة من موقع الشركة الذي ستنتقل إليه قريبا، وليست بعيدة عن موقع الشركة الحالي، وجاء نحوي شاب يسكن في الشقة المجاورة، ويقوم بأعمال صيانة من أجل أن يحضر عروسه من سوريا، وسلّم عليّ وعرّف بنفسه، وارتحت له كثيرا.

قبل رمضان بيوم واحد ذهبت لانتظارها في المطار، وكان لي أكثر من شهر منذ أن غادرت، وكنت كلّما مشيت في مكان في الرياض أقول في نفسي: غدا سأكون أنا وأميرة في هذا المكان، وأتخيّل حياة جديدة لوحدنا.

وصلت الطائرة وأخذتها عائدين إلى الرياض، وكانت سعادتي لا توصف، ولكن أميرة لم تحب المكان، وعلاقتها بأهلها قوّية، ولهذا ليس

من السهل عليها أن تبتعد عنهم، وحاولت جهدي التخفيف عليها، ولكن عملي وخاصة في رمضان كان طويلا، وصعبا.

في السابق كنّا نسكن في قرية وننام بعد صلاة العشاء، أو التراويح في رمضان، ولكن في الشركة كان عملي يبدأ عادة من الساعة التاسعة صباحا إلى التاسعة ليلا مع فترة استراحة غداء لمدة ساعة ونصف.

أما في رمضان فكنّا نعمل من الساعة الثانية عشر ظهرا للرابعة من بعض الظهر ومن التاسعة مساء إلى الثانية بعد منتصف الليل، وكنا ننتظر السحور ثم صلاة الفجر، وبعد ذلك نحاول النوم، ولكن تغيير نظامنا الحياتي جعل أميرة لا تستطيع النوم لبضعة أيام، وطلبت منّي أن أحضر لها حبوب منوّم فرفضت.

لقد كانت أميرة تمضي بعض الوقت مع الجارات، ولكن آخر جار يعود إلى بيته في الثانية عشر ليلا، فتعود الجارات إلى بيوتهن وتبقى أميرة لوحدها في هذا الوقت المتأخر من الليل، وكان الأمر قاسيا جدا عليها، ولم يكن لدينا هاتف، والهاتف الخلوي كان ما يزال غاليا، ولهذه الأسباب صرت أغادر العمل الساعة الثانية عشر ليلا، ورغم أن هذا أغاظ مدير الإنتاج، ولكنّي كنت مصرّا على هذا، فعرف المدير العام بهذا الأمر، وإذا بمدير الإنتاج ينتظرني عند الباب عن الحضور، ويقول لي: يمكنك المغادرة في أي وقت يناسبك.

العمرة ولحظات من الضيق.

قبل العيد بيومين أكملنا العمل على القرص المدمج، وأكملت عملي في المراجعة النهائية للقرص فأخذت إجازة للذهاب للعمرة،

وذهبنا إلى شركة الحج والعمرة وركبنا في الحافلة، ثم تذكّرت أنني لم أحضر معي حبوب الهرمونات التي أحتاجها، والبيت بعيد، والحافلة بدأت في المسير، وليس من السهل عليّ البحث عن هذا الدواء في مكّة، فهو لا يوجد إلا في بعض المستشفيات، ولا يصرف إلا بوصفة طبية، وضاقت الأرض بي، ومرّت عليّ دقائق صعبة، وأنا في حيرة شديدة من أمري، هل ننزل من الحافلة ونفقد فرصتنا لأداء العمرة في رمضان، أم نذهب ولا أدري ما قد يحدث معي في مكّة، قد أغيب عن الوعي، ولن تعرف أميرة كيف تتصرّف لوحدها، ولكنّني وبحمد الله أخذ احتياطاتي دائما، فتذكّرت أنني أحتفظ في محفظتي بعدّة حبّات من الدواء كاحتياط إذا انقطعت في مكان ما، وقد تكون هذه الحبّات مكسّرة، ولكن تفي بالغرض، وبدأت أستمتع بالرحلة.

الرجوع إلى بيت العنكبوت

بدأنا نخطط لإحضار أمّي لتقيم معنا، ولكن نحن نعرفها، هي معتادة على حياة طبيعية، ولهذا بدأنا بالبحث عن أشياء تناسب أميّ، مثل خبز من النوع الذي تحبّه، منتجات ألبان، وغير ذلك، وقضينا في فترة بين العيدين في الترتيب لإجازة العيد في الأردن، وشراء هدايا للجميع، وانشغلنا بهذا الأمر، وهذا أعطانا شعورا كاذبا أننا بدأنا نتأقلم مع حياة الرياض، ولكن مرّت الإجازة سريعا، وعدنا للرياض، وبدأ الإحساس بالغربة يقتلنا، وخاصة ساعات العمل الطويلة، وعدم وجود سيارة، وتذكّرت أميّ وحالة الإهمال التي تعانيها في غيابنا، فقررنا أن نعود للأردن مهما كانت الخسائر، ودخلت إلى مكتب المدير في الصّباح، ومعي

ورقة استقالة، ففوجئ بها، وقال لي: أنا لم أرفض استقالة موظّف يوما، ولكن عندي بدائل.

فقلت له بلهفة: وما هي؟

فقال البديل الأوّل أن تعود إلى الأردن وتعمل معي من هنالك.

فقلت: هذا يكفي، لا أريد بدائل أخرى

واتفقنا أن أعود للأردن وأن أقابله هناك لترتيب العمل، وعدت للبيت أكاد أطير فرحا، وقلت لأميرة، جهّزي أغراضك، سنعود للبيت، ونعمل مع الشركة من هنالك، أميرة وقد أصابها الذهول ردّت قائلة: سعد لا تمزح معي، فأنا لا أحتمل هذا.

وبعد وصولي إلى الأردن ذهبت إلى عمّان لمقابلة مدير الشركة حيث كان في زيارة للترتيب للعمل، وقد كلّفني بتكوين فريق من المعلّمين من أجل العمل على مشروع حوسبة المناهج السعودية المدعوم من وليّ العهد.

بعد ذلك كنت أعود للرياض لبعض الأعمال، وأستمر تفرّغي للعمل مع الشركة لأربع سنوات، ثم عملت معهم لسنوات أخرى دون تفرّغ، ولكن من خلال الإنترنت وأحيانا كنت أدوام أيام السبت.

وعندما توفّر لي بعض المال قلت في نفسي: لقد حان الأوان للخروج من بيت العنكبوت والاستقلال في حياتي، وكلّفت بعض أبناء خالتي ببناء بيتي، وكنت أحوّل لهم معظم الراتب ولا يبقى إلا مبلغ بسيط جدا للإنفاق علّينا أنا وزوجتي وأمي، وعندما كنت أذهب للرياض لم أكن أملك مالا للأكل في المطاعم، رغم أن الأسعار زهيدة، ولهذا اشتريت بعض الأدوات البسيطة وصرّت أحضّر وجبات خفيفة في مكان إقامتي في الشركة.

صدمات متكررة!

وفي أحد الأيام جاء يحيى ومعه جريدة منشور فيها خبر عن أرض المزرعة، ويظهر في الخبر أن يحيى وزاهي وهجرس يجب أن يدفع كلّ منهم 3000 دينار، أما أنا فستدفع لي الحكومة 9000 دينار، وهنا تعاملوا معي بكلّ رفق ولين وطلبوا منّي أن أدفع عنهم المبالغ التي عليهم، خاصة وأنني لم أتعب بهذا المال، وما يأتي من المزرعة فهو لها.

تركتهم يتحدّثون عن المزرعة، وبدأت أفكّر، لماذا تعطيني الحكومة هذا المبلغ، وبماذا أختلف عن الآخرين، وذهبت إلى عمّان وهناك عرفت أن الأمر مجرّد خطأ مطبعي، وأن علّي أن أدفع أنا أيضا 3000 دينار، وأن أي تأخير يترتّب عليه فوائد، وسكت الجميع.

في نفس الفترة تأخرت دورة أميرة الشهرية لبضعة أيام، وذهبنا لمستوصف البلدة لفحص الحمل، وكانت النتيجة أنها حامل، وكانت فرحة كبرى، حامل وبدون عملية زراعة، ولكن الحلم تلاشى بعد يومين وتبيّن أن الفحص كان خاطئا، وكانت شماتة زاهي بنا كبيرة، خاصة وأنه كان قد جاءه ولد ثالث في تلك الفترة، هذه المرّة حرقني وحرق أميرة، ولم يكتفي بهذا.

كانت العائلة تعرف أنني ملتزم بشيكات لمدة ثلاث سنوات، ولا يمكنني الالتزام بها إلا من خلال عملي في الشركة السعودية، ولهذا كان بعض أفراد العائلة يحذّرونني، ويقولون لي أن الشركة قد تستغني عن خدماتي في أي وقت، وعندها سأدخل السجن، وستكون فضيحة كبيرة، وسأضطر لبيع بيتي لسداد المبلغ.

وحقيقة لم يكن هناك أي نيّة لدى الشركة لفعل هذا الأمر، بل إن مدير الشركة كان يقول دوما لباقي الموظّفين ليظهر لهم مدى حبّه لي،

سعد مسجّل في دفتر عائلتي، ولكن رغم ذلك، كانت تمرّ عليّ لحظات أشعر بالرعب مما يقولونه، أحرق الله قلوبهم كما أحرقوا قلبي.

نهاية مشكلة!

كنت قد بدأت العمل على إعداد سيناريو أو "Storyboard" لجميع المفاهيم التي تتضمنها كتب العلوم السعودية من أجل حوسبتها بشكل تفاعلي، وبقيت الحاجة لحوسبة مناهج الرياضيات، وكنت قد أخبرت المدير أنني لا أستطيع أن أقوم بهذا الأمر، وطلب منّي البحث عن شخص يمكنه القيام بهذا العمل، وبحثت بين معارفي، صحيح أن الكثير ضالعون في الرياضيات، ولكن حوسبتها شيء آخر.

وفي إحدى الليالي قلت في نفسي: إلى متى هذا الجفاء؟ لماذا لا أجرّب؟ فنزلت إلى المكتبة في الطابق السفلي، وأخذت كتاب الرياضيات للصف الثالث ثانوي، وبدأت أقرؤوه بنظرة جديدة، فوجدت أنه علم ممتع، وحوسبته أسهل من حوسبة الأحياء مثلا، وجاء المدير في اليوم التالي في الساعة السابعة صباحا، وقلت له: لا داعي لموظّف لحوسبة مناهج الرياضيات، أنا أقوم بهذا، وفعلت، وبدأت قصّة جديدة لي مع الرياضيات.

بيت جديد ومشكلات جديدة!

اكتمل بناء البيت ، أو الطابق العلوي منه، ورحلنا أنا وزوجتي وأميّ، ولحقت بنا نارة، وفي اليوم الأول صارت تصرخ كعادتها تريد أن نحقق لها كلّ طلباتها، وبدأت بالزعيق، وهنا قلت لها: الآن هذا بيتي، لقد ذقت المرّ حتى بنيته، بيت أبيك ما زال قائما.

فخرجت مغضبة، وذهبت إلى بيت زاهي حيث حضنوها، وربّما صدّقوا لبعض الوقت أكاذيبها، لقد استرحنا منها، ولكن ليس لوقت طويل.

في البداية لم يكن لنا معارف في الحيّ وكانت أمّي وزوجتي تشعران بالضيق، وكنت بحاجة ماسّة لمبلغ 2000 دينار لإجراء عملية زراعة ثانية، لأن الوقت يمرّ وعمر أميرة يزداد، وهذا ليس في صالحنا، وما زال أمامي ثلاثة أعوام حتى أكمل ثمن البيت، أي لا يبقى من راتبي إلا مبلغ بسيط، فعرضنا على زاهي أن يأخذ الطابق الأرضي ويجهّزه مقابل هذا المبلغ، فوافق في البداية ثم رفض لأن كبريائه لا يسمح له أن يسكن تحتي، وكان هذا من صالحي، وإلا لوقعنا في مأساة كبيرة.

الانتقال بسرعة الضوء!

أحضرت من السعودية هاتف لاسلكي يوصل لبضعة كيلومترات، وأردت مداعبة بعض الأقارب، أخذت الهاتف، ووقفت بجانب باب بيت أختي زمهرير، واتّصلت من الهاتف اللاسلكي، وهو متّصل بالهاتف الأرضي، وردّت على المكالمة إحدى بناتها، فقلت لها: بعد قليل أريد أن أزوركم، ثم مباشرة ضغطت على مفتاح الجرس، وخرجت نفس البنت وعندما رأتني وكأنها رأت شبحا، أنت قبل ثواني كنت تتحدث من بيتك، وخلال لحظة صرت أمام بيتنا، وصارت تتكلم بكلام مثل الهذيان وتشير بيدها نحو بيتي ونحوي الآن، ثم وضّحت لها السرّ في هذا الأمر.

الهاتف المخيف!

أحد الأحداث التي أرعبت زوجتي كثيرا وعن غير قصد منّي وقعت قبل بضعة سنوات عندما سافرت للسعودية من أجل التدريب، وفي مساء ذلك اليوم اتّصلت بها من جهاز الأيباد من خلال أحد تطبيقات (Net to Phone) حيث تجري المكالمة الهاتفية من خلال الإنترنت بكلفة قليلة مع أي هاتف أرضي أو خلوي، ومن ضمن الإعدادات إدخال رقم الهاتف الذي يظهر عند المُستقبل، وكنت قد وضعت رقم الهاتف الأرضي في بيتي.

في ذلك الوقت كانت زوجتي في حفل خطوبة لإحدى قريباتنا، ورنّ جرس الهاتف عندها، وعندما نظرت إلى الرقم أصابها الرعب، لقد كان رقم هاتف البيت، والبيت خال تماما، وقد فسّرت الأمر باحتمالين لا ثالث لهما، الأول وجود لص، ولص وقح جدا يريد أن يخبرها أنه سرق البيت، والثاني، وهو الجن، حيث من عادتها أن تعزوا كل حدث لا تستطيع تفسيره للجن، وحقيقة لا أظن أنّهم يتدخّلون في هذه الأمور.

بعد أن أفاقت من الصدمة طلبت من بعض الشباب تفقّد البيت، ثم اتصلت بي وأخبرتني عن هذا الحدث الخطير فضحكت، وأفهمتها الموضوع.

طيف من الذكريات

كانت أميرة تعرف حكايتي مع أسماء، حيث كانت قصّة من الماضي الجميل، ولكن أسماء زارت أمّي يوما، والتقيت بها بعد لأول مرّة من زمن طويل، وكنت أتساءل في نفسي هل ما زالت أسماء تذكر ذلك الحب القديم؟

وبعد أن زال التوتّر نظرت نحوي وقالت: أتذكر يا سعد عندما كنّا أطفالا، والأيام الجميلة التي قضيناها معا؟

هذه الكلمات زلزلت كياني، وهذا أقصى ما أطمح إليه، فأسماء متزوّجة، ولديها الأبناء والأحفاد.

أحسّت أميرة بما أشعر به، وتفهمّت الأمر جيدا، وعندما أردت أن أوصل أسماء وعدد من القريبات اللّاتي جئن معها قالت لي: سأجلس في الكرسي الأمامي، في المكان الذي تجلس به أميرة.

لقد أرادت أن تعيد طيف تلك الذكريات الحالمة ولو لبضعة دقائق.

العمل في تلفزيون الأطفال

زرت يوما مدرسة اليوبيل وأخبرني المدير أن شركة تلفزيونية تنتج أفلاما للأطفال في سوريا طلبت تزويدها بأسماء خبراء في هذا المجال، وحصلت على رقم هاتف الموظّفة المسؤولة عن هذا الأمر، وحددت لي موعدا مع مدير الشركة.

في اليوم التالي كنت في دمشق، وكان المدير قد جمع كل الذين لهم علاقة بهذا المجال من فنيّين ومدراء، وبدؤوا في توجيه الأسئلة لي، فقلت له: ما رأيكم أن أعرض لكم كلّ ما عندي، ثم إذا بقي شيء غير واضح يمكن أن تسألوني إياه؟ فوافقوا ، وبعد ذلك بدأت العمل معهم واتفقنا على الراتب.

وعملنا أكثر من برنامج ضخم، وكانوا أحيانا يتّصلون بي ويطلبون زيارتي، وفي أحيان أخرى كنت أشتاق لهم أو لدمشق فأتّصل بهم، فيطلبون زيارتي، وعملت معهم حوالي سبعة سنوات رائعة.

اتصّلوا بي مرّة وأخبروني بأنهم بدؤوا العمل في برنـامج جديـد، وأرسلوا لي قوائم بالمواضيع التي يريدون منّي كتابتهـا، وكانـت مواضيـع جديـدة علـيّ، فقلـت للمـسؤول عـن فريـق الإعـداد متـى أخـر موعـد للتسليم؟ فقال: أمس! في كناية عن ضيق الوقت.

وبعد إكمال العمل بستة أشهر وجدت أنهم خصصوا لي مكافـأة إضافية فوق الراتب.

لقد كانوا يقومون بأعمال أخرى مثل دبلجة أفلام الكرتون، وقـد قـضيت فـترات طيّبـة معهـم واطلعـت علـى مراحـل العمـل في المجـال التلفزيوني، وتعرّفت على شخصيات مشهورة في هذا المجال وكان الجميـع في غاية التواضع، وحسن الخلق، وعملي معهم أوحى لي بعدد من أفضل كتبي.

حبس اختياري

أثنـاء عملـي في التربيـة شـاركت في دورة إلكترونيـات، وأثنـاء الدورة كنت أصمم أجهـزة بديلـة قليلـة الكلفـة للأجهـزة المـستخدمة في حفر اللوحات الإلكترونية، وبحثت في السوق عن كتب في هذا العلم فلـم أجد شيئا مقنعـا، فهـي إمـا كتـب نظريـة ألّفهـا دكـاترة جامعـات لبيعهـا لطلاّبهـم، وللحـصول علـى ترقيـة، أو كتـب تتـضمن بعـض الـدوائر الإلكترونية التي يـتم تجميعهـا مـن الـدوريات الأجنبيـة، ولهـذا بـدأت في مشروع طويل لإخراج مرجع ضـخم في هـذا العلـم، وكانـت خطّـتي أن تكون جميع مراجعي في اللغة الإنجليزية، وبضعة مراجـع في اللغـة العربيـة لهدف واحد فقط هو اسـتخدام المـصطلحات العربيـة المعتمـدة، والـشائع

استخدامها، وتمكّنت من جمع 50 مرجعا من مكتبات الجامعات ومن السوق.

وبدأت العمل، وكنت في كل يوم أحدد الموضوع الذي سأعمل عليه، ولنفترض أنه "الملفّات" حيث كنت أطّلع على50 مرجعا، وأختار أفضل المراجع التي تتحدث عن الملفّات، ولنفترض أنها عشرة، ثم أرتّبها حسب ترتيب الوحدة، واقرأ الفصول التي أريد، ثم أضعها جانبا، وأبدأ بالكتابة، ولهذا أي إزعاج قد يضيّع عليّ عمل ساعة كاملة.

في تلك الفترة سقطت ثلوج، وقلّت الحركة، وكانت زوجتي أحيانا ترجوني أن أسمح لها بالجلوس معي ولو لدقائق، وكنت أقول لها: لقد بذلت جهدا كبيرا حتى وصلت إلى هذا المستوى من الأداء، وأي خرق لهذا المستوى يجعلني أنزل لمستوى أسفل، وأحتاج لبذل الكثير من الجهد والوقت للرجوع إلى هذا المستوى، وكان شعاري دائما " لن تصنع المجد حتى تلعق الصبرا".

وفي أحد الأيّام شعرت بقسوة الوحدة لساعات طويلة، والجو بارد جدا في الخارج بحيث لا يتاح لها زيارة أي من صديقاتها أو توقّع زيارة إحداهن، ولم يكن عندنا سيارة، فقالت لي بكل رجاء: هل تسمح لي بالجلوس في غرفتك؟

قلت لها: نعم، ولكن بشرط الجلوس صامتة تماما.

حاولت أن تجلس لبضعة دقائق، ثم قالت لي: وهل تظن أن بإمكان أي امرأة أن تجلس لفترة طويلة وهي صامتة؟

ثم غادرت الغرفة.

أكملت الكتاب، وقد مضى ثلاثة أشهر لم أحلق شعري، ولم أخرج من بيتي إلا لفترات قصيرة جدا، وعندما خرجت أحسست أنني

أخرج من سجن، سجن إنفرادي قاس جدا، ولكن صدر الكتاب، وطبع أكثر من طبعة، وتعتمده كثير من الجامعات والمراكز التعليمية، وكثير من الطلاب الذين نجحوا وحققوا إنجازات عالية، كأن أصبحوا دكاترة جامعات في الإلكترونيات، أو مخترعين أو أصحاب شركات يصلني منهم الكثير من الشكر، ويقولون لي أن كتابي هو المنطلق الذي بدؤوا منه في فهم وحب هذا العلم.

حلم السيارة ما زال يراودني، فهل سيتحقق يوما؟

كثيرا ما تصدر إشاعات عن إعفاء جمركي لقصار القامة، وكنت أتابع هذه الأخبار باهتمام، ولم نكن نعرف الطول الذي يمكن أن يحصل على الإعفاء، وكنت أتندّر أحيانا بهذا الموضوع قائلا: إذا كنت أطول بقليل من الطول المسموح سوف أذهب لأخذ القياس في الشتاء لأن الأجسام تتقلّص بالبرودة!

وفي النهاية ذهب انتظارنا سدى، ولم نحصل على إعفاء جمركي، وبقي علينا أن نشتري سيارة مثل غيرنا.

كنّا عائدين مع عائلة عابد من زيارة عائلية، وفي الطريق سمح لي بقيادة سيارته من منتصف الطريق إلى البيت، وفعلت، وعرض عليّ أن يساعدني في شراء سيارة، وأشترى لي سيارة قديمة رخيصة الثمن، ودفعت أنا نصف ثمنها وأقرضني النصف الآخر، وبدأت أقودها في الحي والمناطق القريبة، ثم اتّصل بي أصدقاء لي ليشجّعوني على قيادتها بشكل طبيعي، ويزيلوا العقد التي زرعوها في ذهني عن قيادة السيارة، وقالوا لي سنذهب بطريق عجلون، واستمروا حتى ساروا في الطريق الصاعد إلى

قلعة عجلون، وهو طريق ضيق جدا، ومنحدر جـدا، وبحمـد الله وصـلت إلى ساحة القلعة، وأزلت من ذهني بقايا النبتة الخبيثة التي زرعها زاهي.

كل هذا تمّ في غياب زاهي، وعندما عاد من الخارج ذهبت العائلة جميعها إلى عجلون، وذهبت بسيّارتي، وسار خلفي محاولا إيجاد خطأ يبـدأ منه ويحاول إعادة الخوف إلى قلبي، ولكنّه لم يجد، وبدأ يقول كلامـا فارغـا عديم المعنى.

هجرس يردّ المعروف!

لقد كانت سيارتي الأولى قديمة، وهذا كان يناسـبني، لأنّـي أردت أن أتدرّب عليها، وبعد أن عرفـت أنـني أتقـن قيـادة الـسيارة أفـضل مـن معظم الناس، وأنّني لا أعاني من أي مشكلة في قيـادة الـسيارة، بـل علـى العكس صارت قيادتي مثلا أعلى لكثير من الناس، ولم أتلقّ أي مخالفـة في قيادة السيارة إلا في العام الأول وبسبب مخالفات بسيطة.

فكرّت في تبديل السيارة بواحدة أحدث، وذهبت لأخي هجـرس في مكان عمله، فهو يعمـل ميكـانيكي سـيارات، ويتـاجر أحيانـا، وعنـده خبرة جيدة، ولكن لا يهتم إلا بمصالحه.

لقد أقنعني بشراء سيارة طويلة وعريضة وضخمة جدا، كمـا أنهـا سيارة قديمة تعرّضت للإهمال كثيرا، ولهذا تفتقد لجميـع مظـاهر الرفاهيـة مثل التدفئة أو جهاز التسجيل، أو مضخة غسيل زجاج السيارة، كما أنهـا تفتقد لعدّاد السرعة، وعداد كمية البنزين.

ولأنّي لا أمتلك أي خـبرة في هـذا المجـال قبلـت لأنـي لا أملـك الكثير من المال أوّلا، وظنّا منّي أن أخي الأصغر الذي أعطيته الكـثير لـن يخدعني أو يخذلني، وكنت أظن أنه قد يأخذ بعض العمولة، أما أن يـدفعني

لشراء سيارة تتعبني جدا، ولا تتناسب مع حجمي وصحّتي فلم أكن أتوقّع أن يصل لهذه الدرجة من النذالة، وربّما له من اسمه هجرس، الذي يعني إبن الثعلب نصيب.

منذ اليوم الأول لشراء السيارة كانت تتعطّل باستمرار، وكل أسبوع كنت أذهب لمحلّه لتصليحها، فعرفت أن هذه السيارة بمثابة بقرة حلوب لهجرس.

الميّزة الوحيدة لهذه السيارة أنه لم يدخل البلد منها إلا دفعة لضباط الجيش والأمن، ولهذا عندما كنت أتوقّف عند أيّ نقطة عسكرية، وأنتظر منهم أن يطلبوا بطاقة الهويّة، كانوا يؤدون التحيّة، ويقولون: تفضّل سيّدي!

وأردت يوما تصوير نهر اليرموك من أجل المناهج المدرسية، فوقفت في بجانب نقطة عسكرية قريبة من النهر، وهناك يمنع الوقوف نهائيا، وأخذت آلة التصوير، والتقطت ما أحتاج من الصور دون أن يتعرّض لي أحد، ولكن بعد فترة ذهبت بسيارة أخرى وعندما توقّفت للتصوير أجبروني على مسح ما قمت بتصويره.

وقد استفدت من هذه الميّزة أنني صرت أوقف السيارة في أي مكان حتى لو كان ممنوع الوقوف فيه، دون أن أتلقّى أي مخالفة.

وفي أحد الأيام كنت أقود السيارة فلحقت بنا سيارة شرطة نجدة، لأن سيارتي كانت كبيرة جدا، وأنا صغير وبالكاد أظهر أمام المقود، وظنّوا أنني طفل صغير، وعندما توقّفت نزل شرطي من السيارة، وأظن أنه تم تكليفه بقيادة السيارة من أجل حجزها، وعندما رآني وعرف أنني شخص بالغ، لم يسألني حتّى عن رخصة القيادة وركب في سيارة الشرطة وذهبوا.

بعد ذلك اشتريت سيارة حديثة مبدّل السرعة فيهـا أوتومـاتيكي، والمقود كهربائي (Power)، وتتمتّع بكثير من المزايا والإضافات، وعندما قدتها عرفت حجم البؤس الذي كنت أعيشه، لأن الـسيارة الـسابقة كـان كلّ شيء فيها يدوي، وهـي سـيارة ثقيلـة وقديمـة، وأحسـست عنـدها أن قيادة السيارة أسهل بكثير من السابق.

مفارقات في الزنزانة الانفرادية

أثناء عملي في الثانوية كنت أسـافر أحيانـا إلى الـسعودية وأحيانـا أخرى لسوريا، وكان عندي مشغلا لإجـراء التجـارب وتـصويرها، ولـي علاقات مع بعض رجال المسجد، ويبدو أن كتابي في الإلكترونيات ومـدّة الحبس الاختياري الطويلة كل هذا وضع شكوكا حولي، ولكن كـل هـذه الأعمال لا تبرر اعتقال شخص ما، ولكـن في أحـد الأيـام كنـت أجلـس أمام البيت، حيث كان عندي بعض العمّال، ومرّ شخص يعتبر من رمـوز بعض الجماعات الإسلامية، لقد كـان في طريقـه إلى مدرسـة البنـات مـن أجل مشكلة حدثت مع ابنتـه، ودعوتـه للجلـوس، وشـرب الـشاي معنـا فجلـس لـبعض دقـائق وأكمـل طريقـه، ويبـدو أن أحـدهم أوصـل هـذه المعلومة "الخطيرة" عنّي، فكانت سببا في اعتقالي.

في إحدى ليالي الصيف، وأنا على وشك أن أنـام وقفـت بعـض السيّارات أمام البيت، ونادوا عليّ، وفتحت الباب، فـإذا بـشرطي بكامـل الاستعداد العسكري يوجّه سلاحه نحوي، ففتحـت البـاب، ودخـل عـدد من الرجال، وأخـذوا أجهـزة الحاسـوب الـتي عنـدي وكامـل الملحقـات، وعرفت أنه يتم اعتقالي، فأخذت دوائـي، وبعـض المـال، وأوصـلوني إلى مديرية المخابرات وأدخلوني غرفة مـساعد المـدير، وكانـت المفاجـأة لـي،

وله، لقد كان من طلّابي، أما هو فحسب المعلومات التي وصلته توقّع أنه سيقبض على "إرهابي كبير"، وجلست معه قليلا، ثم تعامل معي ببعض الأدب، حيث دلّني على الطريق وقال: من هنا الطريق إلى الزنازين!

نزلت وحدي، وسلّمت كل ما معي من أغراض للشرطي المسؤول ودخلت الزنزانة، ونمت.

في الصباح أعطونا شطيرة مربّى المشمس فقط وأرسلونا في السيارة الصندوقية إلى عمّان والتي يطلق عليها اسم (بوكس)، حيث موقع المخابرات الرئيس.

في البداية شعرت بالضيق، أنا أركب هذا الصندوق مثل المجرمين، وكان يركب معي عدد من الشباب المتدينين، وبدؤوا بالحديث معي، حيث قال لي أحدهم: يجب أن تحمد ربّك أنه اختارك من الآلاف ليبتليك هذا الابتلاء، وهذا يدلّ على إيمان قويّ. وكلامهم هذا أراحني كثيرا، وكانت رحلتنا إلى عمّان وكأنها رحلة رجال أعمال في طائرة، حيث مرّت وكأنها ثواني.

وصلنا إلى مركز المخابرات، وأنزلونا من السيارة واستقبلونا بطريقة جيدة، وأجلسونا في قاعة كبيرة ثم بدؤوا في توزيعنا، ومنذ ذلك الوقت لم أرَ أحدا منهم.

أخذوني إلى غرفة لأخذ البصمات والتقاط الصور(فيش وتشبيه)، ثم إلى زنزانة 74، وكان شكلها شبه منحرف ولهذا هي أوسع من باقي الزنازين وهي قريبة من الباب الرئيس، ولهذا كنت أسمع الحركة عندما يأخذون المعتقلين للتحقيق.

بمجرّد أن دخلت ضغطتّ مفتاح الجرس وجاء شرطي فقلت له أريد طعاما، فأنا جائع، فقال لي بعد قليل يأتي العشاء، ووجدت كأسا بلاستيكيا وسخا فقمت بتنظيفه على المغسلة.

جاء موظّف ليحضر لي لباس النوم الخاص بهم، ووجد صعوبة في إيجاد لباس على مقاسي.

في المساء أخذوني لمسؤول كبير وقال لي:

أتعمل معنا؟

فأشحت بوجهي عنه وقلت ساخرا: مستحيل.

فقال: خذوه.

وتوقّعت أن يتم إنزالي لغرفة التعذيب، وكنت قد وطّدت نفسي على الصبر، خاصة وأن جسمي ضعيف، ولن اصمد طويلا، وسأموت شهيدا، ولكن أعادوني للزنزانة، ثم بعد قليل طلبوني للتحقيق.

ما يثير السخرية أنّهم كانوا يضعون الأصفاد في يدي، وهي أوسع من معصمي، وعندما كانوا يريدون فتحها، كنت أقول لهم: لا حاجة لهذا، وكنت أخرج يديّ منها بسهولة.

في غرفة التحقيق، وهي غرفة صغيرة يوجد بها كرسي جلست عليه، ويوجد كرسي وطاولة صغيرة للمحقق.

في البداية جاء شاب بدوي صار يصرخ ويهدد ويطلب منّي الاعتراف، ويسألني عن علاقتي بذلك الشيخ.

وقلت له: يمكنك أن تفعل كلّ ما قلته، ولكن لا يمكنني أن أعترف بشيء لا أعرف ما هو.

ثم جاء المحقق، وهو شخص مثّقف وهادئ وواعي، ومن اللحظات الأولى أدرك أن هناك خطأ، وترك التحقيق وبدأنا نتحدّث عن

عملي مع تلفزيون الأطفال، ثم قال لي: لا يوجد شيء ضدّك، ولكن الإجراءات عندنا تأخذ وقتا، فطلبت منه أن يسمح لي باستخدام الحاسوب فرفض، وقال يمكن أن نعطيك ورقا وأقلاما ويمكنك أن تعمل بالتأليف كما تريد.

في السجن يسمح لنا بشراء ما نريد بأموالنا المودعة لديهم، فاشتريت بعض الحلويات والفواكه والملابس الداخلية، ثم أخذوني للمدّعي العام، وكان رجلا مهذّبا.

كان يسمح لنا أن يأخذونا للتشميس، أو للطبيب، وكنّا نجد في هذه فرصة للخروج من الزنزانة، كما كان يسمح أن نذهب لأخذ حمّام في أي وقت نريد، وفي يوم الثلاثاء كان مخصصا لشطف الزنزانة، وكانت هذه فرصة أيضا لفتح الزنزانة.

وكان المساجين يتواصلون مع بعضهم بالدق على الجدران، حيث يتم الدق عددا من المرات يساوي ترتيب الحرف ضمن الحروف الأبجدية.

في الزنزانة الانفرادية تمرّ الساعات ببطء شديد والنوم يعتبر راحة كبيرة للسّجين، لأن روحه تترك هذا المكان الموحش، وتسرح في الأكوان الفسيحة، وأبشع لحظة تمرّ عليّ هي عندما أفتح عيني وأفيق من نومي.

كان يؤنس وحشتنا صوت الأذان في المسجد القريب، وكان يأتي شرطي لإيقاظنا لأداء صلاة الفجر، فأقوم بأداء الصلاة، وأحاول أن أعود للنوم للهرب من واقعي الأليم.

باب الزنزانة به كوّة صغيرة يفتحونها عندما يريد أحد سؤالك عن الطعام أو الشراب أو التشميس، ويغلقونها باقي الوقت، وخاصة عندما يريدون نقل أحد المساجين من أجل أن لا تراه، وأي صوت

تسمعه يعتبر نوع التسلية، حتى صوت المعتقلين وهم يتألّمون من التعذيب أو الشعور بالوحدة القاسية.

يوجد في كلّ زنزانة نسخة من المصحف، ولم يساعدني شيء في تحمّل قسوة الوحدة إلا في قراءة وحفظ القرآن، وقد تمكّنت في تلك الفترة من حفظ عدد من سور القرآن الكريم، وكنت عندما أضع المصحف وأنظر حولي أشعر بوحدة قاتلة جدا، ولهذا أسرع وافتح المصحف وأبدأ في القراءة.

بعد أسبوعين زارتني زوجتي وكان يوم جمعة، وقد سعدت بهذا، أن عرفت أين أنا، وطمأنتها أنني بخير، وأنّهم وعدوني بالخروج يوم الثلاثاء القادم، وأخبرتني أنني فزت بجائزة علمية عن أحد أجهزتي.

مساء يوم الاثنين نقلوني لزنزانة أخرى أصغر من الأولى وبعيدة في آخر الممر، وكان رقمها 56،

فقلت في نفسي: (74-56= 18)

هل هذا الرقم يعني شيئا؟

في اليوم التالي عصرا وكان هذا اليوم هو اليوم الثامن عشر لي في السّجن، ألقوا إليّ كيس ملابسي وقالوا معك 10 دقائق لتكون جاهزا للخروج، وأوصلوني للشارع العام وركبت في الحافلة وبدأت أنظر للناس وكأنني قادم من عالم آخر.

في البيت وجدت وضع زوجتي أسوأ من وضعي، لقد طردوها من البيت، وجاءت نارة وزوجها وناموا في بيتي، أي بدؤوا في إجراءات احتلال البيت.

في اليوم التالي ذهبت لاستلام أجهزتي، ودخلت مبنى المخابرات وأنا مفتوح العينين وليس مغلقا كما هو الحال في السابق،

وجاء المسؤول الذي عرض علّي العمل معهم، والمحقق وسلّموا عليّ، وأعطاني المحقق رقم هاتفه للتواصل معه إن احتجت شيئا.

صحيح أن هذه التجربة كانت قاسية نسبيا عليّ، وكانت قاسية جدا على زوجتي، ولكن علّمتني أن الحال الذي عليه الإنسان قد يتغيّر في ومضة عين، وهذه المرّة ذهبت للسجن، وخرجت، ولكن في مرّة أخرى سأذهب للقبر ولن أعود للدنيا، وسجدت لله شكرا وأنا في السجن، على هذه التجربة، وفي الليل حلمت أنني على سرير في غرفة العمليّات، ويريدون إجراء عملية لي، وقبل أن يعطوني إبرة التخدير ردّدت الشهادتين، لأني قلت في نفسي: ربما لن أخرج من العمليّة حيّا، وعندما أعطاني إبرة المخدّر في منامي استيقظت، وقلت في نفسي، ربّما هذه المحنة هي عملية علاجية لروحي، وليس لجسدي.

تصنيع الأجهزة والاستنساخ!

بعد خروجي من الاعتقال بأيّام جاءتنا دعوة من مؤسسة شومان لحفل تسليم الجوائز، وكنت قد حصلت على الجائزة عن أحد الأجهزة التي اخترعتها، حيث كنّا نعاني من مشكلة جهاز راسم الذبذبات، لأن المعلّمين يجدونه معقدّا، ورغم كلّ الجهود التي بذلتها لم أتمكّن من دفع القليل منهم لاستخدامه، فابتكرت نموذجين من هذا الجهاز، أحدهما بسيط جدا وقليل الكلفة للطلاب، والثاني متطوّر للمعلمين، وهذا الجهاز يستخدم الليزر في رسم الإشارة بدل الشاشة.

وطلب منّي أن ألقي كلمة الفائزين، وكانت فرصة أجدت استخدامها، حيث تحدّثت بجرأة عن إهمال العرب للبحث العلمي، وكان من الحضور عدد من كبار المسؤولين والوزراء والسفراء، وأخفت نارة

رأسها ولم تظهر أي شيء يدلّ على أنّها من طرفي لأنّها توقّعت أن يتم اعتقالي قبل مغادرة الحفل.

وبعد نهاية الحفل دعينا إلى حفل شاي، وكان معنا ابن زاهي وابن زمهرير الصغار حيث تدافعوا ودفعوا أمامهم راعي الحفل وبعض كبار الشخصيات، وأخذوا الأكياس المستطيلة الخاصة بالسكّر والقهوة وبدؤوا بمصّها ظنّا منهم أنها تستخدم هكذا، ولم يعلموا أن راعي الحفل صار في اليوم التالي رئيسا للوزراء.

بعد التكريم واستلام الجائزة عدنا للبيت، وفي الطريق سرح ذهني بعيدا، بعيدا جدا عندما نشأت هوايتي لحب العلم والبحث العلمي والأجهزة والاختراع، وتذكّرت قصّتي عندما "اكتشفت الكهرباء" لأول مرّة، وقمت بتجميع أول مصباح كهربائي بسيط، ثم عندما صنعت المرحلّ دون أن أعرف أنني ابتكرت قطعة كهربائية دون أن أعلم، رغم أن هناك من سبقني إليها.

وفي طفولتي لم أجد أي كتاب يزوّدني بشيء حول هذا الموضوع، ولهذا قررت أن أقوم أنا بسدّ النقص في هذه العلوم في المكتبة العربية، وفعلت، بل تصدّرت هذا المجال والحمد لله.

خلال السنوات السابقة ابتكرت الكثير من الأجهزة التعليمية، ودرّبت عليها مئات من المعلّمين، وقيّمي المختبرات، والطلاّب.

وعندما جاء مدير جديد للمركز سمح لي أن أعمل كما أريد، فقمت بإعداد قائمة من 50 جهاز مخبري وأرسلت كتابا رسميا للمدارس التي تتبع لنا بمنع شراء هذه الأجهزة، والبديل هو تصنيعها، كما أرفقت قائمة بخامات البيئة والأدوات التي نحتاجها لورشة التصنيع، وبدأت المدارس تتصل بالمدير وتحجز موعد لورش التصنيع، حتى صارت

الطلبات أكثر من قدرتنا على تنفيذها، وفي إحدى الاتصالات ألحّ مدير المدرسة لإعطائه موعد قريب، فصاح به مديري قائلا: ماذا يمكنني أن أفعل؟ هل أستنسخ لكم سعد؟

ثم اقترحنا تغيير الإستراتيجية، حيث قمنا بدعوة قيمي المختبرات إلى ورش عمل مركزية لتصنيع الأجهزة، وحصلت على بعض المبالغ من مدارس غنيّة كانت كافية لتغطية احتياجات هذه المشاغل، وكان كلّ قيم مختبر يعود بعد دورة ليومين بمجموعة من الأجهزة التي يحتاجها مختبره.

انتقام الفئران!

كان المبنى الذي نعمل به من الأبنية الجاهزة، ومصنوع من طبقات من الإسبست والخشب ومحشو بالصوف الصخري، وصارت الفئران تفتح ممرات في الجدار وتتنقل في المبنى كما تريد.

كنت قد قرأت عن تأثير الأمواج فوق الصوتية على الفئران، فأخرجت مولّد ذبذبات وأوصلته بمكبّر صوت لتضخيم الصوت، ثم أوصلته بسمّاعة ضخمة، وبدأت في رفع تردد الأمواج الصادرة عن الجهاز، وشاهدنا بعض الفئران تخرج من جحورها وتهرب مبتعدة.

كما وضعت مادة لاصقة تستخدم للإمساك بالفئران على قطع خشبية أمام جحورها في جدران المختبر وبجانبها بعض الجبن، وفي اليوم التالي وجدت أنها أخرجت كمية من الصوف الصخري ووضعتها فوق المادة اللاصقة، ومرّت من فوقها وأكلت الجبن، وانطلقت في المختبر كما تريد.

في فترة الاستراحة سبقني زميلي لعمل شطيرة من الخبز والجبن الذي أحضرناه في اليوم السابق، حيث مدّ يده وأخرج الخبز والجبن وهو يتحدّث معي ويصنع الشاي، وأكل بعضا منه، وعندما ذهبت إليه ورفعت الكيس وجدت أن الفئران أكلت من كل قطع الخبز، وأتلفت مثلثات الجبن، لقد انتقمت منّا وأتلفت طعامنا.

قسوتي في انتمائي لعملي!

كنت شديد القسوة على من يتدخّل في مجال عملي، وهو المختبرات المدرسية، وكل من حاول التدّخل في هذا الشأن، وخاصة لمصلحة شخصية كنت أعامله بقسوة شديدة، ومن هؤلاء مشرف الأحياء، وهو رجل هادئ جدا، ويعرف في كل شيء إلا الأحياء، وفي إحدى دوراتي حشر نفسه في الدورة طمعا بمبلغ بسيط، وجاء متأخرا ودون أن يطلّع على محتوى الدورة، فبدأت بالتلاعب معه من البداية.

رحّبت بالحضور، وقلت لهم سيتحدّث المشرف لنا عن علاقة دورتنا هذه بمنهاج الأحياء، فاختنق الرجل ولم يعرف ماذا يقول، وكان مدير المركز مارّا أمام الباب، وعرف ما الذي أنوي فعله، فأشار إليّ أن أخرج الرجل من هذه الورطة، فتدخلّت قائلا: على كل حال الوقت قصير، ولنبدأ العمل.

ثم خططت لطرده من الدورة بناء على خبرتي بهذا الرجل، فقلت للجميع: مشرفنا سوف يحضّر الآن شريحة بكتريا، وهو لا يعرف كيف يفعل هذا، فقال لي: سأخرج قليلا لجمع بعض العيّنات من الحديقة، وغادر بدون عودة.

وفي دورات أخرى كـان يـشاركني مـشرفين لا يبـذلون أي جهـد ويعتمدون عليّ، ولكن في دورات الأحياء كنـت أعمـل حركـة بـسيطة في المجهر فلا يعمل، وأضعهم في حرج، ثم بحركة صـغيرة مـن إصـبعي أحـلّ المشكلة، وفي دورة أخرى جاء مشرف فيزيـاء ليـشاركني في دورة، وكنـت أستخدم أجهزة من ابتكاري، وأراد أن يظهر للمتدرّبين أنه هو مـن ابتكـر هذه الأجهزة، وكنت أعرف هـذا، فوضـعت لـه فخّـا في أحـد الأجهـزة، حيث بدأ هذا المشرف بالحـديث عـن الجهـاز بثقـة مـستخدما المعلومـات البسيطة التي عرفها منّي قبل الدورة، ثم شـغّل الجهـاز فـأنفجر واحـترق، ووضـعته في إحـراج كـبير، ثـم بـسهولة قمـت بتـصليح الجهـاز وإعادتـه للعمل، بعد طرد هذا الدعيّ.

وحادثة أخرى وقعت عندما كنـت أعـدّ الإجـراءات لعقـد دورة أحياء، وحضّرت تجارب كتب المرحلة الثانوية كاملة، وكان ينقصني بعـض السمك الصغير من أجل عدة تجارب.

في يوم الجمعة جاء بعض أقـاربي، ونزلنـا إلى سـد وادي العـرب للصيد، وكان الجـو حـارا جـدا، ووجـدت أحـد الـصيّادين معـه أسمـاك صغيرة حيّة، وطلبت منه شرائها، فأعطاني إيّاها مجّانـا، ولم يكـن معنـا أي وعـاء لحفظهـا، إلا حافظـة المـاء البـارد، فـسكبت المـاء البـارد في الـسد، وملأتها من ماء السد، ووضعت السمك بهـا، وعنـدما أحـسّوا بـالعطش أسرعوا إلى الحافظة فأعلمتهم بالأمر، فغضبوا منّي، وقلت لهم بكل بـرود أعصاب: العلم يحتاج إلى تضحية!

حكايات مشحونة

في تجارب الفيزياء في الجامعة كنا نستخدم جهازا يصدر كهرباء ساكنة بفرق جهد يصل إلى 100 ألف فولت اسمه مولد فاندغراف، وتنتج عن شرارات كهربائية طويلة، ولكنّه غير ضار لأنها كهرباء ساكنة وليست متحرّكة، وعندما عملت في التربية وبدأت أرافق المشرفين في زياراتهم للمدارس ودوراتهم كانوا ينظرون لهذا الجهاز بصفته شيء خطير ولا يجرؤ أي منهم على تشغيله، وتذكّرت أيّام الجامعة، وحاولت إقناعهم ولكن دون جدوى.

وجمعت كتالوجات الجهاز، وكل ما يتوفّر لي من معلومات عنه، وكلّها أثبتت أن الجهاز عديم الخطر، وأن ما يقوم به يشبه عملية دلك مشط بلاستيكي بقطة صوف، حيث يشحن المشط ويجذب قطع الورق الصغيرة، بينما في الجهاز يوجد محرّك يقوم بدلك مستمر بين سير مطاطي وبكرة بلاستيكية.

استخدمت الجهاز، وجرّبته على نفسي، وطوّرت عشرات التجارب الجديدة عليه، ثم في أوّل دورة لمعلّمي ومعلّمات الفيزياء كنت أجبر كلّ واحد منهم أن يقف على لوح إسفنجي لكي أعزله، ويضع يده على قبّة الجهاز، وعندها سوف يقف شعر رأسه، ويكون الأمر أكثر وضوحا إذا كانت معلّمة سافرة وشعرها ناعم وقصير، ومن التجارب التي كنت أجريها أنني أقرّب طرف أنبوب فلورسنت (مصباح نيون) من جسم الشخص المشحون، وأمسك أنا الطرف الثاني وأنا واقف على الأرض، فيضيء المصباح، وكنت أداعب المعلّم أو المعلّمة وهو في الغالب خائف ومرعوب، وأقول له: نورك أضاء المختبر.

وزارنا رئيس قسم المختبرات في الوزارة ونحن نستخدم هذا الجهاز، فابتعد خارج باب المختبر، ونادى عليّ والخوف مسيطرا عليه:يا سعد، اتق الله، أنظر إلى المعلمّين، وخاصة المعلّمات وجوههم مصفرّة من الخوف، حرام عليك!

فقلت له: هذا الجهاز عديم الخطر، وعلى مسؤوليتي، وبما أنهم قبلوا أن يكونوا معلّمي فيزياء فإن عليهم استخدام هذا الجهاز، وإذا كانوا لا يجرؤون على استخدامه هنا على مسؤوليتي، فكيف يمكن أن يستخدموه مع 30 أو 40 طالبا، وعلى مسؤوليتهم.

ولم يقتنع ذلك الرجل، وبعد فترة زرت قسم المختبرات في الوزارة، وكان يوجد عدد من الموظفين الجدد، وعندّما عرّفت بنفسي قال لي أحدهم: أنت الذي لا يخاف من الفاندغراف كما يقول رئيس قسمنا؟

فقلت لهم ضاحكا وساخرا: نعم أنا الذي لا يخاف من الفاندغراف.

ثم قال لي: وصلتنا مجموعة من الأجهزة، ومطلوب منّا تجربتها، هل يمكن أن تؤدي لنا هذه الخدمة؟

فوافقت طبعا، وفتح لي باب غرفة المستودع وأراني الأجهزة، وهرب مبتعدا!

وعندما كنت أذهب للوزارة لأي عمل كنت أعرّج على قسم المختبرات، ولما رآني رئيس القسم بدأ يحدّث الموجودين ويتندّر بقسوة قلبي وسطوتي على المعلّمين فيما يخصّ هذا الجهاز!

وعند إعداد أدلّة التجارب المخبرية اقترحت إدراج هذا الجهاز، لأن مادة الكهرباء الساكنة موجودة في عدّة صفوف، وهذا الجهاز متوفّر

في المدارس، فنظر لي مشرف فيزياء غاضبا ومستنكرا: ألا تخاف ربّك يا سعد؟

تريد من المدارس استخدام هذا الجهاز الخطير؟

واستمر صراع طويل بيني وبين تلك العقول المحنّطة حتى أزلت الخوف من هذا الجهاز. ومن الطريف أنني زرت مدرسة وشغلّت لهم هذا الجهاز، وعندما كانت تنطلق الشرارات الكهربائية بين قبّة الجهاز وإصبعي ابتعد معلّم الفيزياء في المدرسة قائلا: عندما أسمع هذا الصوت، أي صوت التفريغ الكهربائي، يقف شعر رأسي خوفا!

بعد ذلك قمت بتصنيع نموذج من هذا الجهاز من محرّك العاب صغير، وشريط من كيس نايلون، وغطاء قلم بلاستيكي، وقطع خشبية، وصحن معدني صغير، وقد أنتج شحنات كهربائية قوية، وكلّ هذا في محاولة لإقناع الناس بحقيقة هذا الجهاز.

وقد شاهدت برنامج عن النازية، حيث كانوا في ألمانيا يحضروا جمجمة ألماني وجمجمة شخص غير ألماني في المختبر ليثبتوا للطلاب أن دماغ الألماني أكبر من دماغ الإنسان العادي، وقد رأيت في الخلفية جهاز فاندغراف، أي أنّهم كانوا يستخدمون هذا الجهاز في المدارس منذ أيام هتلر.

في بعض الأحيان كنت أحاول مداعبة بعض زملائي وخاصة الذين لا أسلم من مقالبهم، بوصل يد باب المختبر مع قبّة الجهاز، ومن يمسك اليد سوف تضربه شحنة كهربائية قوية، وهي غير ضارة كما قلنا، ولكن عنصر المفاجأة هو المخيف.

يوجد نماذج ضخمة من هذا الجهاز بارتفاع طابقين تستخدم في بعض التجارب والقياسات.

الرحيل وجلطة المدير!

كان المركز يستخدم أحد الأبنية الجاهزة القديمة التي كانت تستخدمها المدارس، وبدأ التلف يظهر عليه، وكان الموظّفين في كل فترة يرفعون شكاوي من أجل الترحيل إلى مبنى آخر، وكان لديهم أهداف أخرى منها الاقتراب من وسط البلد، لأن المبنى يقع على أطراف المدينة.

وكنت أعرف أنه لن نجد مبنى واسعا مثل هذا المبنى رغم مشاكله، حيث يوجد لدينا مختبرين واسعين، ومشغل، ومعرض، ولهذا كنت أسعى لتعطيل عملية الترحيل دون علم الجميع، ولو علموا في ذلك الوقت أنني كنت أفعل هذا لكان وضعي صعبا.

وصلت عملية المطالبة بالرحيل لمستوى عال، وذهبت إلى عمّان لمراجعة القنصلية السعودية للحصول على تأشيرة عمرة، وقدّمت الأوراق، وذهبت إلى مديرة المناهج، وقلت لها إن المكان جيد، وأن هؤلاء الموظّفين يريدون فقط الاقتراب من السوق، ليسهل عليهم الخروج وقضاء مصالحهم أثناء وقت العمل، وكان كلامي صحيحا، فاقتنعت، وخلال فترة سفري للعمرة كانت قد زارت المركز ووجدت أن المبنى ما زال صالحا للاستخدام، وألغت فكرة الرحيل.

مرّة أخرى ذهبت للوزارة، وفعلت نفس الشيء، وبسبب الضغط الكبير من أجل الرحيل جاء وزير التربية لتفقدّ المركز، وألغى فكرة الرحيل.

بعد ذلك بسنوات ساء وضع المركز كثيرا، وصار فعلا غير صالح للاستخدام، وطلبنا من المدير أن يأتي ليطّلع بنفسه على الوضع، ووصلنا أنه قال: لا أريد زيارة المركز لأن رائحته مثل رائحة زريبة الدجاج.

هذا الكلام جعلنا نغلي غضبا عليه، وقررنا عمل شيء من أجل أن نرحل رغما عن أنفه.

دعونا مدير صحّة البيئة لزيارة المركز، وقمنا بتحضير غازH_2S وهو الغاز الذي يعطي الرائحة للمجاري، والبيض الفاسد، ونشرنا الغاز في جميع مرافق المركز، فجاء قرار فوري بالرحيل.

ذلك الغبي، مدير التربية قام باستئجار مبنى صغير من شقتين، وأعطانا غرفة أبعادها 3×3.5 للمختبرات، وكان في عهدتنا أكثر من 40 خزانة مليئة بالأجهزة والأدوات.

بدأت الوحدات الإدارية بالرحيل، ونحن رفضنا ذلك، وجاء طلب منّا أن نرحل وأن نتدبّر أمرنا بهذه العهدة، وعندها قلت له:

ربّما لا يهمّك العمل، ولكن تريد منّا أن ننقل مختبراتنا لعمارة سكنية، وأنت تعرف أن المواد الكيميائية يصدر عنها أبخرة ضارّة، وأنا سأرسل هذا الخبر لصحف الفضائح!

وهنا صار يلهث، وأراد أن يغادر، فقال له مدير المركز: سعد يمزح ولن يبلغ الجرائد، وفي اليوم التالي علمنا أنه أصيب بجلطة وأدخل المستشفى.

قرد وخبير يونسكو!

خلال الفترة الماضية كنت قد جهّزت الطابق الأرضي لأمي بحيث صار أجمل وأفضل من بيتي، وكنت قد خصّصت قاعة كبيرة نصفها مشغل لتصنيع الأجهزة، وتصوير التجارب، ونصفها مكتب، وعندما رحلت أميّ لهذا الطابق وقفت نارة مستنفرة وقالت: لا تحلموا بأن تعتبروا هذا الطابق مثل النظام الأمريكي!

أي أنا وزوجتي لا يحق لنا النزول إلا بترتيبات معيّنة وضعتها نارة ، وكنت أقول في نفسي: أي شيء تقبله أميّ يجب عليّ تحمّله بصدر رحب.

عندما صدر لي بضعة كتب في تبسيط العلوم ذهبت إلى مكتب اليونسكو في عمّان وفتح لي البوّاب، وسألني عن سبب قدومي، وعندما بدأت بالحديث أغلق الباب في وجهي وأدار ظهره.

بعد عشر سنوات بالضبط كنت في مكتبي عندما رنّ جرس الهاتف وإذا مكتب اليونسكو يريدونني لتكليفي بتأليف 15 كتاب في مواضيع من المناهج المدرسية العراقية، يا سبحان الله، وراجعتهم، وسألتهم كيف عرفوني فقالوا: لدينا عطاء شراء كتب وجاءنا عيّنات كتب في مختلف مواضيع العلوم كلّها باسمك، وأخذنا رقم هاتفك من دار النشر.

عدت سعيدا للبيت، وكان من عادتي أن أقف عند باعة الفواكه على طريق جرش لأشتري بعضها، وأخذت بعضها ونزلت عند أميّ بمجرّد دخولي البيت، كما أفعل دائما، وكان هناك نارة وخالتي، فسألتني خالتي عن سبب السرور الظاهر على وجهي، فقلت لها: اتفقت مع اليونسكو وهي مؤسسة دولية تعنى بالعلوم، على تأليف 15 كتاب منهجي للعراق، وهنا قفزت نارة والغضب يتفجّر منها وقالت: تريد أن تبقى أمامي مثل القرد؟

قلت لها أنا في مكتبي وفي بيتي، وأنا جالس على هذا المكتب للتأليف سواء للعراق أو غيرها، فزاد جنونها، وتحدّثت بسوء عن زوجتي، فطردتها من بيتي، وبعد أيام وجدتها في البيت ومعها زوجها وزمهرير، كقوة دعم، فطردتها مرّة أخرى، ولأشهر عديدة.

بعد ذلك عقدنا دورات لخبراء من وزارة التربية العراقية على المناهج الجديدة، وخاصة على أجهزتي المخبرية التي أدخلتها في المناهج وبإسمي، وكذلك عقدنا دورات لمشرفين من كافة محافظات العراق ليقوموا هم بتدريب المعلمين في مديرياتهم.

أنا وعبد الرحمن الداخل!

خلال سنوات طويلة أغلقت قلبي عن الحب، فهو ليس لي، وليس من حقّي، أو هكذا أشعرني المجتمع حولي، ولكن بحمد الله وبعد سنين طويلة مريرة، تزوّجت وأنا أحبّ زوجتي كثيرا.

عندما وقّعت عقد العمل مع شركة الإنتاج التلفزيوني السورية، سألت المدير العام عن نفقات قدومي وإقامتي في دمشق عندما يتم دعوتي من أجل العمل، فأغلق الباب ووقف خلفه، وقال مبتسما: نزوّجك شامية وتقيم عندنا، ثم بعد ذلك أخبرني بوجود نظام لهذه الأمور ينطبق على الجميع.

انتهت هذه المداعبة اللطيفة من ذلك الرجل اللطيف، ولكن يبدو أن لها عواقب أخرى!

دخلت يوما لأحد مقرّات الشركة فرأيت موظّفة جميلة جدا، وذكيّة جدا، وأطول منّي بقليل، ولديها شهادة في العلوم، وأحسست أنني أعيش في ملحق لفترة المراهقة والتي لم أجرّبها سابقا ، وعرفت أنني مقبل على خيارات صعبة، وبعد أن عملنا معا لفترة من الوقت لاحظت أنها تنجذب نحوي أكثر، وتركت ثياب الجينز ولبست حجابا شرعيا، وعندما دخلت إلى الشركة جاءت وسألتني عن رأيي في الحجاب، وطبعا شجّعتها على ذلك، وسألتني عن مظهرها في الحجاب، فقلت لها: أجمل من مظهرك

السابق، وشاركتني بمشروع مدفوع الثمن لمؤسسة خليجية، ونجحت في العمل ودفعت لها مكافأتها، واقتربت منّي أكثر، وتذكّرت زوجتي، وهدفي في الحياة ومشروع حياتي، وقارنت وضعي هذا بما فعله عبد الرحمن الداخل عندما بدأ بتأسيس دولته في الأندلس، حيث أهديت له جارية غاية في الجمال، فقال: "إن هذه من القلب والعين بمكان، وإن أنا اشتغلت عنها بهمتي فيما أطلبه ظلمتها، وإن اشتغلت بها عما أطلبه ظلمت همتي، ولا حاجة لي بها الآن" وردّها على صاحبها.وتذكّرت كذلك صبر زوجتي عليّ، لأنني أثناء وقت العمل لا أسمح لأحد بقطع خلوتي، وأحيانا أقول متندّرا: إذا أرادت زوجتي أن تراني في وقت العمل عليها أن تكتب استدعاء، وتضع عليها طوابع.

وحتى في الليل، كثيرا من أستيقظ لأكتب بعض الأفكار لعمل الغد، وأي حركة قد توقظها، ولهذا كثيرا من الأحيان ينام كلّ منّا بغطاء منفصل، وأطلقت على هذا الوضع "سايكس بيكو منزلي"، ولكن إن توقّف سيل الإلهام، أقول لها: هل تسمحين لي بأن أكون لاجئا سياسيا عندك؟

والأهم من هذا كلّه أنني وعدت زوجتي أن لا أسبب لها أي حزن أبدا، أو أخذلها يوما، وكان قراري سريعا، فتحدّثت مع زميلتي، وأفهمتها أن هنالك فرق في كبير في العمر بيننا، وأنني رجل متزوّج، وليس عندي أطفال، وعندي مشاكل كثيرة هي في غنى عنها، وظروفي لن تناسبها، وبدأت أبتعد تدريجيا.

ولكن من عادتي أن أستفيد من كلّ تجربة في حياتي، فقررت أن أشاركها في كتاب، يكون ذكرى لتلك الأيام الجميلة، التي أحسست خلالها أنني عشت فترة المراهقة أو الشباب التي حرمت منها، وصحيح

أنني لم أستطع أن أضع اسمها بجانب أسمي في بطاقة أفراح ولكن وضعته في شيء أجمل، وأدوم، كتاب رائع في العلوم وضعت به الكثير من جمال روحها، وصفاء ذهنها، يقرؤوه الناس إلى ما شاء الله، وهو محفوظ في مئات من كنوز العلم والمعرفة، المكتبات.

ومن الأحداث الشبيهة قصة الزميلة ميمي، وهي مؤلفة شاركتني في تأليف بعض الكتب المنهجية، ولكن تسببت لي بشيء من الإرباك.

تعرف زوجتي أن طبيعة أعمالي في التدريب وشركات الحوسبة والتلفزيون والتأليف تتطلب التواصل مع نساء من مختلف الفئات، وقد رافقتني لشركة التلفزيون في سوريا مرات عديدة وشاهدت اجتماعاتي المغلقة مع فتيات في غاية الجمال والتبرج، وكذلك في شركات الحوسبة. وزارتني في التربية، وتعرّفت على زميلاتي، وبعض طالباتي، وكل هذا لم يزعجها البتة، ولكن أثناء التأليف شاركتني امرأة اسمها ميمي، كبيرة في السن، لا تملك شيئا من الجمال، ولا يوجد مقارنة مع جمال زميلاتي السوريات مثلا، وهي محجبة تماما، وقد اتصلت بزوجتي وعرفت بنفسها، وسألت عني، وعدت للبيت فأجلستني للحساب قائلة: لقد تعوّدت على عملك مع نساء في غاية الجمال والانفتاح بكل صدر رحب لأني أعرفك، وأعرف أنه لا يهمّك إلا عملك، ولكن قصة ميمي هذه لا يمكن أن استوعبها !!

الفرق الذي تسبب بهذه المشكلة كان هو الاسم ميمي، وليتها قالت أم فلان

ولكن لا أدري لو اتصلت واحدة وقالت؛ سوسو مثلا، ماذا كان موقفها؟

فرص مغرية وعالِم مجنون!

ربما يظنّ القارئ أنني أتحدّث عن كتابي "أحلام عالِم مجنون"، ولكن هذا غير صحيح، لأن العالِم المقصود هنا هو أنا، وقدّ يظنّ البعض أنّني مجنون بعد أن يقرأ الفقرات التالية!

هدفي في الحياة هو إكمال مشروعي في مجال التربية وتبسيط تعليم العلوم والرياضيات، وأي عمل يعرض عليّ إن كان يسير في نفس الخط، ويساعدني في تحقيق بعض أهداف المشروع أقبله دون تردد، مثل عملي في تأليف المناهج المدرسية.

كما أن أي عمل لا يؤثر سلبا على مشروعي، أو يكون تأثيره قليلا، أيضا أقبله.

ولكن من جهة أخرى أي عمل يعرض عليّ إن كان لا يخدم مشروعي، وله تأثير سلبي عليه، فلا أقبله مهما كانت المغريات.

من الأشياء التي كانت تدفعني لأخذ قرار سريع برفض بعض العروض المغرية أمّي، لأنها كانت لا تعرف أن تعيش إلا عندي، وقد كان لنا تجربة صعبة في هذا المجال، عندما ذهبنا للرياض، وتركتها لستة أشهر وجدتها في حالة يرثى لها، حيث تفرّقت العناكب التي لم تكن تتركنا في حالنا يوما، لأن أميّ ليس عندها مكاسب تقدّمها لهم.

وكثيرا ما كان مدير شركة الإنتاج التلفزيوني في دمشق يعرض علّي أن يؤمّن لي سكنا لأقيم عندهم في دمشق، وكنت أعتذر ولا يقبل اعتذاري إلا عندما أقول له أمّي، فيسكت.

لقد عملت مع شركة الحوسبة، وكنت أذهب لمكتب الشركة يوم في الأسبوع، أو يومين على أقصى تقدير، وأحيانا كانت العقد يتضمن ساعات دوام مكتبية قليلة مثل:

40 ساعة شهريا، وعادة لم تتجاوز ساعات دوامـي الفعلـي أكثـر من 20 ساعة شـهريا، وربّمـا اقـل، وكانـت الـشركة تتغاضـى عـن هـذا "الإهمال" لأني أقدّم بالمقابل الكثير من الإنجازات.

وبعد سنوات أخذني المدير للطابق العلوي مـن البنايـة الـتي تقـع بها الشركة، وأراني شقة مجهّزة، وقال لي: يمكنك أن تقـيم في هـذه الـشقة ثلاثة أيام في الأسبوع أنت وزوجتك، وباقي الأسبوع لك، وعـرض علـيّ راتبا مغريا.

نمت ليلتين في الشقّة، ثم وجدت أن التزامي بهذا العمل سـيكون له تأثير كارثي على مشروعي فاعتذرت.

شركات أخـرى في عمّـان دفعـت لـي رواتـب مغريـة مقابـل أن أعمل عندها ثلاث أيام في الأسبوع، ورفضت للأسـباب سـالفة الـذّكر، ، حتى أن مدير الشركة السعودي ضاق ذرعا بهذه الثوابت التي ألزم نفـسي بها فقال لي: إربد المقدّسة!

قلت له: ليس للأمر علاقة بإربد، ولكن عنـدي 3 معـايير مهمـة لقبول العمل، وهي أن لا تتعارض مع ديني، وصحّتي، ووقتي، وأي عمـل يتعارض مع أحد هـذه المعـايير مرفـوض، وغالبـا الـصحة والوقـت همـا السببين الأبرز، حيث لم يعرض علّي عمل يتعارض معي ديني.

وشاركت في مؤتمر في الكويت، وأثنـاء ركوبنـا في حافلـة صـغيرة حيث كنّا مدعوّين لعشاء في أبراج الكويت عـرض علـيّ رئـيس الجمعيـة الكيميائيـة الكويتيـة أن أعمـل عنـدهم، فرفـضت دون تـردد، وخـلال الحديث جاءني اتّصال من زوجتي، وكان الرجل يجلس بجانبي، فقلت لهـا: عرضوا عليّ أن أعمل هنا، فردّت سريعا: لا نريد!

فقلت له: هل سمعت بإذنك؟

وربّما ظنّ من لا يعرفنا أن زوجتي مجنونة مثلي، ولكن هي تعرفني جيدا، وأيضا المال ليس كلّ شيء، بل يوجد أشياء كثيرة أهمّ منه، ولو عملت في الكويت لحرمت المكتبة العربية من عشرات من الكتب القيّمة.

ولكن هل تظنّون أننا عائلة مجانين، أم نعرف ماذا نفعل؟

لقاء الفجر في صلالة!

كنت في مدينة صلالة العُمانية أشارك في مؤتمر، وفي حفل الغداء الوداعي جلس بجانبي مهندس من المدينة المنوّرة، وقال لي: موعد طيارتك في الخامسة صباحا؟

فقلت له نعم.

فقال: سيأتي صديق لنا اسمه يزيد، وهو مديرنا العام بسيارته لإيصالنا إلى المطار، حيث يقضي إجازته في صلالة لأن طبيعتها جميلة، وأهلها طيّبون، ولا يوجد فيها شيء من الفساد الموجود في المدن السياحية عادة.

واتفقنا أن يمرّوا عليّ في الفندق من أجل الذهاب إلى المطار الذي يبعد عشرة دقائق فقط.

في تلك الليلة سهرنا كثيرا مع الأصدقاء، وفي وقت متأخّر من الليل وضعت بعض أغراضي في الحقائب، حيث سأسافر في صباح الليلة القادمة وليس هذه الليلة.

ولكن في الرابعة صباحا اتّصل موظّف الفندق وقال: هناك من ينتظرك لتوصيلك إلى المطار، ولأنّي لم أنم جيدا، وكنت مرتبكا، ظننت أنني أخطأت في موعد المغادرة، ونظرت إلى التذكرة وجاءت عيني على

كلمة مختصرة لا أعرف ماذا تعني، ولكنها جعلتني أقتنع أن سفري اليوم، فحملت الحقائب ونسيت الكثير من الأغراض في الفندق، وركبت معهم.

لقد كان المهندس يزيد شخصا تحبّه عندما تراه، سمح المحيّا، بشوش الوجه، تظهر طيبة قلبه على كل تصرّفاته، وعندما جلست في السيارة أخرجت التذكرة وقرأتها جيدا، وعرضتها على بعضهم فتأكدنا أن سفري ليس اليوم بل غدا.

مطار المدينة صغير، ويغادره عدد قليل من الطائرات كل يوم، ولهذا عندما وصلنا إلى المطار وجدناه مغلقا، ففتح لنا الحارس مصلّى صغير بجانب المطار حيث صلّينا الفجر، ثم عدت مع يزيد للفندق، وخلال تلك الدقائق القليلة عرّفته بنفسي.

جلسنا في بهو الفندق وتحدّثنا طويلا عمّا يمكن أن أقدّمه لهيئتهم، حيث أن عملهم هو رعاية الموهوبين في الكليّات التقنية في السعودية، ثم أهديت يزيد بعض كتبي التي لها علاقة بصميم عملهم.

لم ينسى يزيد ما دار بيننا مثل كثير من العرب، وخاصة أن كلام الليل يمحوه النهار، وقد رتّب لي عدّة دورات للمهندسين العاملين في الهيئة وكذلك للطلاب الموهوبين، وقد أتاح هذا لي قضاء عدة فترات في المدينة المنوّرة، وهي حلم كان يراودني كثيرا، وأحيانا كانت تسافر معي زوجتي حيث نؤدي العمرة متمتّعين برفاهية لم نحلم بها.

ومن أجمل الفترات التي قضيتها في التدريب برعاية المهندس يزيد بضعة أيام جميلة قضيتها في الطائف، فإضافة إلى جمال الطائف ورقيّ أهلها، أتيح لي الإقامة في فندق مع عدد من الأصدقاء من مختلف مدن السعودية، وفي الفندق حجزوا لكل شخص غرفة مع حمام مثل أي فندق أربعة نجوم، أما أنا فحجزوا لي جناحا يطلق عليه "جناح شهر العسل"

تتوفر فيه الكثير من الرفاهية غير الموجودة بغيره، ولكن ما فائدة هذا الجناح وأنا وحيد؟

رحلتي إلى الطائف مرّت بليلة صعبة جدا، حيث كنت قد عقدت دورة في المدينة المنوّرة، ولم يجدوا لي طائرة تنقلني للطائف مباشرة، فركبت طائرة لمدينة جدة، ثم أردت أن أركب الطائرة التالية للطائف، ولكن منعوني من ذلك لأنني كنت قد دخلت بتأشيرة عُمرة، وحاولت مع المسؤولين، وكذلك حاول مسؤول كبير في الهيئة أن يقنعهم بالسماح لي بالمرور، خاصة وأن 50 مهندسا ينتظروني غدا في الطائف، وفي النهاية قال لي أحد الموظفين: جرّب دخول الطائف برا.

حاولت في البداية استرجاع الحقائب، لأنه إضافة لحقيبتي الشخصية يوجد حقيبة أخرى خاصة بالأدوات التي سوف أستخدمها في التدريب، وحقيبة أخرى بالحقائب التي سوف توزّع على المتدرّبين.

لم أتمكّن من استرجاع الحقائب، وقررت محاولة دخول الطائف قبل طلوع الفجر، فاستأجرت سيارة وبدأت أدعو ربّي، وصلّينا الفجر في منطقة عرفات، وعندما اقتربت السيارة من نقطة التفتيش ترك الشرطي المكان ويبدو أنه يريد أن يصلّ الفجر، فدخلنا.

ثم بذل المسؤولين جهودا كبيرة حتى تمكّنوا من استرجاع الحقائب قبل موعد الدورة ببضعة ساعات.

الدخول بتأشيرة زيارة كان صعبا، ولهذا كنت أدخل بتأشيرة عُمرة، ثم أرتدي ثوبا سعوديا وينقلوني بسيارة خصوصي إلى المدينة التي سأدرّب فيها، لأنّهم لا يفتّشون السيارات الخصوصية.

ومن أجمل ما فعله يزيد أنه سمح لي بعمل معرض لكتبي في أحد المؤتمرات التي يشرف عليها، حيث أرسلت دار النشر موظف مختص لهذا

الغاية، وبعد ختام المعرض قام يزيد بشراء كلّ الكتب المتبقيّة، وقام بتوزيعها على المشاركين في المؤتمر.

ومن الأحداث اللطيفة التي حدثت معي أنني كنت أدرّب على برنامج التفكير الابتكاري TRIZ، وقدّمت الأربعين إستراتيجية بطريقة سهلة جدا، فقام مهندس جديد لم يشارك في دورات سابقة لي وقال: لقد قلتم لنا أن برنامجTRIZ صعب، ولكن عرفتم الآن أنه سهل، ولم يكن هناك حاجة لدعوة مدرّب من الأردن لتدريبنا عليه!

فقام يزيد وقال: هذا البرنامج صعب، وقد حضرنا دورات لمتدرّبين آخرين زادوه صعوبة، ولكن أنت تجده سهلا لأن مدرّبنا الآن تعب كثيرا لجعله سهلا.

بعد ذلك فهم المدرّب الجديد الأمر جيدا، وبذل كل جهده للاعتذار لي بطرق متعددة.

قواسم مشتركة

بحمد الله أنا مسلم، أحاول أن أكون ملتزما قدر استطاعتي، ولكنّي إنسان ضعيف أرتكب الكثير من الذنوب، ولكنّي أستغفر الله، وأدعوه أن يثبّت قلبي على دينه، ولكن هذا لم يمنعني يوما من تكوين صداقات، وإنشاء علاقات على أعلى درجات الثقة مع أشخاص من مختلف التوجّهات، وجميع الديانات سواء السماوية، أو حتى الوثنية.

وخلال عملي كنت أبحث عن الأشخاص الذين يتميزون بصدق المشاعر أولا، وأن يكونوا ناجحين متميّزين في عملهم ثانيا، فأنا لا أريد الكثير من الغثاء، وقد اكتسبت الكثير من الأصدقاء، وبنيت علاقات يميّزها الاحترام المتبادل، والتعاون المشترك، والوقوف معا في السرّاء

والبأساء، وعلاقتي بهؤلاء صار عمر بعضها عشرات من الأعـوام وبقيـت على قوّتها، بل تزداد قوة عاما بعد عام، ومن هؤلاء صديق ملحد، وهـذا الرجل ظهرت منه علامات الوفاء أولا فكسبني صديقا، وقد كـان لـه دور إيجابي بارز في حياتي، ثم وخلال الأعوام الماضية قـدّمت لـه الكـثير مـن الخدمات، ومنها شكّل له دخلا إضافيا جيدا لعدة أعوام.

ومن أصدقائي المميّزين من غير المسلمين، صديق نصراني ملتـزم جدا، زارني في عملي حيث كان معلّمـا وجـاء يريـد المـشاركة في مـسابقة كنت قد أشرفت عليها، ورأيت فيه شخصا مختلفا، فأنشأت علاقة صـداقة معه، وزرته في بيته أنا وصديقي الملحد، ولكن الغريب أن أمّه رحّبـت بـي أنا المسلم الملتزم، ولم ترحّب بـصديقي الآخـر، وقـد عرفـت لاحقـا أنهـا تخشى على ابنها أن يؤثر على دينه، ويحوّله للإلحاد!

صديقي هذا قدّم لي مساعدة كبيرة، منذ بداية علاقتنـا، وقبـل أن يعرفني جيدا، لقد كان كريما معـي لأبعـد حـد، وأيـضا بـذلت جهـدي في خدمته، وقدّمت له خدمات غيّرت في مجرى حياته كاملة وللأحسن.

قبل أيام كنت ذاهبا لدار النشر، وأنا سريع جـدا في المـشي، وهـو سمين، ويبدو أنه رآني مـن بعيـد وبـدأ يهـرول حتـى دخلـت دار النـشر فدخل خلفي، وعانقني وقـبّلني وأخـذني بحـضنه، وسـأل عنّـي، واطمـأن عليّ، ودعوته للجلوس، ولكنّه اعتذر لأنه مـرتبط بعمـل، وعنـدما غـادر سألني الموجودين من هذا؟

كانوا يتوقّعون مثلا أن يكون أخي الذي لم أره منـذ زمـن، ولكـن أخي إن عانقني ستكون مجرّد مظاهر دعائية فارغة، ولكنّي قلت لهـم: هـذا صديق نصراني، طبعا الأمر كان مفاجئا لهم.

والآن لي أصدقاء من كل ملل الأرض، استطعت أن أجد قواسم مشتركة بيني وبينهم، وهذا يتيح لي أن أقدّم لهم ديني، وأتمنى أن يهديهم للإسلام.

طبيب الأعصاب المعتوه :

نتيجة للضغط المستمر المؤذي من العائلة حدث نوع من الانهيار في أعصاب زوجتي أميرة وعانت من صداع مخيف لأيام عديدة، ثم ذهبنا إلى طبيب أعصاب في اربد، شخص فاقع البياض، يتميّز بهدوء قاتل، وخال من المشاعر.

عندما أخبرته زوجتي عن ألمها أشار إلى لوحة لدماغ الإنسان أمامه وقال، إما أن يكون السبب ورم هنا، أو ضمور هنا، أو مشكلة هناك، وبدأت زوجتي تبكي، وتريد توديعي وتوصيتي، فقلت له: وماذا يمكن أن نفعل؟

فقال: بحاجة إلى صورة رنين مغناطيسي؟

فقلت له: أين يمكن أن نأخذ الصورة بأسرع وقت؟

فحدد لي مكانا، وذهبنا للتصوير، وعندما أكمل الفنيّ التصوير غادر، فلحقناه أنا وزوجتي، وعملنا مطاردة حتى أمسكنا به، وسألنه عن النتيجة فكانت مطمئنة والحمد لله.

حاولت قبل أن نجري عملية التصوير أن أتّصل بالطبيب، ولكنه كان مثل أطباء الأعصاب الذين نراهم في الأفلام، نصف معتوه، ويصرخ بي كما سمع صوتي في الهاتف.

بعد أن عدنا إليه واطمأننا إلى النتيجة قلت له: أنت طبيب أعصاب صحيح؟

فقال: نعم

فقلت له: أنصحك بمراجعة طبيب أعصاب!

نابلس Heat Sink !

ظروفنا العائلية تفرض علينا قيود بالنسبة لمن يريد أن يزور بيتنا، وخاصة العناصر النسائية، لأن كثيرا منهنّ بخبثهن أو عاطفتهن الغبية قد يسببن مشكلات عائلية أو معاناة نفسية كبيرة، وهذه النوعيات من النسوة كثيرة، منها من تنظر للمرأة إلا كونها جهاز تفريخ، ولا قيمة لها بالحياة إن لم تنجب أكبر عدد من الأولاد، وذكور بالتحديد وهذا هو هذا الإنجاز الحقيقي، ولا يهمّ إن كان الذكر فاشلا ، المهمّ أن يكون عدد الذكور الذين تنجبهم لا يقل عن خمسة أو ستّة أولاد، وهذا يذكّرني بجارتنا التي كان لديها نصف دزيّنة من الأولاد، وعدد كبير من البنات، وعددهنّ لا يهم، المهم هو عدد الأولاد، وكثيرا ما كانت عندما تزورنا تدعو لأمّي أن يرزقها أولاد آخرين، لأنها تعتبر أن لديها ولدا واحدا هو زاهي، أما أنا فكانت تسقطني من حساباتها، لظروفي الجسمية، وقد اقتنع زاهي بكلامها، حتى أنه عندما طلب لخدمة العلم، وهي الخدمة العسكرية الإجبارية قال لي دون أن يفكّر في ما تحمله هذه الكلمات من قسوة عليّ: يجب أن يعفوني من الخدمة لأنني وحيد لوالدته!

أي أنه لا يعتبرني موجود، وحتى مجرّد رقم، وحتى لو كان هناك قانون يسمح بهذا كان يمكنه أن يقوم بالإجراءات المطلوبة دون أن يعلمني ويجرح مشاعري، وبالطبع كان هذا قبل أن تنجب أمي أخونا الصغير هجرس.

نساء من هذه النوعية غير مرحّب بهنّ في بيتي، لأنه بمجرّد أن تدخل تتحدّث بلغة الناصح، وتبدأ بوصف أدوية وخلطات ومشايخ ومشعوذين قادرين على مساعدتنا لإنجاب طفل، وهي لا تعلم حجم الجهود التي بدلناها من أجل هذا الهدف، وثبت لنا طبيّا استحالته، ولكنّها تستمر في فتح الجراح التي بدأت بالالتئام.

المرأة الوحيدة التي مسموح لها زيارتنا في أي وقت، وهي محلّ ترحيب واحترام منّي، وحب وتعلّق شديد من زوجتي جارة لنا من عائلة نابلسية عريقة، واسمها نابلس، يوجد بينها وبين زوجتي عدة عوامل مشتركة أهمها أنه ليس عندها أولاد، ولديها تجربة في المعاناة من ظلم المجتمع تجعلها أقدر على التعاطف معنا، وهي على خلق ودين، والأهم من ذلك هو هدوئها وشدّة تحمّلها، وقدرتها على امتصاص كل المشاعر السلبية عند زوجتي من غضب، أو حزن أو إحباط أو توتّر، ولهذا أشبهها بأنظمة تسريب الحرارة الزائدة في القطع الإلكترونية والتي تعمل على حماية القطع الإلكترونية من الاحتراق أو الانفجار، ومجّرد التقاء زوجتي معها أيضا يخلّصها من جميع المشاعر السلبية الناتجة عن أعمال العناكب وغيرهم، وفي بداية زواجنا عانت زوجتي من مشكلات صحية نتيجة الضغط النفسي الشديد والمتّصل من عائلة العناكب، ولكن عندما انتقلنا لبيتنا الجديد وتعرّفت على أختنا نابلس، لم يصل تأثير أذى العناكب ليحدث أي تأثير سلبي على زوجتي، ولصديقتها نابلس دور كبير في هذا، وأنا ممتّن جدا لها.

أنا و(PKK)!

طيلة حياتي عانيت كثيرا في الحصول على ملابس تناسبني، لأن الملابس المصممة لحجمي تكون مصممة عادة للأطفال، وعليها الكثير من الصور والرسوم المتحرّكة، ولهذا كنت أجد صعوبة كبيرة في البحث عمّا يناسبني، وعندما كنت أجد قمصانا مثلا مناسبة لي أشتري كميّة منها، ويوم حصلت على الجائزة بحثت في جميع محلاّت الملابس في اربد في محاولة للحصول على قميص يناسب هذا الحفل، وكنت أشعر أحيانا بالذل والمرارة وأنا أطوف على المحلّات واسأل عن ملابس تناسبني، فيأتي الرد إمّا مصحوبا بالتجاهل أو مرفقا بضحكة صفراء ساخرة.

قبل سنوات كنت أبحث عن بيجاما لي تخلو من الصور والرسوم، مثل صور الأندية الرياضية، والشخصيات الكرتونية، وهذا لا يناسب عمري، ويحمل معاني مرفوضة بالنسبة لي، فأنا لا يمكن أن أرتدي لباسا عليه شعار لنادي رياضي أو شركة مشروبات غازية، وخلال البحث الذي شاركتني به زوجتي وجدنا بيجاما رمادية اللون، وذات تصميم مناسب لعمري، وراق جدا، فاشتريتها بثمن مرتفع وذهبت إلى خياط مجاور لتقصير البنطلون.

استخدمت البيجاما لفترة من الوقت، وأثناء جلوسي مع أحد الأصدقاء قال لي هل تنتمي لحزب (PKK) الكردستاني؟

استغربت من السؤال، وعندها أشار لي إلى حروف مطبوعة بلون أسود على كتفي الأيسر وبحجم صغير لم أنتبه إليه.

وعندي مشكلة أخرى، فمنذ 12 عام لم أجد بلوزة شتوية ضمن المواصفات التي أريد، وعندي بلوزة واحدة لا غير، استخدمتها طيلة هذه

الفترة ومللت منها، وكثيرا ما بحثت عن بلوزة مناسبة خلال السنوات الماضية ولكن دون جدوى، حتى وقعت فرصة مناسبة قبل أيام.

أثناء كتابة الحكاية انتظرت صديق لي في السوق، وكان قريبا منّي محل ملابس، وبينما كنت أتسكّع نظرت في المحل فرأيت ملابس راقية جدا ومناسبة لمقاسي، طلبت رؤية بلوزة وأعجبتني جدا، وقلت له: بعد أن أكمل مع صديقي أعود إليك بإذن الله.

عدت للمحل، وكان لعائلة من النصارى، وقد استوردوا الكثير من الملابس الراقية لأعياد النصارى التي اقتربت، واشتريت بلوزة، ولكنّي شاهدت مجموعة جميلة مختلفة التصاميم، ولم يبقى أمامي وقت كاف، ولا أريد أن أتسرّع وأشتري شيء غير مناسب، فعدت إليه في اليوم التالي واشتريت ثلاثة قطع بتصاميم مختلفة، وعدت وعرضتها على زوجتي، وهي تعرف مشكلتي، فقالت لي: خذني للمحلّ.

في المحل طلبت عيّنات من مختلف النماذج واشترت لي أربعة قطع أخرى، لأن هذه فرصة قد لا تتكرر بعد عقد من الزمن، وقد أسعدتني بهذا التصرّف، وأحسست وكأنها دفعت الثمن من جيبها، وشعرت أنها أفضل هدية يمكن أن أحصل عليها، ولكن من جهة أخرى فإن مجموع الثمن كان مبلغا كبيرا، استنفذ معظم المال الذي معي، وبقي معي الشيء القليل الذي نحاول أن نتدبّر به حتى موعد الراتب التقاعدي.

أختي لها تسع وتسعون حذاء ولي حذاء واحد!

وأعاني من نفس المشكلة عند الحصول على حذاء أو شبشب، وقد أمضيت بضعة سنوات وشاركت في أكثر من دورة بحذاء رخيص

وسيء لم أجد خيرا منه، حتى حلّـت مشكلتي عندما أحضر لي قريب لـي من عند أصدقاء له يعملون بتصفيات الأحذية الأجنبية كمية من الأحذيـة الجيّدة اخترت بعضا منها، وأحافظ عليها جيدا لتخدمني لفترة طويلـة مـن الوقت.

ولكن من النادر أن أجد شبشبا جيدا في مـدينتي، وعنـدما أسـافر إن وجدت شبشبا جيدا أشتريه مهما كان ثمنـه، حيـث أذهـب بالشبـشب للمسجد، والأماكن القريبة.

في أول سفرة لتركيا وجدت شبشبا جيد الصناعة ومـريح للّـبس، ويصلح للجنسين، وأكبر من مقاس قدمي بقليل، ورأته أميّ ونارة، ونـارة هذه تهوى الأحذية ويوجد في بيتها ما لا يقل عن 100 زوج منهـا، وهـي عندما تنظر لإنسان تحـدّق أولا بحذائـه، وتعتـبر أنـه مـن أهـم المعـايير في شخصية الإنسان، وكثيرا ما تندّرت بها قائلا: يجب عليـك تـأليف كتـاب (اعرف شخصيتك من حذائك) وكان هذا يسرّها، وكذلك عنـدما كانـت صغيرة وترى طفلة أخرى ترتدي حذاء كانت تستمر بالبكاء حتى يأخذوا الحذاء ويعطوه لها، وتحتاج أمّي والعائلة لكثير من الوقت والجهد والـذكاء لأخذ الحذاء وإرجاعه لأصحابه.

ولكل الأسباب السابقة أعجبها هذا الشبـشب التركـي، وأقنعـت أميّ أن تطلبه مـنيّ لنفسها، وأمّـي ضـعيفة جـدا أمامهـا ولا تـستطيع أن تخالفها، ثم عرفت لاحقا أنها أخذته من أمّي، وشعرت بظلـم كـبير، فأنـا ابذل الكثير من الجهد والمـال والأذى النفـسي لأجـد حـذاءا مناسـبا لـي، وأنت لديك عشرات أو مئات الأحذية، ويمكنك بـسهولة الحـصول علـى ما تريدين ثم تطمعين بما عندي، وتسلكي سبيلا غـير أخلاقـي للحـصول عليه؟

صحيح أن الموضوع سخيف، ولكن كان تأثيره النفسي عليّ كثيرا، وشعرت بظلم كبير.

تقاعد من أجل العمل!

الأربع سنوات الأخيرة قضيتها في الثانوية، حيث عدت مرّة ثالثة للعمل كقيّم مختبر، كانت مصدر إزعاج لي ولإدارة المدرسة، لأن المختبر قديم جدا وغير صالح للاستخدام، ولم تكن هناك نيّة لإعادة تأهيله، والمعلّمين ما يهمّهم هو التدريس الخصوصي، وكنت أخرج من الدوام لأمارس أعمالا خاصة بي في التأليف والتصميم التعليمي، ولهذا قدّمت طلب استيداع، حيث أنقطع عن العمل لمدة عامين دون راتب، وتركت العمل وذهبت إلى شركة الحوسبة ووقّعت معها عقد مستشار علمي، ولكن السكرتير قال لي أنّهم قد يلغوا هذا العقد، ولم أنتظر منهم أن يفعلوا وقدّمت استقالة، وبهذا صرت بدون أي دخل، إلا القليل الذي قد يأتي من كتبي وكان عددها قليلا، ومن هناك ذهبت إلى شركة برمجة تنتج برامج متميزة في المجال الديني، وفي مجال شرح البرمجيات التطبيقية، وعقدت معهم عقدا لإنتاج 3 أقراص تتضمن 450 تجربة من خامات البيئة، وأنشأت أستوديو في مشغلي، وكنت أجري التجارب وزوجتي تقوم بالتصوير، والتجارب البسيطة كنّا نكلّف بعض الأطفال بإجرائها، وندفع لهم أجرا.

ولكن هذا لا يكفي لتغطية نفقاتي لعامين كاملين، وأخبرت دار النشر التي بدأت النشر عندها منذ فترة وأعطاني الناشر شيكات بعدد الأشهر التي سيتوقّف فيها راتبي وقيمة الشيك تعادل قيمة راتبي، فاطمأننت، وانطلقت في التأليف.

جلسة بين العلماء!

لأنني لم أرزق بأطفال فليس عندي مناسبات مثل معظم الناس ومنهم أهلي الذين أشاركهم في كل مناسباتهم، فلا يوجد ولادة طفل، ولا تخرّج ابن، ولا خطوبة بنت، ومصدر الفرح القليل في بيتي هو عندما أبتكر جهازا جديدا، أو عندما يصدر لي كتاب جديد، وكذلك عندما يزورني أحد طلاّبي بعد أن يحقق أحلامه بالنّجاح.

ورغم مشاركتي لعائلتي بأفراحهم، فلم يكونوا يوما إلا مصدر حزن لي، وفي أي جلسة تجمعنا لم أسمع من أي منهم سؤالا عن إنجازاتي، وحتى عندما أعطيهم فرصة وأستجدي منهم كلمة طيبة، حيث أحضر كتبي الجديدة وأريهم إياها، يمسكوها وكأّنهم يمسكون فوطة أطفال متّسخة ويضعونها جانبا، ولم اسمع يوما منهم كلمة تهنئة حقيقية، ولهذا عندما أكون بينهم أشعر أنني عديم القيمة، لأن معايير الاحترام والاهتمام هي المال والجمال والأولاد والسيارات والأراضي والعقارات، والمناصب، وهذه نصيبي منها قليل.

أما أصدقائي الذين يحبّونني ويحاولون إسعادي، فأوّل شيء يسألونني عنه بعد صحّتي، هو كتبي، وعندما يعرفون بصدور بعض كتبي يقدّمون لي التهاني.

اليوم الذي شعرت بقيمتي كمؤلف وعالِم هو اليوم الأخير من مؤتمر الكيمياء في الكويت، حيث شارك فيه رؤساء الجمعيات الكيميائية في مختلف دول العالم، وكلّ منهم بروفيسور، وبعضهم يستلم مناصب رفيعة في مجال العلوم والتعليم في بلده، وكلّ واحد منهم عرض مشروعه، وجميع مشاريعهم كانت تجارب في الكيمياء الخضراء، وكيمياء الكميّات الصغيرة، وكنت أنا المحاضر العربي الوحيد في المؤتمر، والوحيد الذي لا

يحمل شهادة في الكيمياء، بل أنا حاصل على شهادة في الأحياء، ورسبت مرّة في أحد مساقات الكيمياء في الجامعة!

وعندما قدّمت ورقتي، وكانت عن مشروعي الذي يهدف إلى تنمية تعليم العلوم والرياضيات وجعلها (أقل كلفة، وأكثر متعة، وأسهل تحصيلا، وأفضل نوعا)، وكانت الكيمياء الخضراء وكيمياء الكميّات الصغيرة تشكّل جزأ صغيرا من المشروع، ولي الكثير من الإضافات في هذا المجال، وكان العرض التقديمي باللغة العربية كما طلب مدير المؤتمر من أجل الحضور العرب، وقدّمت الشرح الشفهي باللغة الإنجليزية الذي ترافق مع العرض التقديمي، وبهذا استطعت إيصال أفكاري للجميع، وعندما أنهيت ورقتي، تجمّع حولي عدد من هؤلاء العلماء الذين عرضوا أن يقدّموا لي أي مساعدة احتاجها، وبعضهم قدّم فعلا، ثم كان عشاء تحت رعاية رئيس البرلمان، وعندما جلست على مائدة الطعام بين هؤلاء العلماء، الذين أحاطوني بكلّ رعاية، وأظهروا تواضعهم أمامي، وتصاغرت مشاريعهم أمام مشروعي، في هذا الوقت بالذات، شعرت بقيمتي الحقيقية، عالِم حقيقي، محاط بعلماء كبار قدمّوه عليهم، ووضعوا أنفسهم في خدمته، وخدمة مشروعه.

زوجتي المبدعة ومحكمة الجنايات الكبرى!

زوجتي أميرة يصدر عنها بعض الإبداعات، ولكن من نوع مختلف، وإحدى إبداعاتها ظهرت عندما ذهبنا في رحلة إلى منطقة عجلون الجبلية، واشترينا بعض الفواكه الصيفية، والجوز والزبيب، وفي الطريق توقّفت أمام أحد الباعة ورأيت من بعيد باب السيارة يفتح ويغلق، وبشدّة، واستغربت الأمر، وأسرعت إلى السيارة، فوجدت زوجتي تضع

حبّات الجوز على حافة السيارة وتغلق الباب، لقد استخدمت الباب لتكسير الجوز، فقلت لها: ومشاعري مختلطة بين الغضب والضحك: يبدو أنّك مبدعة مثل زوجك؟

فأسكتتني بضحكة وأكملنا طريقنا.

أما إبداعها المرعب فهو عندما خرجت من سجن المخابرات، وفي نفس اليوم أخبرتني أميرة أنني مطلوب غدا للتنفيذ القضائي بشيء له علاقة بمحكمة الجنايات الكبرى، وشعرت بحيرة شديدة وضيق، جنايات، وكبرى، أنا لم أرتكب جناية صغرى حتّى، ولم أخرج من السجن إلا أمس، وأمضيت ليلة صعبة، وفي الصباح ذهبت للتنفيذ القضائي، فقالوا لي: كنت منذ سنوات قد قدّمت شكوى على بعض الأولاد، وأسقطتّ حقّك، ولكن الملف لم يغلق، ونريد إغلاقه.

شعرت بالراحة، وقلت للشرطي: انتظرتم سنوات ولم تطلبوني إلا يوم خروجي من السجن؟

فقال لي: وما أدرانا أنّك كنت في السجن؟

وأغلقت القضيّة، وعدت لأميرة أسألها من أين جاءت بهذا الاسم "محكمة الجنايات الكبرى"، رغم أن الموضوع هو محكمة الأحداث، فقالت لي: الذي تلقّى الهاتف هو أمّك، وهي التي نقلت لي الخبر، وضاعت الحقيقة، والمهمّ أنني لم أكن مطلوبا لأحد، بل طالبا.

وفي بداية زواجنا عندما كنّا في ضيق شديد بسبب بعض أفراد العائلة، كانت تنتظرني على أحرّ من الجمر، فهي لا تجد أحدا تثق به للتحدّث معه، وجئت يوما متعبا من يوم تدريبي طويل، وأشعر بجفاف في حلقي من كثرة الكلام، فقالت لي: تحدّث معي فأنا أنتظرك من الصباح.

قلت لها: ولكن حلقي يؤلمني

ولم تجد بديلا تقترحه إلا أن قالت: تحدّث بالإنجليزي!

وهنا ضحكت وتفّهمت وضعها وحاولت أن أتحدّث معها قليلا.

وآخر ما تمخّضت عنه إبداعات زوجتي كان منذ أشهر قريبة، حيث الطبيعة الرقمية صارت تغلب على حياتنا، وتتكرر مصطلحات: ميجا، جيجا، بلوتوث، واي فاي، وغير ذلك يوميا في حياتنا، وقد ولد لابن أختي طفل مريض وكان عنده ضعف دم، وبعد بضعة أيام اتصلت أميرة بأهل الطفل فقالوا لها ارتفع دم الطفل إلى 9 ، وهي تعرف أن أي متغيّر يجب أن يكون له وحدة قياس، فوضعت وحدة القياس من عندها مستخدمة أكثر الكلمات شيوعا، فجاءتني مسرعة وفرحة وقالت لي: دم الطفل ارتفع إلى 9 جيجا.

ضحكت كثيرا وكتبت مقالا في موقع إعلامي حول الموضوع.

لقد خسرنا فرصة كبيرة للضحك، وكانت عندما سافرت لليمن، حيث طلبت مني نارة صبغة "دم الأخوين" وهي تنتج من أشجار تنمو في جزيرة سقطرى اليمنية.

ذهبت لعند العطار واشتريت الصبغة، ولا أدري هل هي دم الأخوين أم لا، وعرض عليّ العطار شراء أوراق زيتون يقول أنها وصلت حديثا من الشام، فقلت له: انا من بلاد الزيتون.

وعرض علي إكليل الجبل وأيضا أخبرته أنها تزرع في الشوارع، وعرض غيرها.

أعطيت الصبغة لنارة وأراد زوجها أن يستخدمها لصباغ شعر رأسه ولحيته، وفي اللحظة الأخيرة تبين أنها زرقاء اللون !

كنت أتمنى لو صبغ بها لعلّي اضحك قليلا، مقارنة بما سببته لي نارة من أذى!

ولا أدري هل يوجد تشابه بين دم الأخوين وأذى الأخوين ؟

تهيئة (Format) الذاكرة !

تم ترتيب لقاء لي مع مدير عام شركة الحوسبة السعودية التي كنت أعمل معها، وفي اللقاء طلب منّي أن أقوم بتصوير تجارب الكيمياء للصفوف الثانوية الثلاثة، ووعدته بذلك، عندها حاول معي أن أحدد له موعدا نهائيا، وبذل الكثير من الجهد ولكني لم ألتزم بذلك،لأني لو التزمت وحدث تأخر فلن يتفهم هذا الأمر.

الوضع الذي كان في ذهني عند الاتفاق مع المدير هو أنني سأصور التجارب في المدارس، وظروف هذه المدارس لا أستطيع التحكم بها، وبعد نقاش طويل استخدم المدير كلّ ذكائه لأخذ موعد نهائي منّي دون أن ينجح، ثم بعد أن فشلت كلّ جهوده قال: يا سعد لقد ملأت ذاكرتي كلّها، وعندي موظفّين كثر غيرك، في محاولة لاستعطافي من أجل أن أعطيه موعدا، فنظرت إليه ضاحكا وقلت له: اعمل فورمات (Format)، لقد عملتها قبلك، في إشارة إلى فقداني للذاكرة قبل سنوات، فضحك المدير، وخرجت من الاجتماع دون الالتزام بموعد، ولكن الظروف كانت مواتية، وأتيح لنا التصوير في عدة مدارس بنات ثانوية كبرى، وفي الجامعة وبعض الكليّات.

أنا وأمّي في المطعم

لقد قمت بواجب أمي، وأديّت حقوقها عليّ، بل أكثر من ذلك بكثير، وكان أكثر ما يسعدها مرافقتي لأداء العمرة.

في الفترة الأخيرة من حياتها مرّت بفترات طويلة لا تقوى فيها على السفر، وكنت أشعر أن الجلوس في البيت وانتظار الأجل شيء صعب، وحاولت أن أفعل شيئا.

قرأت في كتاب للكاتب حسّان شمسي باشا قصة أعجبتني وقررت تطبيقها، وكان عنوان القصّة كما أذكر (عندما دعوت امرأة للغداء)، ويتحدّث في القصة عن دعوته لأمّه على الغداء في مطعم، وقررت دعوتها لمطعم خاص بالأسماك ومنتجات البحر، واخترت أفضل المطاعم الخاصة بالأسماك في المدينة، لأن أمّي تحب السمك، وزوجتي لا تفضّله، ولهذا اخترت يوما مناسبا أرسلت فيه زوجتي لتناول الغداء في بيت أهلها، ثم أخذت أمّي بالسيارة وذهبنا إلى المطعم، وكم كانت سعيدة بهذه الدعوة، هي وابنها الكبير لوحدهم، وطلبت ما لذّ وطاب من السمك، والمقبّلات، وقبل المغادرة قالت لي: حدد يوما لأدعوك على حسابي على هذا المطعم، لأن السمك عنده طازج ولذيذ.

ثم أتيحت لي فرصة لأخذها في رحلة إلى دمشق وضواحيها، ثم إلى الساحل السوري، ولكن أمّي فارعة الطول، ولو تعبت ليس في استطاعتنا أن وزوجتي أن نسندها، وقررت أخذ ابنة أخي للمساعدة إذا حدث طارئ، فأصدرت لها جواز سفر، وأخذنا سيارة أوصلتنا إلى دمشق، وفي عصر اليوم الأول أخذتها في جولة في المناطق القريبة من دمشق انتهت في مدينة بلودان السياحية الجبلية، حيث تناولنا العشاء في أرقى مطعم في المدينة، وفي اليوم التالي بدأنا رحلة سياحية إلى الساحل السوري، والإقامة في منتجع في مدينة كسب الرائعة، والغارقة بين الغابات، والتي تقع على كتف جبل مطلّ على تركيا.

ذهبنا للبحر على ساحل رأس البسيط، حيث يوجد استراحة تتوفّر فيها كلّ التسهيلات، حيث جلست مع زوجتي وابنة أخي، وأنا أسرعت للبحر وحضنته، أو حضنني، كما يحضن حبيب حبيبه، فأنا أعشق البحر، ولأننا عشنا بداية حياتنا في الماء، في رحم الأم في جو مفعم بالأمان، ربّما هذا الشعور الفطري المرتبط بتلك الذكريات المختفية في تلافيف المخ هو الذي يجعلنا نحّب الماء.

ولكن كان الهواء قويا، والموج مرتفعا، ولم ينزل للماء إلا أنا، وامرأة شابة نزلت تسبح بجلبابها السميك، وكانت ماهرة في السباحة، أكثر منّي.

كنت أركب شيئا يشبه القارب الصغير، وعندما يأتي الموج يدفعني لعدة أمتار على رمل الشاطئ، ولكن أمّي كان ترى الأمر بشكل مختلف.

لقد خشيت عليّ أمّي من البحر، وكانت تشعر بالغيظ من زوجتي التي تشرب القهوة وتتناول المكسّرات، بينما هي تغلي خوفا، وكانت زوجتي تطمّئنها وتقول لها: سعد يعرف ما الذي يفعله، وعنده خبرة بالبحر، وانظري إلى تلك الشابة التي تسبح أيضا، ولكن أمّي كانت تلوّح لي بيديها، وتنادي وأنا لا أسمع بسبب ضجيج الأمواج وصوت الرياح، ثم خرجت، فاطمأنت، ثم ذهبنا لخليج أم الطيور الحالم، ودعوتها إلى غداء من الأسماك البحرية الطازجة فنسيت مشاعر القلق التي سيطرت عليها، وعادت تستمع بالرحلة.

في الليلة التي أمضيناها في دمشق رأيت في الحلم طفلة صغيرة جميلة جدا، وشاهدت وجهها الجميل الصغير بكل تفاصيله، وفي الصباح عندما ركبنا الحافلة جلس قريبا منّا شاب من دمشق وزوجته وطفلتهم

الصغيرة، لقد كانت هي التي رأيتها في الحلم، ولا أجد تفسيرا لهذا، وأم الطفلة هي التي سبحت في البحر الهائج.

خلال الرحلات السياحية يكون الجو المسيطر هو المرح واللهو البريء، وفي اليوم التالي أمسك الدليل السياحي الميكروفون وقال: لقد اخترت عروسا من بين الركّاب، وسأعلن عن اسمها لاحقا!

لقد كان يرافقنا عدد من الصبايا، وصار الجميع ينظرون حولهم لمعرفة العروس، ولكن بعد ساعات توقّفنا في استراحة فقطف زهرة من حديقة الاستراحة، وبدأ يمشي في الحافلة ببطء والكلّ ينتظر ليعرف العروس، وتوقّف أمام الطفلة التي تحدّثت عنها، وأهداها الوردة، فضحك الجميع.

وشاركنا نحن في المرح الذي استوعبته أمّي ولم تغضب، بل شاركتنا به، في محاولة لإسعاد الجميع، وهذه قصّتها:

الوحدة قاتلة، هذا ما قاله لي شيخ من مكة المكرّمة، أرمل، وبناته في الخارج، وخادمته العجوز عادت لبلادها، ومن شدة شعوره بالوحدة كان يشارك في الرحلات السياحية، وعندما يكمل رحلة ينتقل في اليوم التالي لرحلة أخرى، وعندما سألته عن الرحلة الأخيرة لم يعرف إلى أين ذهب، المهم أنه ذهب وشارك وتسلّى.

وكان عاجزا تقريبا، حتى أن الدليل السياحي كان يحمله عندما نذهب لمكان مرتفع، وكان يحب أن يتحدّث مع الجميع، وهنا قلت لأمّي مازحا:

هذا رجل من مكّة المكرّمة يشكو من وحدة قاتلة، ماذا لو زوّجناك إيّاه، حيث سيكون لنا أهل في مكة وربما نرث عنه بيتا نقيم فيه عندما نذهب للعمرة، ويبدو أنه غني وقد نرث عنه مالا كثيرا!

ضحكت أمّي، وتندّرنا بهذا كثيرا أثناء الرحلة وبعد عودتها، رغم أن حديث اقلّ من هذا كان يغضبها جدا في السابق، ولكنّ جوّ الرحلات جعلها تتقبّل هذا المزاح.

لقد كانت أياما جميلة بقيت أميّ تذكرها وتفاخر بها، حتى أنها أغاضت زاهي عندما سألها عن الرحلة فقالت: كان البحر هائجا شديد الموج ولم يجرؤ أحد على النزول إليه إلا سعد، وامرأة شابة، أما أخواتي عندما سألوها عن الرحلة قارنت فورا بين رحلتي ورحلتهن وقالت: لا يوجد أي مقارنة!

رحم الله أمّي وجميع موتى المسلمين.

النوايا الحسنة أبكتني!

عندما يعود أحد من السفر يذهب أبناؤه لاستقباله في المطار، أما أنا فالأمر مختلف بالنسبة لي، حيث أذهب أحيانا بالمواصلات العامة لوحدي، وإن كان معي أغراض كثيرة مثل التي استخدمها في الدورات يوصلني أخ زوجتي، وتذهب معي زوجتي، وأحيانا أمّها وبعض أهلها ليوصلوني للمطار.

أحد المواقف الذي كان محزنا بالنسبة لي، هو عند عودتي من السفر، حيث وصلت في الصباح وخرجت إلى الصالة ركض نحوي اثنين من الشباب الصغار هما أبناء إخوة زوجتي، وسلّموا عليّ بحرارة، ثم حملوا الحقائب إلى السيارة حيث وجدت حماي أبو زوجتي وابنه في انتظاري.

لقد كانت مشاعرهم صادقة جدا، وتنمّ عن ودّ واحترام، ولكنّها ذكّرتني بواقعي المؤلم، لقد ظنّ الذين شاهدوني في المطار أن هؤلاء أبنائي،

وكم تمنّيت وقتها أن يكون لي أبناء يستقبلونني في المطار، وإن لم يكونوا أبنائي فعلى الأقل إخواني أو أبناءهم، ولكن أولئك الناس يفكّرون بطريقة مختلفة.

ذهبت مرّة للعقبة أنا وزوجتي لعلّ البحر يخفف الآلام الناتجة عن الإجهاد والأذى، وحدثت فيضانات أغلقت طرق العودة في اليوم الذي كنّا نخطط للعودة به، فجاءتنا اتصالات من جميع أخواتي تسألنا هل فتحت الطرق، وهل ستعودون، وقلنا لهم نحن في طريق العودة، ولكن كل شيء متوقع، فالطرق لم تفتح جيدا، والفيضانات ما زالت مستمرة، والانهيارات متوقّعة في أي وقت، وهناك غبار صحراوي كثيف في بعض المناطق.

بعد ذلك لم نتلقّ أي اتصال، لأنهن اعتبرن أن خبر نيّتنا بالعودة كاف لإعادة أمّي إلى البيت، ولم تفكّر واحدة من هذه العناكب بالاتصال بنا خلال الطريق والاطمئنان على وضعنا، ولم يأتنا أي اتصال يهنئنا بسلامة العودة، ما عدا الاتصالات المستمرة التي كانت تأتينا من أهل زوجتي وأصدقائنا.

البحث عن ذخيرة!

عقدت العزم أنا وصديقي حكيم أن نقوم بغزو حيّ اللويبدة في عمّان، والذي تقع به الكثير من السفارات، والمؤسسات الحكومية والهيئات الدولية من أجل البحث عن ذخيرة!

قمت مسبقا بتنزيل خارطة المنطقة وتحديد الموقع المستهدف، وطبعت الخارطة وأخذتها معي، وبدأنا هجومنا في الصباح الباكر.

حاولنا تحديد الموقع بناء على الخارطة، فأنا عندي مهارات في الكشفية وكنت أتوّقع أن نجده بسهولة، ولكن يبدو أنهم اتّخذوا كثير من التدابير تحول بين وصول الأعداء والمتطّفلين إليه، ولهذا كانت الخريطة المنشورة للموقع غير صحيحة، وبعد بحث قمنا خلاله بمسح جميع شوارع اللويبدة لم نتمكّن من تحديد الموقع، ثم بدأنا بسؤال المارّة وأصحاب المحلّات، وكلّما قلنا لأحدهم أننا نبحث عن ذخيرة يفغر فمه ثم يتوترّ، ويحاول الانسحاب حتى لا يقع في شبهة، ولكن رغم كلّ هذه الجهود لم نوّفق في الوصول إلى موقع ذخيرة!

وقبيل وقت انتهاء الدوام علمنا أن موقع ذخيرة يوجد في مكان محصّن جدا هو مديرية المسارح التابعة لوزارة الثقافة، والتي تقع بجانب السفارة الباكستانية.

دخلنا إلى الموقع مستغلّين حالة الترهّل الأمني الناتجة عن مغادرة الموظّفين وفترة استلام الحرّاس، وتمكّنا من الوصول إلى مكتب أحد الموظّفين الذي أخبرنا أن موقع ذخيرة انتقل إلى بناية بجانب وزارة الثقافة من أجل مزيد من التمويه بحيث لا يتمكّن أي مؤلف متطفّل من الوصول إليها، والاستفادة من خدماتها، وهنا قمنا بإعلان التوّقف عن مطاردة ذخيرة، وبذلك تحقق الهدف الذي وضعته العقول "الذكية" في إبعادنا عن هذا الكنز الثمين.

وقبل أن تسرح أذهانكم بعيدا، فإن ذخيرة هي موقع إنترنت ترعاه الجامعة العربية ويتم فيه تخزين نسخ رقمية من الكتب التي تصدر في بلاد العرب للاحتفاظ بهذه الكنوز المعرفية للأجيال القادمة، ويدفعون مبلغا متواضعا مقابل هذه الخدمة، ولكن يبدو أن المسؤولين عنها يريدون احتكارها، وقد نجحوا بالفعل.

سخرية وسخرية!

لقد تعوّدت على سخرية السفهاء من الأطفال، وحتّى بعض كبار السن، وبناء على خبرة طويلة فإن أسوأ شعب في معاملة ذوي الاحتياجات الخاصة هم الذين نعيش بينهم، لقد زرت بلادا كثيرة وتعايشت مع شعوبها، وأطفالها، ولا يوجد أي مقارنة لما هو الوضع هنا.

لقد زرت الكثير من مدن سوريا ولبنان، وأمضيت بعض الأعياد في دمشق، وشعرت بفرحة العيد مع آلاف من الأطفال في دمشق القديمة، ولم نشعر أن طفلا واحدا نظر إلينا نظرة فيها أقل قدر من السخرية.

وعشت في السعودية، وتنقّلت في كثير من مدنها، ووجدت شعبا يعلّم أبناءه على الاحترام، وفي الحيّ الذي عشت به كان الأولاد عندما يتخاصمون يقولون

كلمات مثل هذه:

رحم الله أبوك، اسكت يا هداك الله.

أما عندنا وهذا هو الشائع نجد أن اقل خلاف، وحتى عند المزاح يشتمون الذات الإلهية والعياذ بالله، ويلعنون آباء بعضهم البعض، ويطلقون شتائم وقحة على بعض، وفي النهاية يضحكون.

أما في عُمان، فالأمر يختلف تماما، شعب في غاية التهذيب ، حيث زرت أكثر من مدينة واختلطت بالكثير من الناس، وذهبت للمناطق السياحية الجميلة، وكنت أصطدم بالأطفال عمدا لأعرف كيف سيتصّرفون، وكانوا في غاية الأدب.

في شوارع مصر المكتظّة يوجد الملايين من الناس، ولم ألاحظ يوما أيّ نظرة سخرية أو أي مضايقة.

ورغم هذا فإننا نتعرّض لبعض السخرية في بلدنا، رغم أن وعي الناس يزداد، ولكن ما يزال بعض الجهلة وسخريتهم أمر معتادين عليه وشعارنا :

(خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِين) سورة الأعراف

أما ما لا يمكن أن نتسامح معه هو سخرية أهلنا، وهم يعرفون من نحن، ويعرفون كم قدّمنا لهم، وهؤلاء أتعامل مع سخريتهم بأعلى قدر من العداء، وهذه أمثلة:

زارني مرّة صديق فعانقني، وكان زوج زمهرير يقف قريبا، فقال وهو يتقيأ حقدا: أحضنه مثل الطفل الصغير!

ولكن صديقي لم يسكت، وردّ عليه ردا قاسيا أخرسه.

ومرّة أخرى كنت أجلس قرب نافورة الماء وكان صوتها طاغيا على المكان، وسمعت صوتا من الخلف ولم أميّزه جيدا، وسألت من يتكلّم، فسمعت كلاما ساخرا قاسيا من نفس الشخص أيضا، فنزلت عند أمي حيث زوجته ونارة محتجا، وكان يمكن أن أقبل اعتذارا بسيطا، وعندما أخبرتهنّ بما فعل زوج زمهرير، وأن في هذا إهانة لي، وجدت نفسي وكأني بين مجموعة كلاب مسعورة.

نارة تعرف أنني بنيت بيتي من مالي الذي حصلت عليه من أعمالي مع عدة مؤسسات ومن كتبي، وليس من المزرعة، ولكن جاءت بكل جرأة تقول:

نريد حصّة في هذا البيت!

ونتيجة لهذه الأعمال، وبسبب طرد زوجتي من البيت أثناء اعتقالي، قررت تسجيل نصف البيت باسم زوجتي، وبدأنا بالإجراءات،

وكانت تتضمن أن يقوم موظّف في البلدية في الكشف على بيتي وبيت أخي ضمن إجراءات البيع، وقلت له عن قصّتي، وإن هو ذهب لبيتهم لإجراء الكشف سوف يعرفون نيّتي، وسيقومون ببذل كل جهدهم حتى لا أفعل هذا، وتفهّم وضعي، ووقع لي على المعاملة دون كشف، وجزاه الله خيرا، ثم وضعت قيودا صارمة على دخول أحد من العناكب إلى بيتي، وقطعت آخر الخيوط في شبكة العنكبوت.

الأفراح والأتراح، بالنسبة لي كلّها أتراح!

ربّما أجد في بيت الشعر هذه عزاء، وهو للمعرّي:

غيرُ مجدٍ في ملّتي واعتقادي نوح باكٍ ولا ترنم شاد

لقد كبرت وعرفني أكثر من يخالطني، وصرت أصلع الرأس، مشيب اللحية، وكبرت إنجازاتي، وكل أهل الحيّ يكنّون لي أعلى درجات الاحترام، وكل من عرفني شخصيا أو سمع بي.

ولكن بعض اقرب الناس حولي يصرّون على النذالة.

مات ابن خالتي، ذهبت لبيت العزاء، والجميع يعرفني، ورغم ذلك أخذت بعض الاحتياطات، فأنا أعرف أن الشخص النذل يزداد نذالة في المناسبات، لأنه يشعر أنه شخص مهمّ، جلست في وسط المكان، وبجانب أهم الشخصيات من أبناء أخوالي وخالاتي، وبعضهم قدّمت لهم خدمات لا تقدّر بثمن، بعضهم كان بجانبي، البعض الآخر في مواجهتي، مرّت القهوة أمامي مرّات عديدة، وأعطيت للمجاورين لي أيضا مرّات عديدة، وتعاملوا معي وكأني غير موجود، فخرجت وقابلت صديقا لي، وأخبرته بما حدث معي، وأوصيته أن يوصل احتجاجي لهم.

بعد سنوات أقيم بيت عزاء لوفاة أحد أقاربهم وكان الشخص الأكثر مسؤولية عن الموقف السخيف السابق يقف في الصدارة ودخلت، وتجاوزته وكأنه لا شيء!

استغرب، تعجّب، ووضع كرسي مقابلا لي وأحنى جسمه للخلف واتكأ على مسند الكرسي مبحلقا بي، لقد كان يتفرّس بي محاولا معرفة سبب هذا التصرّف الذي قمت به، وأغلب ظنّي أنه لم يتذكّر ما الذي فعله معي.

هذا الشخص لم أكن أحبّه لعد أسباب، أولها أنه جار المسجد، ونادرا جدا ما يدخل المسجد، ثم هو متكبّر رغم أنه لا يملك أي من المواصفات التي يعتمد عليها الأغبياء للتكبّر، وأنا ألان أجري مقارنة بين آباء كانوا يحترمونني وأنا طفل صغير، وأبناء هم شرّ خلف لخير سلف، لم يحترمونني وأنا كبير، وبعد أن قدّمت لبعضهم الكثير.

شخص آخر، قريب لي جدا، صنعت من أبناءه أشخاصا ناجحين، وناجحين جدا، بجهودي وبتوفيق المولى، ذهبت إلى مناسبة له، كان هو وأبناءه الذين يتجاوز عددهم نصف دزيّنة، وعدد من أحفاده، وتعاملوا معي وكأنني لست شيئا، دخلت وخرجت وجلست بينهم واحتككت بهم، وتجاهلوني فغادرت، وكلّي ألم وحزن وغيظ، ولم يهدأ بالي إلا بعد أن وضعتهم في نفس الموقف، فهذا ليس خطأ غير مقصود، أو خطأ فردي، بل جريمة جماعية، وجعلتهم يشعرون بالأسى الذي شعرت به بسببهم.

أما في الأفراح فالأمر لا يقلّ سوءا ، ففي خطبة قريب لي وكان أبو العروس صديقي، وبيننا علاقة طيّبة، ذهبت لأسلّم عليه، فأشاح بوجهه عنّي، وقال: أنا مشغول، دعني، وكان يسلّم بحرارة على منه دوني

علما ومقاما، وخرجت من الحفل حزينا أشكو لربّي ظلم البشر، فأنا جئت لمشاركته في فرحه فكان مصدر حزني، وانتقم منه المنتقم الجبّار، انتقاما مؤلما أستمر لأشهر أو سنوات، وأخبرت صديقا مشتركا فأدّب ذلك الرجل جيدا، حتى جاء معتذرا رغم أنفه.

ونتيجة لكّل هذه الأخطاء المتكررة، وأيضا لسبب آخر أهم وهو أن حفلات الأفراح مليئة بالمعاصي، من غناء وموسيقى واختلاط، وغير ذلك فقد قاطعت كلّ هذه المناسبات، ولا أشارك إلا في حفل أثق في أن أصحابه من خيرة أصدقائي، ويعرفون قيمتي جيدا، وتخلوا أفراحهم من المحرّمات، أما غيرهم، فإن أتتني بطاقة دعوة فإنّي أردّها إليهم، وأبيّن لهم السبب.

وأسوأ نوعية من الناس تعاملت معها مثل "الشيخ" الذي قابلته في دار النشر، وكان يرتدي زيّ رجال الأزهر، وعرّف بي الناشر، ولكن لم يعجبه شكلي، فسخر منّي بكلّ وقاحة.

كظمت غيضي، وبعد قليل حسب له الموظّف ثمن الكتب التي اشتراها، فقال مغضبا: ألا يوجد خصم لي؟

على الأقل احتراما للجبّة والعمامة!

فقلت في نفسي: وقع بشرّ أعماله.

نظرت نحوه وقلت له: أحد الصالحين دخل إلى متجر ليشتري طعاما، فعرفه أحد الحضور، فقال للبائع: اعمل خصم للشيخ.

فنظر الشيخ وقال: نحن نأكل بأموالنا وليس بديننا.

فهم ذلك الشيخ الأفّاق كلامي وخرج من المكتبة وهو يهذي!

السرقة ضريبة الإبداع

في بعض مؤتمرات الموهبة والإبداع سألني مخترعون جدد عن السرقات الفكرية، وكيف يمكن حمايتها، وقلت لهم: في بلادنا لا يوجد حقوق ملكية فكرية، وكلّ هذه أكاذيب، لقد عملت مع شركة صاحبها عضو مهم في جمعية حماية الحقوق الفكرية، ولكن يستخدم برامج حاسوب منسوخة، وغير ذلك الكثير، وأنا أيضا تعرّضت لسرقات كثيرة، وفرحت يبعضها !

عندما صدر كتابي الأوّل، ولم أكن أعرف هل سينجح أم لا، فهو بداية طموحي، وإن فشل فهذا مؤشر لفشلي، وسيكون علّي القيام بمحاولة جديدة، أو مغامرة أخرى خطيرة، وجاءنا خبر أن إحدى المكتبات لديها طبعة مسروقة من كتابي، غضب الجميع إلا أنا، فرحت، وأستغرب الجميع ، فقلت له: من يدفع مالا ليصدر طبعة مسروقة من الكتاب فإن هذا يدلّ على نجاح هذا الكتاب.

لم نتأكد من الأمر، هل هو سرقة أم أنه اشترى نسخا بسعرّ مخفّض من الناشر.

بعد سنوات اتصلت بي دار نشر كبيرة في عمّان، وطلبوا منّي تأليف موسوعة للمستنبطات العلمية، وحسب حجم المشروع حددّت له عاما كاملا من العمل، وطلبت مبلغا يتناسب مع هذا العمل.

بعد بضعة أشهر ذهبت لمكتبة في اربد فوجدت موسوعة المستنبطات العلمية من تسعة أجزاء في غلاف كرتوني، وقرأتها ووجدت أن "المؤّلف" أو اللص، كتب في المقدّمة أنه أخذ من كتبي، ولكن الحقيقة أن كل ما فعله أنّه أحضر بعض كتبي وكتب أخرى شبيهة، ووضع علامة على الفهرس لاختيار المواضيع التي يريد، وقاموا بطباعتها ورسم

الأجهـزة، وكانـت جميـع الرسـومات غـير صـحيحة، ولا تعطـي صـورة حقيقية عن الجهاز، وفاتحت

دار النـشر، وقلـت لهـم إن هـذا لـص، فقـالوا نعـرف، وهـذه مسؤوليته، ويمكنك أن تشتكي عليه.

لص آخر سمعت عنه كثيرا، صممّ الكثير مـن الأجهـزة، وعمـل معارض لأجهزته، وافتتح الوزير أحدها ودعـي لمكتـب الـوزير لتكريمـه، وحصل على 4 جوائز علمية على أجهزته، واشتركت أنـا وإيّـاه في دورة، وكان قد أحضر أجهزته قبـل يـوم ولا يعـرف أنـني سأحـضر، وشـاهدت الأجهزة، كلّها مسروقة من كتبي، وفاتحته وأنكـر، ثـم بعـد ذلـك أعـترف لصديق لي.

السرقة لن تتوقـف، والمبـدع يجـب أن لا تقـف هـذه المـشكلة في طريقه، فحتّى أكبر شركات الحوسبة تعاني من القرصنة.

تقنيات القطيعة عند العناكب!

أحاول زيارة أخواتي وخاصة في الأعياد والمناسبات علـى الأقـل حتى لا أقع في الإثم، ولكن لديهنّ عدة طرق لمنعـي مـن زيـارتهنّ، أوّلهـا أن تقول لي أنها مشغولة، ولا يوجد عندها وقت لاستقبالي، وقـد تكـون أكثر صفاقة حيث تقول لي أن صديقهم فلان ربّما يزورهم، وبهذا المعنـى هي تعطي الأولوية لصديق بعيد، وهذا الصديق قد يأتي وقد لا يأتي.

وأحيانا أتّصل وأقول لها أنا قادم لزيارتك حسب الموعـد المـسبق بيننا، فتقول لي: أنا الآن في زيارة بيـت الجـيران، وتجـد هـذا عـذرا كافيـا لمنعـي مـن الزيـارة، أو أن تـذهب لبيـت الجـيران، وتـترك أحـد أبناءهـا لاستقبالي أو بالأصحّ للتخلّص منّي.

أما إن أصررت وذهبت لزيارته إحداهنّ قد لا تفتح لي باب بيتها، وحدث هذا أكثر من مرّة، وإن فتحت الباب فعندّهن بدائل أخرى أوّلها أن تُدخل علّي بعض جاراتها أو قريبات زوجها، فتضطرّني للمغادرة حيث تقول لي بوجه كالح: أخرج جاءت نساء، وأنا أخوها قادم لزيارتها من بلد آخر، ومعي أثمن الهدايا، والنساء اللاتي تدخلهنّ عادة تحضرهنّ من شقق في نفس البناية.

وقد انقضت عدّة سنوات لم أتمكّن من زيارة بيت نارة، حيث كانت تأتي هي وتأخذ العيدية، وأفعل هذا وأنا غير راض عنه، لأنني لا أريد أن أكون قاطع رحم، ولكن رغم هذا وصلتني رسالة من نارة تقول فيها: "رؤيتهم بالدروب ولا حسرتهم بالقلوب"، أي تتظاهر أنها محرومة من رؤيتنا، وتحمّلني أنا المسؤولية، وهذا محض افتراء، فأرسلت لها رسالة أوضحت لها هذا الأمر، فكان ردّها أشدّ عدوانية، حيث وصلني منها رسالة تهديد تقول فيها : "ليس كل الطيور يؤكل لحمها"!

وحتى الآن أزورهن في الأعياد والمناسبات بمرافقة بعض الأقارب من أجل إجبارهنّ على استقبالي، لأتمكّن من الزيارة أو أداء الواجب الشرعي في صلة الرحم، ولكن لن أقبل بعد الآن هذه الطريقة للزيارة، ولن أزور أيّ منهنّ إلا إذا اتّصلت ورجتني أن أزورها.

زمهرير من زنقة لزنقة!

في السنوات الأولى من زواجنا حيث كنّا ما نزال نسكن في بيت العائلة القديم في البلدة لم يتح أمامنا إلا فرص محدودة جدا للخروج من جو البيت المليء بالمؤامرات، وفي أحد الأيام وبعد العصر ذهبت أنا وزوجتي وجلسنا في أرض زراعية خالية إلا من شجرة لوز صغيرة،

ورأتنا زمهرير من نافذة بيتها حيث كان طريقنا يمرّ قريبا من بيتها، ويبدو أنّها فكّرت في طريقة لطردنا من هذه الأرض، فجاءت وجلست معنا، ولحقتها بعض النساء، نفس النساء اللواتي تستخدمهنّ في إخراجي من بيتها، وبنفس الطريقة اللئيمة، والوجه الكالح قالت لي: اذهب، جاءت نساء.

غادرت المكان، وكنوع من الاختبار قطفت حبّة لوز صغيرة، وأنا لا أحبّ اللوز الأخضر، ويبدو أن زمهرير قامت بإجراء بعض الترتيبات قبل حضورها، ووجدت نفسي محاطا بعدد من أقارب زوجها يتهمونني بالسرقة، وهي مجرّد حبة لوز غير ناضجة، وأيضا هؤلاء أنفسهم عندما يأتون لمزرعتنا نملأ صناديق سياراتهم بكل أنواع الفواكه والثمار المتوفّرة، وللمرة الثانية أتّهم بالسرقة من أجل حبّة لوز أخضر.

لقد أثبتت زمهرير أنها لا تريد لي أن أتنفّس، ولو تمكّنت من خنقي لفعلت، ولو استطاعت تكليف أحد لمتابعتي والتضييق عليّ لفعلت، ولو سألتموني لماذا؟ فلا أعرف الجواب، وأتمنّى ممن يعرف أن يخبرني.

ومنذ ذلك الوقت صرنا إذا أردنا الخروج إلى البساتين نذهب إلى أماكن بعيدة عن عيون زمهرير ، وكلّهم أصدقائنا، وكلّهم يرحّب بنا، بل يأتون لنا بكثير من اللوز وأي ثمار تكون ناضجة في ذلك الوقت.

الأخت الكبرى تراقبك!

ربّما استلهمت هذا العنوان من رواية جورج أورويل (1984) والذي يتحدّث عن "الأخ الأكبر" الذي يراقب الجميع،وهكذا كانت زعيلة.

عندما تأتي في زيارة، وزيارتها كثيرة، تقضي جزأ من الوقت في شقّة أمّي، رغم أن أمّي لا تطيقها، وتحاول كلّ جهدها التخلّص منها، ولكن ما تفعله بنا أسوأ ألف مرّة مما تفعله بأمّي.

كنّا سابقا نستخدم الهاتف الأرضي وكانت تتنصّت على مكالماتنا من الهاتف الثاني، وعندما عرفنا بما تفعله أبقينا جهاز هاتف واحد عندنا، ولكنها لم تعجز، حيث صارت تقف في بيت الدرج وتحاول الاستماع، خاصة وأن صوتي وصوت زوجتي من النوع الرفيع الحاد ومن السهل تمييزه.

وعندما كنت أوقف السيارة تخرج وتختبئ وراء الجدار وتراقب ما أحضره معي، وعادة أغراض عادية للبيت وربما بعض الكتب، وعادة ترسل زوجتي حصّة أمّي وضيوفها قبلنا، وعندما كنت أشعر بوجودها كنت أترك الأغراض في السيارة وأدخل ثم أعود لها في وقت آخر.

مشكلة أخرى عندما تريد زوجتي أن تذهب لبيت أهلها، وربّما معها هديّة، وأحيانا تأخذ معها أشياء ليساعدوها في عملها، وفي هذه الحالة تكون مراقبة زعيلة مشدّدة، ولهذا نضع الأغراض في السيارة بعد صلاة الفجر قبل أن تبدأ زعيلة نشاطها، أو نوقف السيارة بعيدا عن مراقبتها وننقل الأغراض بالتجزئة.

وحتى الآن ما زالت أميرة لديها خوف داخلي كلما أرادت أن تتحدث بالهاتف، تدخل غرفة بعيدة وتغلق عليها الأبواب، فأقول لها: لقد ماتت زعيلة.

فتقول لي: ولكنّها تركت عندي خوفا لا أستطيع التخلّص منه.

باب الترجمة الفسيح!

أعرف أن لغتي الإنجليزية جيدة، ومعظم المراجع التي استخدمها أثناء تأليف كتبي باللغة الإنجليزية، ولكنّي لم أكن أتوقع يوما ما أن أكون (مترجما) أترجم كتبا كاملة، حتى ذلك اليوم الذي زرت فيه الناشر الذي ينشر كتبي، ونصحني بترجمة بعض الكتب التي ستكون مفيدة لي ولدار النشر وللمكتبة العربية.

فكرت بالموضوع قليلا، ولأني أحب التحدي والمغامرة والوصول إلى مستويات أعلى لم أصلها سابقا قبلت هذا الأمر، وراسلنا دار النشر التي اخترناها لنترجم بعض كتبها، واخترت أربعة كتب كمشروعي الأول للترجمة، لاحظ لم أختر كتابا واحدا أو اثنين بل أربعة كتب، ودفعنا لدار النشر ثمن حقوق الترجمة وبدأت بالعمل، وصدرت الكتب والحمد لله، وأضفت إلى سيرتي الذاتية وظيفة (مترجم).

نقلة أخرى إلى الأمام

لقد ذكرت سابقا ذلك المسؤول السعودي الذي أرادني أن أعمل معه ولكنّه تقاعد بعد ذلك، وضاعت عليّ فرصة كبيرة للعمل معه، ولكن التواصل بيننا لم يتوقّف، وعندما ذهبنا للرياض دعانا لبيته، وبدأ في إثارة اهتمامي في علوم التفكير، وقد أنشأ مركزا خاصا، وقد كان أكبر خبير في هذا المجال في السعودية.

التقينا كثيرا في الرياض، وفي عمّان، واستضافني في الرياض وفي مؤتمر الموهبة الذي كان يعقده في سلطنة عُمان، وبدأت الفكرة تعجبني.

أصدرت عددا كبيرا من الكتب في مجال التفكير تقدّم علما أصيلا، وحققت أعلى المستويات في هذا المجال.

ثم طلبت منّي مؤسسة خليجية تأليف وحدات من المناهج الخليجية أطبّق فيها بعض علوم التربية الحديثة، وبدأت قفزة أخرى، في مجال ترجمة أحدث كتب التربية وأستخدمها في تأليف كتب في علوم التربية حتى صار بيتي يزوره الكثير من طلاّب الدراسات العليا في علوم التربية، هذا غير الذين يتواصلون معي من خارج الأردن، وحققت كتبي نجاحات كبيرة جدا، ثم طرقت موضوعا آخر، وحققت فيه نجاحات متميّزة وهو علوم التنمية البشرية، ورغم أنني صرت مدرسة في علوم التربية، وعلوم التنمية البشرية، ما زال زاهي الذي لم يقرأ كتابا في حياته، يعتبرني سفيها لا أعرف كيف أتحدث مع الآخرين!

حرب جديدة وردّ مزلزل

لم تكتف العائلة بكل الأذى الذي سببّه لي، وبدؤوا في ترتيب مصيبة جديدة، حيث اقنعوا صديقة لهم متقاعدة أن تستأجر البيت الملاصق لبيتي لفتح مدرسة أطفال،

وكان وقع الخبر صعبا جدا عليّ ، لأن مدرسة أطفال تعني لي فعاليات الصباح والأصوات الناتجة عنه، وأصوات الجرس كل ساعة، وإزعاج الأطفال وأصواتهم وتخريبهم، وقاذوراتهم.

ذهبت إليهم وقلت لهم أنا غير موافق على هذا المشروع.

فقالوا: من أنت حتى توافق أو ترفض؟

قلت: سأوقف هذا المشروع

فردّوا عليّ بكل عنجهية واستكبار، ونظراتهم نحوي مليئة بالاحتقار: امنعه إن استطعت.

وكنت قد حضّرت لهم ردّا مزلزلا يحطّم غرورهم، ويكسر أنوفهم، فقلت لهم بكل هدوء:

سأبيع بيتي لتاجر عقارات ليبني فوقه مجمّع سكني، وسآخذ عنده شقة، وبفرق المبلغ سأدخل شريكا معه في المجمّع التجاري الجديد الذي ينوي بناءه، وستكون أرباحي بما يعادل ثمن شقة سنويا.

تركت العائلة مصدومة، واتصلت بصديقي تاجر العقارات، وقلت له: أحتاج لقدومك فورا، فحضر سريعا، وأخبرته بالقصّة وقلت له: تدبّر طريقة لتأكيد وصول الخبر بطريقة غير مباشرة للعائلة عن الاتفاق المزعوم بيننا.

وحاولوا تدارك الأمر ولكن قلت لهم: فات الأوان.

هذا العمل أصاب الجميع بالرعب، وخاصة وأن أمي تقيم في شقة خاصة بها في بيتي، وإن أنا بعت البيت كما أوهمتهم، سوف يضطرون لتأمين شقة لها، وتحمّل مسؤوليتها بشكل مباشر.

في الليل كان عندنا بعض اللوز بقشره، وهو لوز بلدي وقشره صلب جدا، فجلست أنا وزوجتي نكسر اللوز بمطرقة صغيرة لنأكله، وسمعوا الصوت، وظنّوا أننا بدأنا في تفكيك الخزائن للرحيل، وزاد عذابهم.

في اليوم التالي جاءت المرأة التي كانت ستفتح المدرسة وقدّمت الأعذار، وقالت أنها لم تكن تعلم أن هذا الأمر سيغضبني، وأنه سيوصل علاقاتنا العائلية إلى هذه الدرجة من السوء، وألغي المشروع.

فوبيا الصيدلية

أنا آخذ يوميا نوعين من الهرمونات بشكل حبوب يوميا، وإبرة كل شهر، ولا يمكنني أن أعيش دونها.

أحاول جهدي أن يكون عندي مخزونا من هذه الهرمونات لبضعة أشهر، ولكن أحيانا أنشغل وأكتشف أنه لم يبق عندي إلا القليل، فأسرع إلى الصيدّليّات التي تتعامل بهذه الأدوية، وكثيرا ما واجهتني مشاكل مؤلمة.

عندما أجد أن كمية أحد الهرمونات عندي على وشك النفاذ أجد أحيانا أنه مفقود في السوق، حيث تقطعه شركات الأدوية كل بضعة سنوات لرفع ثمنه، ولكم أن تتخيّلوا الوضع النفسي الذي أكون عليه، أنظر إلى عدد الحبّات، وأعرف أن عدد الأيام المتبقية لي على قيد الحياة هو عدد حبّات الدواء.

وعندما أقع في هذه المشكلة أبدأ مشوار البحث في الصيدليّات والمستشفيات، وأحيانا أتّصل بأصدقاء في الخارج، ولم أفكّر يوما أن أتّصل بزاهي، لأنه سيجد عندي ضعفا يرضي غروره ويستخدمه في إيذائي وتحطيم معنوياتي.

وحتى الآن عندما أمرّ أمام أي صيدلية أحسّ بخوف أو رعب داخلي، لأن الصيدلية مرتبطة بالدواء الذي لا يمكنني أن أستغني عنه، ولا أدري هل أدويتي موجودة الآن أن مقطوعة، وقد عرّف علماء النفس الكثير من أنواع الرهاب أو الفوبيا مثل فوبيا المناطق المرتفعة، أو فوبيا الظلام، أو فوبيا المناطق المغلقة، وأنا أضيف هنا "فوبيا الصيدليات".

وتخيّل أنّك مهموم ومحتار في كيفية تأمين دوائك، والعدّ التنازلي لعدد حبّات الدواء المتبقيّة لديك، وهي تعني عدد الأيام الباقية لك على

قيد الحياة، وتأتي أختك تتفاخر عليك بحذائها الجديد، أو أخوك بحفيده الجديد!

آلام حتى البكاء

منذ خمسة سنين عانيت من آلام في جميع أجزاء جسمي، وذهبت إلى الطبيب الذي عالجني قبل أكثر من 20 عاما، وأجرى لي كلّ الفحوصات ولم يظهر عندي أي مشكلة، ثم قال لي صديق خبير في الطب الطبيعي: ربّما جرعات الهرمون التي تأخذها لم تعد تكفي بسبب زيادة وزنك؟

وعدت للطبيب وأخبرته بهذا، وقال: نعم ربّما يكون صحيحا، وأجرى لي فحوصات أخرى، ولم يظهر عندي أي شيء.

زادت حدّة الآلام بحيث يجعلني أريد أن أبكي، وخاصة في الليل، وجاءتني دورة في حضرموت، وأقمت في قصر على شاطئ البحر، ومن الساعات الأولى اختفى الألم تماما.

وخلال السنوات اللاحقة كان يأتي الألم أحيانا ثم يختفي، ومع المراقبة عرفت أن الألم يأتي فقط عندما أتضايق نفسيا، أي عندما أتعرّض لأي أذى نفسي، حيث ُيظهر جسمي عدم قدرته على تحمّله بالألم، وهذا أمر مبرر، فمن يحصر حجم الأذى النفسي الذي تعرّضت له قد يقول: كيف استطاع هذا أن يعيش؟

وبسبب ظروفي الجسمية فإن كثيرا من الأشياء التي لا ينتبه لها الناس، تكون مشكلة كبيرة بالنسبة لنا.

لقد كنت لا أستطيع أن أرفع 5 كيلو غرام، ولكنّي أهتمّ بصحّتي، وصحّة زوجتي، ولهذا صرنا أكثر قدرة على مواجهة هذه المشكلات، وبإمكاني الآن حمل 20 كيلو غرام والحمد لله.

أنا وغزل وحب من نوع نادر!

من الذين ملؤوا فراغا في حياتي، عندما تعرّضت لأكبر هجمة من "أعداء الداخل"، جارتي الصغيرة "غزل"، طفلة لم تبلغ العامين، سكن أهلها في الطابق الأرضي من بيتي، نشأت بيننا علاقة وطيدة رغم المفارقات الكبيرة، كنت أنتظرها في الصّباح في مكتّبي ولا يهدأ بالي حتى تأتي، وإن تأخرّت أبذل جهدي لكي تحضر.

أما هي فبمجرّد أن "يطلقوا سراحها" تسرع نحو مكتبي، تقف ببابي، وتنظر نحوي وضحكة جميلة مشرقة تعلو وجهها الصغير الجميل، فينشرح صدري، ويدقّ قلبي، وأحملها وأعانقها.

وإن غضبت منّي أحيانا فهذا لا يعني أن تقاطعني، بل تقف على باب مكتبي، وتظهر على وجهها علامات التجاهل، وبمجرّد أن أناديها أو أسرع نحوها، تزيل هذه العلامات المفتعلة، وتركض نحوي.

لقد كانت أمّها تعرف ماذا تعني لي غزل، ولهذا كانت تنظّفها في الصباح وتلبسها أجمل اللباس وتدعها تأتي.

عندما كنت أغضب من أحد من أهلها يكفي أن يرسلوا لي غزل لأسامحهم مهما كان الخلاف كبيرا، أما إن غضبت من غزل، والحقيقة أنني لم أغضب منها يوما، بل أتظاهر بالغضب لابتزازها، فتبذل كلّ جهدها لإرضائي.

أردت أن أقبّلها مرّة وكانت غاضبة، فضربتني بكفّها الصغير وهربت، وفي الصباح التالي جاءت وأجلستها على مكتبي وقلت لها: أنت ضربتني، وأنا الآن أريد أن أقتصّ منك، فأغمضت عينيها، وأدارت وجهها وأسلمت نفسها لأضربها، وكانت فرصة لأقبّلها على جبينها قبلة بدل تلك التي تلقّيت كفّا من أجلها.

لقد أنستني غزل الآم جسمي، وأحزان نفسي، وأهم ما يميّزها، وجعلها تأخذ كل هذه المساحة في قلبي، هو ذكاءها الذي لم أرى له مثيل لمن هو في عمرها، وقد أحببت الكثير من الأطفال، ولكن لا أظنّ أنني سأحب أحدا مثل غزل، ولو أن الله رزقني بنتا فلا أظن أنني قادر على أن أصل في حبّي لمستوى يتجاوز مستوى حبّي لغزل، لقد كنت أحبّها وكأنّها ابنتي التي لم أُرزَقها.

ما كان يخيفني هو عندما أعود للبيت في سيارتي، فتركض نحوي، ولهذا صرت أوقف السيارة بعيدا عن البيت، وأحملها وأركبها معي في السيارة ثم أدخلها إلى المرآب.

من أجل غزل، ومن أجل زوجتي وأنا، اشتريت زوجا من الببغاوات، على أمل أن تكون الحيوانات أرحم من بعض الإخوان والأخوات، وكنّا نقضي سهراتنا في الشتاء بجانب مدفأة الحطب، وهذه الطيور، وكم كانت هذه الطيور مصدر سعادة طفولية لنا ولغزل وإخوتها، ولكن هذه الطيور بحاجة لعناية مستمرّة فاشتراها أحد الجيران.

رحلت غزل وأهلها، ذهبوا إلى بيت قريب من بيوت أهلهم، لأن كلّ الناس يحبّون أن يكونوا قريبا من أهاليهم، إلا أنا، تركت أعظم فرص العمل التي أتيحت لي، وبذلت كلّ جهدي لأكون قريبا من أهلي، ولكن

الآن أتمنى أن أضع نظارة على عيني حتى لا أرى أحدا من أولئك الأشرار.

بعد أشهر من الرحيل، زارتنا غزل مع أهلها، وأعددنا لهم غداء يليق بغزل وأهلها، وكانت فرحتها، وفرحتنا أنا وزوجتي كبيرة، وبصعوبة تمكّنت من التملّص منها للذهاب للمسجد، وعدت بعد الصلاة أنا وصديق لي، ووقفنا أمام البيت نكمل حديثنا قبل أن يذهب هو الآخر لبيته، ورأيت غزل واقفة على الباب تنتظرني رغم البرد، وعندما توّقفت للحديث مع الرجل بدأت تنادي عليّ، مما اضطرني لقطع الحديث والاعتذار للرجل، وحملتها ودخلت.

في نهاية الزيارة أوصلتهم لبيتهم، وعندما نزلت أصابها الوجوم، ربّما ظنّت بعقلها الطفولي أنهم عادوا لمقرّ إقامتهم القديم، في الطابق الأرضي من بيتي، وفرحت كونها ستعود قريبة منّي، ولكن العودة شكّلت لها صدمة، وعادت لواقعها الجديد.

لا أدري ما الذي جعل هذه الطفلة الصغيرة تتعلّق بي كل هذا التعلّق، وتمنحني كلّ هذا الحب، وهذه السعادة، وأظنّ أن لطف الله الخفيّ وراء هذا، فهو يعرف كم أعاني من جهة، وكم أحّب الأطفال من جهة أخرى، وأنني حرمت من أطفال العائلة خوفا من سلاطة لسان زاهي وغيره، وقسوة كلامه عليّ، فألهم هذه الطفلة لتكون عوضا لي، وكما قال تعالى:

(ومَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ)،

ويقال أيضا: (يضع سرّه في أصغر خلقه).

أخي وطبيبي حكيم

خلال عملي في التربية كنت أتردد على متحف التاريخ الطبيعي في جامعة اليرموك، وأحيانا كنت أستعين ببعض العاملين هناك ومنهم حكيم، وهو خبير في الحياة الفطرية، وفي علوم التحنيط وحفظ العيّنات، ولكن لم تنشأ علاقة حقيقية بيننا.

عندما عملت مع شركة الحوسبة ذهبت للمتحف لتصوير بعض الحيوانات المحنّطة، ودعاني حكيم لكأس من الشاي، وأخبرته بالعمل الذي نقوم به، وبدأت فكرة في التعاون بيننا وبينه، فأنا صحيح أنني أصوّر بعض مظاهر الطبيعة، ولكن لا يمكنني الحصول على صورة ضبع أو أفعى أو غزال، وغيرها من مكوّنات الطبيعة، ولا أملك خبرة حكيم في تحديد الاسم العلمي لكل كائن، ورتّبت لقاء بينه وبين المدير العام للشركة الذي كان قد حضر من السعودية، وبدأ العمل.

تراوحت علاقتي مع حكيم بين قرب وبعد، ولكن مع الزمن ومن خلال معرفتي بطيبته، ورقة قلبه وصدق مشاعره، وكذلك وجد في شخصيتي ما دعاه لتقريبي منه، توطّدت علاقتنا، وصرنا أكثر من إخوة، وجدنا بيننا الكثير من القواسم المشتركة أهمّها حب الطبيعة، وصرنا كلّما شعرنا بالضيق مع الحياة والعمل نخرج في رحلة للمشي في الطبيعة أو تسلّق الجبال أو السباحة، أو قضاء بعض الوقت مع رعاة الأغنام على سفوح الجبال، وشراء بعض الحليب منهم.

والآن لا يمكن أن يمرّ يوم دون أن نتواصل مع بعض، ولا أسبوع دون أن نلتقي معا.

حكيم من النوع الهادئ المتّزن ويتمتّع بنفس طويل، وكان لـه دور في احتفاظي ببعض أحب أصدقائي، ومثل حكيم يوجد الكثير من الأصدقاء، ولكن حكيم أقربهم من قلبي.

الحديث عن حكيم يطول، خاصة وأنه حقق نتائج مذهلة في الطب الطبيعي، ويسعى لتصنيع أدويته على نطاق واسع، وندعو الله أن يكون قريبا.

يغضبني حكيم ويشعرني بلحظة من الاكتئاب عندما يقول لي أحيانا: يا سعد أتمنّى أن نذهب لدائرة الأحوال المدنية لنصبح إخوة رسميا، ولكنّي أقول له:

علاقة النسب تنتهي يوم القيامة، حيث يقول سبحانه وتعالى:

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (101 المؤمنون)

ولهذا لا قيمة للنسب يوم القيامة، والإنسان يوجد له جوانب مسيّر بها مثل: النسب والإخوة، وهذه لا يحاسب عنها يوم القيامة.

وجوانب مخيّر بها، وهذه يسأل عنها، ومنها اختيار الصديق أو الصاحب، وكما يقال الصاحب، ساحب، ولهذا أحبّ أن تكون صديقي على أن تكون أخي.

والآن أخي حكيم هو مستشاري الطبّي، وقد تمكّن بفضل الله من مساعدتي في مشكلات صحيّة كثيرة، وأستشيره في كل صغيرة وكبيرة، حتى أنه هو الذي اكتشف سبب الآلام التي عانيت بها لسنوات، وكلّما ألتقي به يعاملني مثل مريض أمام طبيبه، ينظر في وجهي، وفي عيني، ثم يقول غالبا: صحّتك جيدة والحمد لله، ومرّة نظر إلى رأسي الأصلع إلا من القليل من الشعر، فرأى شعرا جديدا ظهر في منطقة

صلعاء، فقال: هذه علامة سيئة، وهناك سبب هرموني وراءها، وبعد ذلك تبيّن أنه تشخيصه كان سليما.

حفلة ابني!

ربما كان العنوان مفاجئا، لأنه ليس عندي أبناء بيولوجيين، ولكن عندي آلاف من الأبناء الذين نشئوا على كتبي، وبنوا شخصياتهم، ومستقبل حياتهم انطلاقا منها، وأقرب هؤلاء شاب من عائلة أصهاري، وله كلمة لطيفة في بداية الحكاية، كما ختمتها به وهذا الشاب لم يشأ أن يشعرني أنه يعتبرني أنني أبوه الثاني بالكلام فقط، بل عمل أكثر من ذلك بكثير، ورغم أنني لا أوافقه على بعض ما يفعله أو يؤمن به، ولكن لا أخفي سرا عندما أقول أنه أسعدني.

لقد بدأت علاقتي في البداية بوالده من خلال الفيسبوك، ثم أخبرته أنني متزوّج من قريبته، ولهذا فنحن أصدقاء وأصهار، وتعرّفت على أبناءه سريعا، ولكن لم أتعرّف على أوس إلا بعد أشهر عديدة، وكنت أراه في الصورة، فشعرت بنفور غريب منه لا أعرف سببه، ربّما طوله الفارع، ولكن عندما عرفته، وشعرت كم هو قريب منّي، وكم يحاول أن يقترب أكثر، بل من أجمل ما سمعت منه أنه قال لأبيه صديقي د.تيسير أن أفضل عمل قمت به من أجلي هو تعريفي بهذا الرجل، وهو أنا، وهذه كلمات تكتب بماء الذهب، فالأب لا شك عمل لابنه الكثير، وعندما يضعني أوس في مقارنة مع كل ما فعله أبوه له، فهي لا شك تدلّ على صدق مشاعره، ورقّة أحاسيسه.

في أحد الأيام اتّصل بي أوس وطلب منّي الحضور من أجل شيء له علاقة بالعمل، وهناك وإذا به قد جهّز لاحتفال، حيث أحضر

قالب الحلوى، والعصائر، وجمع عدد من الحضور، وتذكّرت عندها أن هذا يوم ذكرى ميلادي الذي لم أحتفل به يوما لأسباب دينية، ولكن أوس كان له رأي آخر، وهو أن هذا الاحتفال بالإنجازات التي قدّمتها خلال هذا العام، واستطاع أوس أو يزيل كثير من الهموم والوساوس والقيود، ووصل إلى قلبي، حيث كتب اسمه هناك.

الذبح بدم بارد!

من قناعاتي التي تكوّنت نتيجة خبرة طويلة أن ناشر الكتب نصّاب حتى يثبت العكس، وفي بداية عملي في التأليف وقعت في براثن بعض هؤلاء اللصوص، وتحمّلت سرقاتهم حتى كوّنت لي اسما بين المؤلفين المعروفين، وعندها بدأت أضع شروطي، ووجدت ناشرا أثق به.

أحد هؤلاء الناشرين كانت لديه عُقَد الكبر والغرور، وطبعت عنده بعض الكتب، ووقعت عقودا لعدد كبير من الكتب، وكان من غباءه ومن حسن حظّي أن وضع شرطا من أجل مصلحته، ولكنّه كان وبالا عليه، إذ التزم أن يطبع الكتاب بعد شهر من تاريخ توقيع العقد، كما أنه اصدر طبعات ثانية دون أن يأخذ موافقتي عليها.

احد الكتب المهمّة التي أصدرتها كان هو من اقترحها، وأخبرني أنني أفضل من يكتب في هذا المجال، ولكنّه لم يدفع لي حقوقي، وبدأ بابتزازي حتى تنازلت عن كثير من حقوقي من أجل استرجاع كتب كنت قد سلّمتها له ولم يطبعها فطبعتها عند غيره، وقمت بتأليف الكتاب الذي نصحني بتأليفه، وأيضا طبعته عند غيره لأنه أثبت أنه مجرّد نصّاب.

عندما صدر لي هذا الكتاب أصابه الجنون لأنه مطبوع عند دار نشر أخرى، وزاد جنونه عندما أصدرت كتابا في موضوع لهم كتاب فيه

ويعتبرونه من أعظم إنجازاتهم، وكتابي ألقى بكتابهم ذلك إلى القمامة، ونتيجة لهذا اتّصلوا بي وهددوني بالقضاء لأنهم يعتبرون هذا العلم أو هذا الموضوع الخاص بهذا الكتاب حقّ لهم لأنهم أوّل من كتب به.

ونتيجة لهذا التهديد اتّصلت بأشخاص على معرفة بهؤلاء ومطّلعين على أسرارهم، وحصلت على رؤوس خيوط استخدمتها للوصول إلى أشخاص في مختلف بلاد العرب لهم علاقة بالموضوع، وكان نتيجة تحرّياتي كنز من المعلومات الكافية لحرق هؤلاء اللصوص والقضاء على مستقبل عملهم، فوضعتها في رسالة، وقلت لهم فيها أنني أملك كل الوثائق الخاصة بهذه المعلومات والتي تشكّل فضيحة كبيرة لكم، وتؤدي لتدمير عملكم، وكذلك قائمة بكتبي التي كان من المفترض وحسب العقد أن يطبعوها، وهم لم يفعلوا ووضعوا شروطا جزائية على أنفسهم إن لم يطبعوها، وهذا سيضطرّهم لدفع مبالغ كبيرة لي، وأيضا طبعات كتبي التي طبعوها دون موافقتي، كلّ هذا وضعته أمامهم، وجعلهم في موقف لا يحسدوا عليه، وقلت لهم في خاتمة الرسالة أنني لا أنوي الإضرار بهم من أجل العلاقة الودّية السابقة بيننا، ولكن إن سمعت منهم أي تصرّف سيء بحقّي، فهم يعرفون ماذا يمكنني أن اصنع.

وخلال السنوات الماضية يخبرني العاملون في دار النشر التي تنشر كتبي أنّهم يأتون لجناحنا، وينظرون في كتبي الجديدة، ولا يملكون إلا الدعاء عليّ، وهذا يجعلني أضحك من كلّ قلبي، وأشعر وكأنني ذبحتهم من الوريد إلى الوريد دون أن يجرؤوا حتى على البكاء.

من المعلومات التي حصلت عليها، أن بعض أساتذة الجامعات، والمؤلفين الذين يشار لهم بالبنان يسرقون كتبهم من طلاّبهم، وقد قابلت بعضهم شخصيا، وتواصلت مع بعضهم من خلال البريد الإلكتروني،

وكلّ هذا جعلني أشعر أننا نعيش في كذبة كبيرة، لأن بعض الأسماء الرنّانة التي كنّا نعتبرها كنزا من كنوز العلم، مجرّد لصوص.

فرصة للضّحك!

رغم كلّ الآلام أحاول اقتناص أي فرصة للضحك البريء، لتخفيف الإجهاد والتوتّر والاحتقان، وهذا طبعي مذ كنت صغيرا.

من الأحداث والمفارقات المضحكة التي قمت ببعضها عن قصد، وبعضها دون قصد، قصة العريس، وهو صديق لي عنده مشكلة مع إخوانه قريبة من مشكلتي، طلب منّي أن آخذه هو وعروسه إلى قاعة الاحتفالات ثم إلى بيت الزوجية، وهذا ما لم أفعله في حياتي، وأخذنا العروس من صالون التجميل، ولكنّي أخذتهم إلى قاعة أفراح أخرى مجاورة، لأنه ليس عندي خبرة بهذه الأمور، ونزل العروسان، وعرفوا الخطأ، ثم أوصلتهم للصالة، وفي الطريق بدأت السيارات في الموكب بالقيام بحركات لا أحبّها، مثل إطلاق أبواق السيارات والتسابق، فسلكت طريقا آخر، وانفصلت عن الموكب والتقينا عند البيت، وصارت هذه حكاية نتندّر بها أحيانا عندما نلتقي.

أما قصة عثمان فحدثت في إحدى دوراتي، وهو معلّم علوم من كردستان العراق، من قرّاء كتبي، حضر دورة عندي في الأردن، وطيلة الدورة كان يمسك كاميرا فيديو ويصوّرني، يصوّر كلّ حركاتي، وفي أحد الأيام بدأت الاستراحة، وتبعني بالكاميرا، فقلت له وأنا أضحك: عثمان، أنا ذاهب للحمّام، أرجو أن توقف التصوير.

وحاولت مرّة التغابي أمام بعض الزملاء، ولكن كان الأمر مفاجئا، حيث كنّت مع عدد من موظّفي التربية في زيارة لمنطقة عجلون،

ومررنا بقرب مراوح توليد الطاقة الكهربائية، حيث تحوّل طاقة الرياح إلى طاقة كهربائية، فقلت مازحا: أنظر إلى هذا الغباء يضعون مراوح التبريد هذه في منطقة باردة، وكان من الأولى أن يضعوها في عجلون!

وثنّى بعض الزملاء على كلامي، وقالوا: من الأولى أن تكون في الأغوار لأنها حارّة.

صعود ذرى النجاح والمجد!

رغم كل الآلام التي عانيت منها، وكل الكلمات الجارحة التي سمعتها، والمواقف القاسية التي تعرّضت لها، لم أستسلم يوما، لقد ألقيتها وراء ظهري، رغم أنها كانت تترك كلّ مرّة أثرا قاسيا على صحّتي، ولكنّها ضريبة النجاح.

لقد أوجدت عدة مؤلفين ومؤلفات، انتقيتهم بدقّة وشاركوني في بعض كتبي، ووضعتهم على طريق النجاح.

عدد كبير من الناجحين أعطيتهم جزءا من وقتي وهم الآن مخترعون، وأصحاب شركات، ودكاترة جامعات، ورجال أعمال، وتصلني منهم الكثير من الرسائل يخبرونني فيها أنني كنت الدافع الأول لنجاحهم.

كتبي تجاوزت المائة والعشرون كتابا، وعشرات غيرها منشورة رقميا على الإنترنت، وفي كلّ مجال كتبت به لم اقبل أن أصدر كتبا مثل غيري، أو أفضل من غيري، بل كتبي في كل مجال كتبته به كانت في الصدارة، ولا ينافسها كتب أصحاب العلم والمتبحّرون فيه، لقد كتبت في تبسيط العلوم والرياضيات، وكان شعاري هو: أقلّ كلفة، أكثر متعة،

أسهل تحصيلا، أفضل نوعا، والآن لا يوجد مؤلف واحد في عالمنا العربي يجرؤ أن يضع كتبه في مقارنة مع كتبي ولله الحمد والمنّة.

كتبي في التربية والتنمية البشرية الآن تتصدّر كتب هذه العلوم، والكثير يؤمّون بيتي أو يتواصلون معي لأنهم اختاروا بعض كتبي لتكون منطلقا لهم في دراساتهم العليا.

لقد كتبت في الإلكترونيات، والفلك، ومختلف العلوم النظرية، وكتبت عن العلماء العرب الذي حاولت إنصافهم في كتابي، ونشرت أجهزتي التي اخترعتها في بعض كتبي، حتى صار بإمكان أي قارئ مهتم أن يصنعها، فأنا لم أحتكرها لأبيعها، بل اخترعتها لتكون في أيدي الجميع، بحيث يكون الكل قادرا على تصنيعها.

لقد ابتكرت برنامج في التفكير، وهو أولّ برنامج يبتكره عربيّ، ويختص بحلّ المشكلات.

خلال السنوات الماضية شاركت في تأليف مناهج عدة دول، وحوسبة مناهج دول أخرى، وتطبيق بعض النظريات التربوية الحديث على مناهج أخرى، وصدر لي كثير من الكتب في تطوير المناهج، وما زال على الخطّة الكثير، ولهذا فأنا الآن من خبراء المناهج المعروفين.

أعيش في الوقت الحالي حياة مليئة بالعمل، والحب، فعلاقتي مع زوجتي أميرة ليست مثل أي علاقة زوجية أخرى، لقد عانينا من نفس المشكلات قبل زواجنا، ومن بيئة شديد العداء بعد زواجنا، ووضعنا طموحات كبيرة استطعنا تحقيق أغلبها بإذن الله.

أنا الآن أسكن في فيّلا واسعة وجميلة، وأسمع أحيانا كلمات من بعض الحاسدين، حيث يقولون: زوجين حجمهما صغير، وطولهما قصير، وليس عندهم أبناء يسكنون هذه الفيلاّ الرائعة، إنه الحسد الذي

بدأ منذ أيام هابيل وقابيل، وما يزال قابيل خاصّتي، وأعوانه يكملون عمل قابيل الأول.

وتعرف العائلة أنني وقفت كالثور الهائج عندما أتيحت فرص لزواج بعض بنات العائلة، ووقف بعضهم ضد زواجهنّ لأسباب تافهة، وهنّ الآن متزوّجات وسعيدات في حياتهنّ.

كما أنني اقترحت التخصصات الجامعية لبعض أبنائهم بناء على معرفتي بشخصياتهم، وقدراتهم، وقد نجحوا وتميّزوا، وحصلوا على منح لإكمال دراستهم، كما تمكّنوا من الحصول على وظائف بعد تخرّجهم، وأعطيتهم الكثير من أفكاري وإبداعاتي لمشاريع تخرّجهم، وللمشاركة في بعض الجوائز العالمية، ووصلوا لمستويات جيدة، ثم قرّرت التخلّي لهم عن حصّتي في المزرعة على أمل أن أخرج ضغائن أنفسهم.

انتقام النجاح!

في العقود الثلاثة الأولى من حياتي كنت ضعيفا، مهيض الجناح، ولم أجد من يأخذ بيدي ويرعاني، ورغم كلّ هذا حققت نجاحات ترضي معظم الناس، لقد تخرّجت في الجامعة، وتدرّجت في الوظيفة سريعا، وحقّقت نجاحات كبيرة، ولكن هذا لم يرضي طموحي، ووصلت إلى أعلى حد يسمح به جسمي الضعيف.

وخلال تلك الفترة هضمت حقوقي، ولم يكن عندي أي سلاح للوقوف في وجه هذا الطغيان، لأن هؤلاء الظلمة من أهلي، ولن يقبل أحد بالوقوف معي ضدّهم.

ولكن بعد أن منّ الله عليّ بالشفاء، بدأت في تقطيع شبكة العنكبوت التي نسجوها حولي، وصعود سلّم النّجاح، ومع كل درجة

كنت أصعدها، أقطع مزيدا من الخيوط، وأُبعد العناكب عن حياتي، ورغم كلّ ما صنعوه معي، كان عندي بعض الأمل بإصلاحهم، وكنت معهم هيّنا، ليّنا، متسامحا، كريما، مُبادرا لكل خير، ولكن العنكبوت يبقى عنكبوت.

وقد يتّهمني البعض بالتخاذل، وعدم الانتقام ممن ظلمني، ولكنّي انتقمت، وانتقامي شديد أليم، ولم يأت مرّة واحدة، بل على مراحل، فأنا في كلّ مرّة كنت أصعد سلّم النجاح، كنت أصيبهم بألم شديد، ونجاحي هو انتقامي.

وقد يقول قائل: أن لأحدهم حسنة هنا، أو فضل هناك، وأردّ على هذا الكلام بأنه من عدّت حسناته فهو سيء، وخاصة إن كانت هذه المساعدة لأخ مريض، لأن هذا واجبهم، ولو لم أكن أخ، بل لو كان الذي يتعاملون معه حيوان منزلي، ولو جمعت كلّ "حسنات" زاهي من جهة وقمت بمقارنتها بسيّئة واحدة من سيئات زاهي لرجحت، والأكثر سوأ أنه ارتكبها في بيته بعد دقائق من عودته من السفر.

لقد ذهبت للتسليم عليه، وجاءت حفيدته تحبو نحوي فحملتها، فنظر نحوي باشمئزاز، وقال لأهله: خذوا البنت من يده لأنّها ملوّثة، وقد كنت عائدا للتو من صلاة المغرب.

وهذا الكلام أصابني بصدمة شديدة، فغادرت على الفور.

وفي مرّة أخرى كنا في مكان واحد، وجاءت إحدى حفيداته نحوي فكرر نفس الجملة القميئة، ومنذ ذلك الوقت توقّفت عن دخول بيته، فأنا لم أعد أحتمل هذا الحقد الأسود، والرسالة واضحة، هو لا يريد أن لا يراني فوق الأرض، فكيف يمكن أن يحتمل رؤيتي في بيته، أو أن أجد الحب لدى أحد أحفاده الصغار.

أنا وعائلتي الجديدة!

لقد بذلت كلّ جهدي لتحويل هذه العائلة من عناكب يأكل الكبير فيها الصغير، إلى بشر يملكون مشاعر وأحاسيس وعواطف، وجرّبت كل الطرق، ولكن دون جدوى، فبدأت أبحث عن عائلة جديدة!

إن عائلتي القريبة جدا منّي، والتي كانت نتيجة سهر الليالي، هي كتبي، وكلّ كتاب حتى أوصله سالما إلى المطبعة يأخذ منّي الكثير من الوقت والجهد والمال، ويستنفذ جزءا كبيرا من طاقتي، ولكن عندما تخرج أولّ نسخة من المطبعة، أنسى كل تعبي، تماما مثل الأم التي تتعب بالحمل والولادة، ولكنّها تنسى كل شيء عندما ترى طفلها.

هؤلاء أبنائي من الورق، أمّا أبنائي من البشر فهم كثر.

صحيح أنه ليس عندي أولاد من صُلبي، ولكن هناك آلاف من الذين يعتبرون أنفسهم أبنائي، حيث تربّوا ونشأوا على كتبي، ووصلوا إلى أعلى درجات النجاح، أو بدأت ثقتهم بأنفسهم بعد أن حضروا بعض دوراتي، وهناك مئات من أصدقائي، يجمعنا من الحب والاحترام ما يصعب تصديقه في هذا العصر.

وأحد هؤلاء أوس، صديق أبن صديق، فارع الطول وباهر الوسامة، وقوي الشكيمة، يتفجّر طموحا، ويغرقني حنانا، رغم أننا نختلف أحيانا، ولكنّه يقول لي: يسعدني أنّك أبي الثاني، وحتى لو اختلفنا، فلا يمكن للابن أن يغضب أبوه.

لقد ترددت سنوات في كتابة هذه الحكاية، رغم تشجيع الأصدقاء لي منذ سنوات، ولكن قبل أيّام خرجنا في نزهة، أنا وأوس وقال لي في الطريق: عندما أشعر بضيق وإحباط، أتذكّر حياتك، وحجم الصعاب التي واجهتك، وقسوة ظروفك، لأن ظروفي أفضل بكثير،

طويل، جميل، وسيم، من عائلة متحابّة، وحولي الكثير من الأصحاب والأعوان، وعندها ألقي ورائي كلّ ضعف، وأنطلق بكلّ قوة.

وفي تلك اللحظة قررت أن أكتب رواية أستلهمها من حياتي، رغم أنها لم تكتمل بعد، ولكن لا أظنّ أن الصراع سينتهي، وطموحي لن يهدأ، لقد امتلأت خزانة مكتبي بكتبي التي ألّفتها، حيث أضع بها نسخة من كلّ كتاب، ولكنّي استبدلتها حديثا، واشتريت مكتبة ضعف حجمها، تكاد تصطدم بسقف المكتب، وأطمح أن أملأها قبل أن أغادر هذه الدنيا.

ويستمر الصراع والأمل!

الحكاية لم تكتمل بعد، والطموحات لم تتوقّف، وأعداء النجاح لن يستسلموا، ولكن يبقى أملنا في الله كبيرا ، وبإذن الله سيخذلهم كما خذلهم سابقا، وهو القائل:

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) (الطلاق 3)

وكما أقدمت سابقا على قرارات صعبة وقفزات جريئة فأنا الآن أنتقل لمرحلة جديدة، بإصدار هذه الحكاية.

وأنا الآن أضع هذه الحكاية بين يديكم، وأرجو أن تكون عبرة، لكل طموح يريد أن يبدأ في معركة الحياة، ورادعا لكل ظالم نسي عاقبة الظلم، وأذكر قصّة نبي الله يوسف عليه السلام، ذلك النبّي الكريم، الذي عانى من ظلم إخوته الكثير، وكان مصدر خير لهم، وأرجو أن يتوب كل من ظلمني، كما تاب الذين ظلموا يوسف، ولا تنسونا من خاص

دعائكم، فأنا بحاجة ماسّة لـه وأنـا فـوق الأرض، حتـى أكمـل مـسيرتي، وأكثر احتياجا له وأنا تحت الأرض، وأختم بهذه الآية الكريمة:

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَـدِيثًا يُفْتَـرَىٰ وَلَـٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُـلِّ شَـيْءٍ وَهُـدًى وَرَحْمَـةً لِقَـوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (يوسف 111)

انتهت بحمد الله